بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله حمدًا كثيرًا، كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على معلم الناس الخير، وهادي البشرية إلى الرشد، وقائد الخلق للحق، ومخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد ...

فهذا هو الجزء الثاني من «خطبي» التي جمعها وعلق عليها الأخ الباحث الفاضل الشيخ خالد خليفة السعد، نفع الله به وجزاه عني وعن العلم والإسلام خيرًا.

وقد تضمن هذا الجزء عشرين خطبة مثل الجزء الأول، تنوعت موضوعاتها ومناسباتها وأزمنتها أكثرها خطب جمعة، وبعضها خطب عيد.

ومما سرني: أن يضم هذا الجزء خطبًا كنت ألقيتها في مسجد «أبي بكر الصديق» منذ إنشائه من نحو ربع قرن في قطر كنت أظنها قد ضاعت فيما ضاع، وكانت عن «صفات عباد الرحمن» كما بينتها الآيات الكريمة من أواخر سورة الفرقان، فأحمد الله تعالى أن وجدتها.

هذا وقد راجعت جميع هذه الخطب، وتعليق الأخ خالد عليها، وقد أحسن وأفاد بتعليقاته، وخرجت من الأحاديث ما توقف فيه، وربما عدلت بعض العبارات أو أضفت إليها أحيانًا قليلة، خشية أن يكون الشريط لم يسمع جيدًا،

إذ تآكلت فيه بعض الجمل والكلمات.

ولا يسعني إلا أن أشكر للأخ خالد جهده، وللأخ الحاج وهبه حسن وهبه حرصه على حسن إخراج هذا الكتاب وغيره من كتبي، فجزاه الله خيرًا، وأثابه في الدنيا والآخرة عن جهوده الطيبة والمستمرة والمتطورة في نشر الكتاب الإسلامي، ووفقنا جميعًا لما يحب ويرضى، والحمد لله أولًا وآخرًا.

الفقير إليه تعالى

يوسف القرضاوي

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه، أما بعد.

فهذا هو الجزء الثاني من «خطب الشيخ القرضاوي»، التي هي قطعة من نفسه، معبرة عن فكره ومشاعره، موصولة بكتاب الله وسنة رسوله، وتراث هذه الأمة العظيم، وأبطالها الغر الميامين في شتى أدوار التاريخ، كما أنها موصولة بواقع العالم عامة، وواقع العالم الإسلامي اليوم خاصة.

لقد ألهب الشيخ - ولا يزال - بخطبه عواطف المسلمين حيثما كانوا، وأنار عقولهم، وغرس في نفوس الأجيال قيم الإسلام وتعاليمه، وصحح مفاهيم مغلوطة كثيرة علقت بعقيدتهم، وكادت أن تفسد عليهم دينهم، حتى غدت خطبه - جوار كتاباته ومحاضراته - زادًا وغذاء ووقودًا للصحوة الإسلامية المعاصرة.

حفظ الله شيخنا الحبيب، وأبقاه بيننا أعوامًا مديدة، وسنين طويلة، موفور الصحة والعافية، قوي العزم والإرادة، راسخ العلم واليقين.

وأسأله سبحانه أن ينفع بهذه الخطب قارئها وسامعها، ويثيب جامعها وناشرها، إنه سميع مجيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

خالد السعد

* * *

صفات عباد الرحمن

1- التواضع

الخطبة الأولى:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خصنا بخير كتاب أنزل، وأكرمنا بخير نبي أرسل، وجعلنا بالإسلام خير أمة أخرجت للناس، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونؤمن بالله، وأتم علينا النعمة بأعظم دين شرعه الله لعباده: دين الإسلام {**ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا**} [المائدة: 3]، {**وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ**} [آل عمران: 85].

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح للأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وتركنا على المحجة البيضاء، على الطريقة الواضحة الغراء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، فمن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالًا مبينًا، اللهم صل وسلم وبارك على هذا النبي الكريم، وعلى آله وصحابته، وأحينا اللهم على سنته، وأمتنا على ملته، واحشرنا في زمرته، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

يقول الله تعالى في كتابه وهو أصدق القائلين:

{وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ
سَلَٰمٗا 63 وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا 64 وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا
عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا 65 إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا 66 وَٱلَّذِينَ إِذَآ
أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا 67 وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ
إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ
يَلۡقَ أَثَامٗا 68 يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا 69 إِلَّا مَن تَابَ
وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا
70 وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا 71 وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ
وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا 72 وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا
صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا 73 وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ
وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا 74 أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ
وَسَلَٰمًا 75 خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا} [الفرقان: 63-76] صدق الله العظيم.

هذه لوحة قرآنية رُسمت فيها شخصية «عباد الرحمن»، وضح الله فيها المعالم والتقاسيم لهذه الفئة المختارة من الناس، جعلهم الله نموذجًا يحتذى، وأسوة بها يُقتدى.

عباد الرحمن: هم العباد المنسوبون إلى الله وحده، إذا كان هناك عباد للشيطان أو للطاغوت أو للشهوات أو للدينار والدرهم «**تعس عبد الدينار،**

وعبد الدرهم، وعبد الخميصة. - زاد في رواية: **وعبد القطيفة - إن أعطى رضى، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش ...»**(1)، إذا كان هناك عبيد الكاس والطاس، إذا كان هناك عبيد المسكرات والمخدرات، إذا كان هناك عبيد المرأة والغريزة، فإن هناك «عبادًا للرحمن».

هؤلاء العباد الذين أيس الشيطان نفسه أن يتسلل إليهم، أو يجد منفذًا لإغرائهم والسيطرة عليهم **{قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ 82 إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ}** [ص: 82، 83]. وقال عز وجل: **{إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا}** [الإسراء: 65].

هؤلاء هم العباد المنسوبون إلى ذات الله تعالى المقدسة: عباد الرحمن، وقد رضي الله أن ينسبهم إلى ذاته باسم «الرحمن» الذي يشعر بأنهم أهل لرحمة الله عز وجل، وأنهم في دائرة هذه الرحمة، وأن الرحمة تحيطهم عن يمين وعن شمال، ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم، فهم عباد الرحمن.

وقبل ذلك - في هذه السورة - قال الله تعالى عن المشركين: **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْۤ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا}** [الفرقان: 60] فإذا كان هؤلاء يجهلون: ما الرحمن، فإن هناك أناسًا يعرفون الرحمن،

---

(1) جزء من حديث رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، و«القطيفة»: كساء له خمل يجعل دثارًا، و«الخميصة»: ثوب معلم من خز أو صوف، و«انتكس»: أي انقلب على رأسه خيبة وخسارًا، و«شيك»: أي دخلت في جسمه شوكة، و«الانتقاش»: نزعها بالمنقاش، وهذا مثل معناه: إذا أصيب فلا انجبر. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (2/368، 369)، الحديث (658).

ويقدرونه حق قدره، ويؤدون لـه حقـه، وهم عبـاده المخلِصُون والمخلَصُون، أخلصوا دينهم لله، وأخلصهم الله لدينه.

أتريد أن تكون من عباد الرحمن؟ أتريد أن تنتسب إلى الله عز وجل؟ أتريد أن تكـون واحـدًا مـن هـؤلاء؟ أتريـد أن تكـون عضـوًا فـي هـذه الجماعـة؟ وأن تكـون عبـدًا مـن عبـاد الـرحمن وحـده؟ إذن فـاعرف مقومـاتهم وخصـائصـهم وصفاتهم، اعرف من هم «عباد الرحمن» حتـى تجتهد أن تكون واحدًا مـنهم، فالمسـألة ليسـت بـالكلام، القضـية ليسـت دعـوى، فمـا أكثـر الـدعوى ومـا أعـز المعنى.

مـا أكثـر مـن يقـول: أنـا مـن عبـاد الـرحمن، ولكـن أفعالـه تنطـق وتـدل عليـه وتقول لـه: أنت من عباد الشيطان ولست من عباد الرحمن.

عبـاد الـرحمن لهم خصـال وصـفات وسـمات، ذكرهـا الله فـي هـذه الآيـات، وما أجدرنـا أن نعيش في رحاب هذه الآيات جُمعًا وجُمعًا.

أول سمات عبد الرحمن: أنهم يمشون على الأرض هونا. انظروا كيف بـدأ الله أوصـاف عبـاد الـرحمن بهـذه الصـفة: **{يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا}**، أللمشـى هذا الاعتبار كله؟! كيفية المشي، صفة المشي، لها قيمة عند الله؟!

نعم، لأنها تُعبِّر عن الشخصية، تعبر عما يستكن فيها من مشاعر وأخـلاق، فـالمتكبرون الجبـارون لهـم مشـية، والمؤمنـون المتواضـعون لهـم مشـية، كـل يمشي معبرًا عما في ذاته.

وعبـاد الـرحمن يمشـون علـى الأرض هونـًا، يمشـون متواضـعين هيِّـنين ليِّنين، يمشون بسكينة ووقار، لا بتجبر ولا إستكبار، لا يستعلون علـى أحد، لا

ينتفشون ولا ينتفخون، لا يمشي أحدهم، وكأنه يقول: يا أرض انهدي ما عليك قدي. لا، إنه يمشي مشية من يعلم أنه من الأرض خرج وإلى الأرض يعود **{مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ}** [طه: 55].

وفي وصايا الله - الوصايا الحكيمة في سورة الإسراء، كان النهي عن المشي المرح والأشر والبطر والاختيال والفخر إحدى هذه الوصايا: **{وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا}** [الإسراء: 37].

{إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ}: مهما دببت برجليك، **{وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا}**: مهما تطاولت بعنقك، وشمخت برأسك، فامش إذن متواضعًا حتى يحبّك الله، وحتى يحبّك النّاس، فالله لا يحب المختال الفخور، ولهذا نجد القرآن في آية ثالثة يحكي لنا عن وصيّة لقمان لابنه وهو يعظه، فكان من وصاياه: **{وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ 18 وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ}** [لقمان: 18، 19].

{وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ}: لا تكلم الناس وأنت معرض عنهم، مشيح عنهم بوجهك، ولا تجعلهم يكلمونك وأنت معرض عنهم، بل أقبل عليهم، وكلمهم ووجهك منبسط إليهم.

{وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}: المختال الذي يظهر أثر الكِبَر في أفعاله، والفخور الذي يظهر أثر الكبر في أقواله، فهو يقول: أنا فلان، وابن فلان، ومن أسرة فلان.

الله لا يحب المختال ولا يحب الفخور، إنّما يحب الله المتواضع الذي يعرف قدر نفسه، ولا يحتقر أحدًا من النّاس.

{... ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا}: ليس معنى الهون أنهم يمشون متماوتين متمارضين، كما يفعل بعض من ينتسب إلى التقوى والصلاح، فهو يتماوت ويتصنّع، لا، ما كان هكذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا كان أصحابه.

كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم - كما روى عنه علي بن أبي طالب - إذا مشى تكفّأ تكفؤًا كأنّما ينحط من صبب(2) وهي مشية أولي العزم والهِمَّة والشجاعة، كما قال ابن القيِّم رحمه الله (3). وقال أبو هريرة رضي الله عنه: ما رأيت شيئًا أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، كأن الشمس تجري في وجهه، وما رأيت أحدًا أسرع في مشيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، كأنّما الأرض تُطوى له، وإنّا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث(4).

هكذا، لم يكن صلى الله عليه وسلم متماوتًا ولا بطيئًا، وليس معنى «السرعة» هنا: السرعة التي تذهب بالوقار، بل الوسط، لا بالسريع المفرط، ولا بالبطئ المفرِّط. هذا هو مشي المؤمنين، مشي فيه قوّة، وفيه - في نفس الوقت - تواضع.

---

(2) أي: كأنّه ينزل مرتفع إلى منحدر.

(3) في كتابه القيم «زاد المعاد في هدي خير العباد».

(4) يراجع فصل: «في هديه صلى الله عليه وسلم في مشيه وحده ومع أصحابه» من كتاب «زاد المعاد» للإمام ابن القيم (167/1 - 169) بتحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط.

وهكذا كان عمر رضي الله عنه، رأى شابًا يتماوت في مشيته، فقال: أأنت مريض؟ قال: ما أنا بمرض، قال: فلا تمشي هكذا، وعلاه بدرّته.

أمره أن يمشي مشي الأقوياء المتواضعين.

ورأت إحدى الصحابيات شبانًا يمشون متهالكين متماوتين، فسألت عنهم: من هؤلاء؟ قالوا: هؤلاء نساك - عباد، قالت: والله لقد كان عمر إذا مشى أسرع، وإذا تكلم أسمع، وإذا ضرب أوجع، وكان هو النّاسك حقًا!

كل أفعاله تدل على القوة، ليس بالمتماوت.

فليس معنى المشي الهون أنهم يمشون متماوتين، لا، ما يزيد الإسلام هذا الإنسان المتماوت المتمارض.

رأي عمر بعض النّاس يتخشع في صلاته، ويتصنّع ويطأطئ رقبته، فعلاه بالدرة وقال: يا هذا، ارفع رأسك، لا تمت علينا ديننا أماتك الله، إنّ الخشوع في القلوب، ليس الخشوع في الرقاب!

فهذا الذي نريده بالمشي الهون.

{... ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا}: أي يمشون لينين متواضعين مع القوة أيضًا. والسرعة المتوسطة على حسب مقدرتهم وسنهم واستطاعتهم.

التحذير كله أن يمشي الإنسان في الأرض مرحًا، وأن يمشي الإنسان في الأرض مختالًا، قد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك أشد التحذير وقال: «**من تعظم في نفسه أو اختال في مشيته، لقى الله تعالى وهو عليه**

غضبان»[5]. وقال: «**بينما رجل - ممن كان قبلكم - يتبختر يمشي في برديه، قد أعجبته نفسه، فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة**»[6]، يمشي متبخترًا في برديه، معجبًا بنفسه، شامخًا بأنفه، ثانيًا لمعطفه، مصعرًا لخده، فخسف الله به الأرض، كما خسف بقارون حينما خرج على قومه في زينته، مختالًا فخورًا، فخسف الله {**... بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ**}[7] [القصص: 81].

علام إذًا يستكبر الناس؟ علام يتجبرون؟ علام يستعلون على غيرهم؟ لو نظروا إلى أنفسهم لوجدوا - كما قال الإمام الغزالي - أن أباهم الماء المهين وجدهم التراب، وكما قال تعالى: {**... وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ 7 ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ**} [السجدة: 7، 8].

رأى مطرف بن عبد الله بن الشخير، المهلب يمشي متبخترًا، فغمزه ونهاه

---

(5) رواه أحمد في «مسنده» عن ابن عمر بهذا اللفظ، وصححه الشيخ شاكر برقم (5995)، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح (98/1)، كما رواه الطبراني في «الكبير»، ورواته محتج بهم في «الصحيح» كما قال المنذري، وكذا رواه الحاكم بنحوه وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (60/1)، ونسبه في «الجامع الصغير» إلى أحمد والبخاري في «الأدب المفرد» ورمز لحسنه (169/2)، قال المناوي في «الفيض»: وهو كما قال أو أعلى (106/6) برقم (8598)، وانظر: «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» للقرضاوي (759/2، 760) برقم (1766).

(6) رواه مسلم في كتاب «اللباس والزينة» عن أبي هريرة برقم (2088)، ونحوه في البخاري أيضًا في اللباس «البخاري مع الفتح» (258/10)، وانظر: «اللؤلؤ والمرجان» (1351).

(7) وأولها: {**فَخَسَفْنَا**}.

عن هذه المشية وقال: إن هذه مشية يبغضها الله عز وجل. وكان المهلب قائدًا من القواد الكبار فقال له: أما تعرفني؟ قال له: نعم، أعرفك وأعرف أولك وآخرك، أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت فيما بين ذلك تحمل المعذرة!

أولك نطفة ... ماء مهين، كما ورد عن بعض السلف: عجبت لمن جرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبر؟! لأنه وهو نطفة خارج من أبيه جرى في مجرى البول، وهو أيضًا حينما وُلد جرى في مجرى البول، وقال الحسن: عجبت لمن يغسل الخرء بيده مرةً أو مرتين كل يوم كيف يتكبر على جبار السموات.

لماذا يتكبر الإنسان؟ علام يتكبر؟ وعلام يختال؟ وعلام يفتخر على غيره ما دام أوله نطفة وآخره جيفة؟! آخره الموت الذي يسوي بين الكبير والحقير، والغني والفقير، الكل ينتهي عند هذه الغاية، فعلام يتكبر المتكبرون؟

الأرض التي يمشي عليها الإنسان مرحًا، هذه الأرض تُرى ماذا وارت من الكبار؟ ماذا وارت من الأثرياء؟ ماذا وارت من الأمراء؟ ماذا وارت من الملوك؟ يقول الشاعر الصالح:

ولا تمش فوق الأرض إلا ... فكم تحتها قوم همو منك أرفع
وإن كنت في عز وجاه ومنعة ... فكم مات من قوم همو منك

أبو العلاء المعري له قصيدة رائعة يقول فيها:

صاح هذي قبورنا تملأ ... فأين القبور من عهد عاد؟!
خفف الوطأ، ما أظن أديم الأ ... رض إلا من هذه الأجساد!

سر إن إستطعت في الهواء   لا اختيالًا على رفات العباد!

فقبيح بنا وإن قدم العهد   هوان الآباء والأجداد

ما يدريك لعل الأرض التي تمشي عليها مقبرة قديمة ذابت وبليت فيها عظام قوم كانوا من كبراء الناس.

نحن على حداثة عهدنا رأينا مقابر واسعة في قطر فتحت وامتلأت وأغلقت، وفتحت أخرى وتمتلئ وتغلق.

فأين قبور من كان قبلنا؟ من يدري أن الأرض التي نمشي عليها هي مقابر قديمة؟ من يدري لعل الأرض التي تختال عليها برجليك أو بسيارتك تنهب الأرض نهبًا، إنما هي مقابر لعظماء من الناس من قديم.

لا تمش في الأرض مرحًا، اعرف قدرك أيها الإنسان، تواضع لله، فمن تواضع لله رفعه[(8)]، فهو في نفسه حقير، وعند الناس كبير، ومتى تكبر وصنعه الله، فهو في نفسه كبير وعند الناس حقير.

إذا كان الإنسان يختال ويفتخر ويتعاظم ليكون عظيمًا عند الناس، فالعكس هو الصحيح، إن هذا يحقره عند الناس، ويجعله بغيضًا إلى الناس كما هو بغيض إلى الله عز وجل.

ولهذا كان على الإنسان المؤمن أن يتواضع - وكما قالت عائشة رضي الله عنها: أفضل عبادة للمؤمنين التواضع - كما كان رسول الله صلى الله عليه

---

(8) روى مسلم، والترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**». «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (755/2) برقم (1751).

وسلم أكثر الناس تواضعًا، على ما له من مقام عند الله وعند الناس، كان يمشي خلف أصحابه كواحد منهم، وكان يجلس بينهم لا يتميز عليهم، حتى إن الرجل الغريب ليأتي فيقول: أيكم محمد؟ أيكم ابن عبد المطلب؟ لأنه لا يتميز بشئ عن أصحابه، وكان في بيته يكون في مهنة أهله، يرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويحلب شاته، ويطحن مع الجارية والغلام، بيديه الكريمتين صلى الله عليه وسلم.

على الإنسان المؤمن أن يتعلم التواضع، وأن يمشي في الأرض هونًا، هذه أول صفات «عباد الرحمن».

التواضع يظهر أثره في المشي، وتزيد المرأة المسلمة في صفة المشي أنها تمشي على إستحياء، كما وصف الله تلك المرأة ابنة الشيخ الكبير فقال: **{فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ ...}** [القصص: 25]، وقال تعالى: **{... وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ...}** [النور: 31].

إن القبول عند الله وعند الناس ليس بالخيلاء ولا بالافتخار، فالله لا ينظر إلى من جر إزاره خيلاء، لا ينظر إلى من استكبر على عباد الله، وبحسب امرئ من الشر أن يستكبر على أخيه المسلم، إنما ينظر الله إلى المتواضعين، الذين تواضعوا لله، وتواضعوا لعباده، حتى أن الله تعالى مدح الذلة على المؤمنين بقوله في وصف عباده المخلصين: **{... أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ...}** [المائدة: 54].

نسأل الله عز وجل أن يجعلنا من عباد الرحمن **{ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ}** [الزمر: 18].

استغفروا ربكم إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله {**غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ**} [غافر: 3]، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له {**... بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ 1 ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ**} [الملك: 1، 2].

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، السراج المنير، والبشير النذير، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته، واهتدى بسنته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

في هذا الأسبوع حضرت المؤتمر العالمي الثاني للدعوة الإسلامية والدعاة المسلمين في المدينة المنورة، في رحاب حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبدعوة من الجامعة الإسلامية هناك، واتخذ المؤتمر توصيات هامة كثيرة.

ومن هذه التوصيات توصية أقولها لكم الآن وهي:

نداء إلى جميع الحكومات والمؤسسات والشركات والأفراد المسلمين، أن يستغنوا عن العمالة الأجنبية بالعمالة الإسلامية، وأن يستخدموا المسلمين قبل غيرهم، فإن العمالة الأجنبية الوافدة قد كثرت في بلاد المسلمين، وخاصة في بلاد الخليج.

وهذا خطر على الطابع الإسلامي لهذه البلاد، وخطر على البيوت

الإسلامية أن يدخلها غير المسلمين وغير المسلمات، وبخاصة المربيات والمشرفات على تربية الأبناء والبنات، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: **«لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقي»**(9)، فالذي يدخل بيتك ويعاشرك ويصاحبك ويأكل طعامك، ويطلع على عوراتك، ويعرف أمورك، ينبغي أن يكون مسلمًا، بل ينبغي أن يكون من أصلح المسلمين كلما استطعنا ذلك.

فهذا النداء إلى الناس أن يتحروا في هذه النقطة، وأن يبادروا إلى اختيار المسلمين قبل كل شيء والمسلمات قبل كل شيء، فهذا نداء وهذه توصية أحببت أن أبلغها إليكم لكثرة ما أرى من دخول غير المسلمين وغير العرب إلى هذه البلاد وإلى غيرها.

فليتحر كل مسلم وكل مسلمة يسمع هذا، وخاصة في البيوت، والإشراف والتربية، فلا ينبغي أن نعطي أولادنا وأطفالنا لغير المسلمين ولغير المسلمات يلقنونهم ما لا نعرف، أو ما نعرف أنه ضد الدين.

النبي صلى الله عليه وسلم يقول: **«كل مولود يولد على الفطرة، حتى يعرب عنه لسانه، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»**(10).

---

(9) رواه ابن حبان في «صحيحه»، ورواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (790/2) الحديث (1851).

(10) رواه أبو يعلى، والطبراني في «الكبير»، والبيهقي في «السنن» عن الأسود بن سريع، ورمز له السيوطي بالصحة في «الجامع الصغير» (94/2)، وانظر تعليق المناوي عليه في «الفيض» (33/5، 34) برقم (6356).

والمربيـة تصـبح بمنزلـة الأبـوين، فلهذا ينبغيـأن نعـي هـذا الخطـر، وأن ندركه، وأن نحاول العمل بهذه التوصية.

نسـأل الله تعـالى أن يفقهنـا فـي ديننـا، وأن يعلمنـا مـا ينفعنـا، وأن ينفعنـا بمـا علمنا، إنه سميع قريب.

اللهم أصلح لنـا ديننـا الذي هو عصمة أمرنـا، وأصلح لنـا دنيانـا التـي فيهـا معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التـي إليهـا معادنـا، واجعل الحياة زيـادة لنـا فـي كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر.

اللهم اجعل يومنا خيرًا من أمسنا، واجعل غدنا خيرًا من يومنـا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

اللهم أكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنـا، وزدنـا ولا تنقصنا، وآثرنـا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا.

اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام، اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسـلام، اللهـم انصـرنا علـى أعدائك أعداء الإسـلام، اللهـم إنـا نجعلـك فـي نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم، اللهم اجمع كلمتنا عليهم.

اللهم اجمع كلمة المسلمين على الهدى والتقى، والجهاد في سبيلك يا رب العالمين.

{... رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ} [آل عمران: 147].

{... رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا

لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ} [الحشر: 10].

وصل اللهم على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا.

{إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا} [الأحزاب: 56].

وأقم الصلاة.

* * *

صفات عباد الرحمن

2 - الحِلمُ

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

كنّا تحدثنا عن صفات عباد الرحمن، الذين ذكرهم الله تعالى في أواخر سورة الفرقان، وتحدثنا عن الصفة الأولى من صفاتهم وهي أنهم: {**... يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ...**} [الفرقان: 63].

ثم ذكر الله الصفة الثانية من صفاتهم فقال: {**... وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا**} [الفرقان: 63]، صفتهم في أنفسهم: التواضع، أنهم هينون لينون، متواضعون غير مستعليين ولا مستكبرين، «**... وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**»(11).

والصفة الثانية: حالهم مع الناس وخاصة مع أهل الجهل والسفه! {**وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا**}.

قالوا قولًا يسلمون فيه من الإثم، ويسلمون فيه من اللوم، ويسلمون فيه من سوء العاقبة، لا يردون على السيئة بالسيئة وإن كان هذا من حقهم، وإن كانوا يقدرون على أن يكيلوا الصاع صاعين، وأن يردوا اللطمة لطمتين، ولكنهم لا

---

(11) أخرجه مسلم في «صحيحه» - «كتاب البر والصلة والآداب» باب استحباب العفو والتواضع - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأوله: «**ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا ...**».

يشغلون أنفسهم بالرد على الجهال والسفهاء، لا، إنهم: {**... وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا**}. قالوا قولًا سديدًا يليق بهم، ويليق بحالهم مع الله، يليق بحالهم مع الآخرة، يليق بما نصبوا أنفسهم له من نصرة الدين وإقامة الحق في الأرض.

{**قَالُواْ سَلَٰمًا**}: قالوا لهم سلام عليكم، كما حكى الله تعالى عن جماعة من المؤمنين: {**وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ**} [القصص: 55].

لنا طريق ولكم طريق، ولا نحب أن نتنازل عن طريقنا لنمشي في طريقكم.

هذا هو شأن عباد الرحمن {**وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا**}، والجهل هنا ليس هو «الجهل ضد العلم»، ولكنه أكثر ما يكون «الجهل ضد الحلم».

الجاهل السفيه قد يحمل شهادة عالية، وقد يتسنم أرفع المناصب، ولكنه جاهل في نفسه، سيئ الخلق، قد يكون له لسان، وقد يكون له قلم يكتب به في كبريات الصحف، ولكنه سفيه جاهل، يمكن لسانه وقلمه من أعراض الشرفاء من الناس.

هؤلاء إذا خاطبوا عباد الرحمن {**قَالُواْ سَلَٰمًا**}، قالوا: {**... سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ**}، هؤلاء هم الجاهلون، كما قال الشاعر الجاهلي:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

«الجاهل» في نظر القرآن هو: كل من عصى الله عز وجل، كل من غلب الهوى على الحق، كل من غلب الشهوة على العقل.

يوسف عليه السلام لما راوده النسوة عن نفسه قال: {... **وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ**} [يوسف: 33].

وموسى عليه السلام حينما أمر قومه أن يذبحوا بقرة {... **قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ**} [البقرة: 67].

أي أن يهزأ في موضع الجد، وأن يتكلم بسخرية في موضع الحق، هذا شأن الجاهلين.

فكل من عصى الله - كما قال السلف - فهو جاهل، وكل سيئ الخلق فهو جاهل.

عباد الرحمن لا يشغلون أنفسهم بمعركة دائمة مع الجاهلين.

الجاهلون ملء الأرض، لو شغل الإنسان نفسه بهم، فلن تستقيم له الحياة، ولن يستطيع أن يؤدي عمله، ولن تستريح له نفس، أو يطمئن له قلب، سيتعب وسيشغل نفسه بالباطل، ولهذا ينزهون أنفسهم عن الرد على هؤلاء، وإن كان لهم الحق في أن يردوا السيئة بمثلها، ولكنهم يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا حقًا، فكل إناء بالذي فيه ينضح.

قالوا إن المسيح عليه السلام مر على جماعة من اليهود، فقالوا فيه شرًا، وقال فيهم خيرًا. فقالوا له: يقولون فيك شرًا وتقول فيهم خيرًا!! قال لهم: كل ينفق مما عنده.

من كان عنده الخير أنفق الخير، ومن لم يكن في جعبته إلا الشر والخبث أنفق الشر والخبث، وهذا ما قاله الشاعر العربي قديمًا:

ملكنـا فكـان العفـة منـا سـجية   فلمـا ملكـتم سـال بالـدم أبطـح
فحسـبكم هـذا التفـاوت بيننـا   وكـل إنـاء بالـذي فيـه ينضـح

عباد الرحمن إذا خاطبهم الجاهلون **{قَالُواْ سَلَٰمٗا}**، نزهوا ألسنتهم أن تلوث باللغو من الكلام، فلسان المؤمن جدير أن يملأه ويرطبه بذكر الله عز وجل، بتلاوة القرآن، بالتسبيح، بالتحميد، بالتهليل، بالتكبير، بالاستغفار، بشئ من هذا.

أما بالرد على الجهال - وما أكثرهم! - فينزه لسانه عنه، ويحرص على وقته ... على عمره أن يضيع في هذا الباطل.

العمر ثمين، والوقت نفيس، وهو كالسيف إن لم تقطعه قطعك، ولهذا كان على عباد الرحمن أن يعمروا أوقاتهم بالخير، وأن يعرضوا فيها عن اللغو.

ومن هنا كان من أوصاف المؤمنين الأولى: **{ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ 2 وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ}** [المؤمنون: 2، 3].

ينزهون ألسنتهم، يحفظون أوقاتهم وأعمارهم، يحفظون صحائف حسناتهم، يريدون أن تمتلئ بالحسنات والخيرات، بدل أن يكتب عليهم شيء من السيئات أو شيء لا لهم ولا عليهم.

يريدون أن يكونوا أصحاب الفضل يوم القيامة، فقد جاء في الحديث الذي رواه البيهقي في «شعب الإيمان» عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: **«إذا جمع الله تعالى الخلائق نادى منادي: أين أهل الفضل؟ فيقوم ناس هم يسير** «أعداد قليلة، ليسوا جمًا غفيرًا» **فينطلقون سراعًا إلى الجنة. فتلقاهم الملائكة فيقولون: إنا نراكم سراعًا إلى الجنة، فمن أنتم؟**

فيقولون نحن أهل الفضل، فيقولون: ما كان فضلكم؟ فيقولون: كنا إذا ظلمنا صبرنا، وإذا أسيئ إلينا غفرنا، وإذا جهل علينا حلمنا. فيقال لهم: أدخلوا الجنة فنعم أجر العاملين»(12).

عباد الرحمن يريدون أن يكونوا من أهل الفضل هؤلاء.

هناك مرتبتان: مرتبة العدل ومرتبة الفضل.

مرتبة العدل: أن تقابل السيئة بمثلها. ومرتبة الفضل: أن ترتفع عن ذلك، فتقابل السيئة بالحسنة، كما قال تعالى : **{وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ}** [فصلت: 34].

إذا كانت هناك طريقتان: طريقة حسنة وطريقة أحسن منها، فادفع بأحسن الطرق، وبأحسن الوسائل، بالكلمة الطيبة، بالفعل الجميل، بالإحسان، بتقديم خدمة حتى لمن أساء إليك: **{ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ}**: كأنه صديق قوي الصداقة، وذلك لأن الإنسان أسير الإحسان.

إذا أحسنت إلى إنسان، فإن إحسانك إليه يشده إليك ويقربه منك، كما قال القائل:

أحسن إلى الناس تستعيد   فطالما استعبد الإنسان إحسان

جاء رجل إلى ترجمان القرآن وحبر الأمة: عبد الله بن عباس رضي الله

---

(12) قال البيهقي: هذا متن غريب وفي إسناده ضعف والله أعلم «شعب الإيمان» تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، (263/6) برقم (8086) باب في حسن الخلق/ فصل في التجاوز والعفو وترك المكافأة.

عنهب، فسبه وتطاول عليه. فنظر ابن العباس إلى مولاه عكرمة وقال: يا عكرمة، أنظر هل للرجل من حاجة فتقضيها له؟ فنكس الرجل رأسه واستحى وانصرف.

وتطاول رجل على علي زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنهت، فكان عليه قميصه فأعطاه إياه، وأمر له بألف درهم.

هكذا كان الأفاضل الشرفاء الأبرار من الناس يقابلون السيئة بالحسنة.

سئل أنس بن مالك - خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم - عن هذه الآية: **{ ... ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ}** [فصلت: 34]. ما معناها؟ قال: هو الرجل يشتمه أخوه فيقول له: إن كنت صادقًا فغفر الله لي، وإن كنت كاذبًا فغفر الله لك!!

أنظروا إلى هذه النفس الكبيرة، يقول له ياظالم أو يا فاسق أو يا مرائي أو يا كذا، فيرد عليه هذا الرد: إن كنت صادقًا وأنا ظالم أو مراء أو فاسق فغفر الله لي، وإن كنت كاذبًا فغفر الله لك كذبك.

وبهذا تنطفئ نار الغضب. والغضب جمرة من النار يلقيها الشيطان في جوف ابن آدم، فعليه أن يطفئها بالحلم بكف النفس واللسان.

ومن هنا كانت وصية النبي صلى الله عليه وسلم لكثير ممن استوصوه من الصحابة: «**لا تغضب**».

سأله رجل وصية وقال له: أقلل يا رسول الله «يعني أريد كلامًا قليلًا، لا أستطيع أن أحفظ الكلام الكثير» فقال له: «**لا تغضب**» فأعاد عليه السؤال

وأعاد عليه النبي صلى الله عليه وسلم الجواب(13).

ومعنى «لا تغضب»: لا تطع الغضب، أي إذا غضبت فكف نفسك، ألجمها بلجام التقوى، لا تطع شيطان الغضب فتتصرف تصرف السفهاء، ومعناها أيضًا: لا تضع نفسك مواضع الغضب، ابعد عن أسباب الغضب ما استطعت.

هذا هو شأن الإنسان المؤمن، لا يغضب ولا يعرض نفسه للغضب، وإذا غضب أمسك لسانه ويده، فلا يتكلم ألا بخير، ولا يبسط يده إلا إلى خير.

سب رجل رجلًا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال المسبوب لسابه كلما شتمه: عليك السلام، عملًا بهذه الآية: **{وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا}**[الفرقان: 63]، فقال النبي صلى الله عليه وسلم «**أما إن ملكًا بينكما يذب عنك، كلما يشتمك هذا، قال له: بل أنت وأنت أحق به، وإذا قال له عليك السلام قال: لا بل لك أنت أحق به**»(14).

أي أن الله يبعث من الملائكة من يذود عن هذا المظلوم الذي كفّ لسانه وغضبه، ولم يردّ على الجهل بمثله.

---

(13) جاء ذلك في حديث جارية بن قدامة الذي رواه أحمد، ورواته رواة الصحيح، وابن حبان في «صحيحه»، ولفظ أحمد: أن رجلًا قال: يا رسول الله، قل لي قولًا واقلل لعلي أعيه، قال: «**لا تغضب**» فأعاد عليه مرارًا، كل ذلك يقول: «**لا تغضب**». انظر: «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (726/2)، الحديث (1653).

(14) رواه أحمد (445/5)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (75/8) وقال: رجاله رجال الصحيح غير أبي خالد الوالبي وهو ثقة.

جاء في «صحيح البخاري»[15]: أن ابن عباس رضي الله عنهب قال: «قدم عيينة بن حصن بن حذيفة «أحد جفاة الأعراب وكان سيدًا في قومه» فنزل على ابن أخيه الحرّ بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر رضي الله عنه ومشاورته كهولًا كانوا أو شبانًا، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه، فاستأذن الحرّ لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى هم به، فقال له الحرّ: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: **{خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ}** [الأعراف: 199] وإن هذا من الجاهلين.

«خذ العفو»: أي ما عفا لك وتيسر من أخلاق الناس، عامل كل إنسان على قدر طاقته، ولا تتطلب الكمال في الناس.

«وأمر بالعرف»: ما تعرفه الفطر والعقول السليمة.

«وأعرض عن الجاهلين»: لا تشغل نفسك بهم.

وكان عمر رضي الله عنه وقافًا عند كتاب الله عز وجل، فما كاد يتلو هذه الآية، حتى هدأ كل ما في نفسه، وأعرض عنه.

وهكذا ينبغي أن يكون الإنسان المؤمن: يعرض عن الجاهلين، لا يشغل نفسه بهم، إنه مشغول بما هو أعظم من ذلك، ليذكر الله تعالى ، وليذكر

---

(15) كتاب «التفسير»، باب «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين». انظر: «البخاري مع الفتح» برقم (4642).

الآخرة، وليذكر الحساب والجزاء.

أغلظ رجل لعمر بن عبد العزيز - وهو خليفة وأمير المؤمنين - في القول، ففكر عمر وأطرق مليًا، ثم قال له: أردت أن يستفزني الشيطان بسيف السلطان، فأنال منك اليوم ما تناله مني غدًا، لا والله.

أراد أن يستفزه الشيطان لما له من سلطة ونفوذ، فيعاقب الرجل بما عنده من قدرة وسلطان، وإذا عاقبه اليوم فقد ينال منه غدًا، لأن هناك قصاصًا يوم القيامة، حتى يقتص للشاء الجماء - التي لا قرن لها - من الشاة القرناء، إذا نطحت صاحبتها[16].

هكذا كانت آمتنا: أمة حلم، وأمة علم.

كانوا لا يشغلون أنفسهم بالتوافه، ولا يشغلون أنفسهم بمعارك.

عباد الرحمن يقولون: «سلامًا» إذا خاطبهم الجاهلون، لأنهم مشغلون بما هو أعظم، مشغلون بدينهم، مشغلون بآخرتهم، مشغلون بأمر أمتهم، وليسوا مشغولين بالانتصار للنفس.

الذين ينتصرون لأنفسهم، الذين يدورون حول ذواتهم، الذين جعلوا من

---

(16) فقد جاء في الحديث الذي رواه أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«يقتص للخلق بعضهم من بعض، حتى للجماء من القرناء، وحتى للذرة من الذرة»** ورواته رواة الصحيح كما قال المنذري، وقال الشيخ القرضاوي معلقًا على هذا الحديث: المقصود بهذا القصاص - والله أعلم - إبراز العدل الإلهي المطلق في أبلغ صورة، وأن أحدًا لن يضيع حقه يوم القيامة، وإلا فإن هذه الحيوانات ليست مكلفة، ولا ثواب لها، ولا عقاب عليها. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (930/2) برقم (2259).

أنفسهم أصنامًا يطاف بها، هؤلاء هم الذين يعيشون في معارك دائمًا.

من أجل كلمة يقيم أحدهم حربًا، من أجل لفظة يقولها هذا أو ذاك يمتلئ قلبه حقدًا، ويدير الحياة من وراء ذلك على هذا الأساس، يتخذ من هذا خصمًا ومن هذا عدوًا من أجل كلمة قيلت، ولعلها قيلت في ثورة غضب.

عباد الرحمن ليسوا كذلك، إذا غضبوا فإنما يغضبون لله، يغضبون لذات الله، يغضبون لحق العقيدة، يغضبون لحق الشريعة، يغضبون لحق الأمة.

وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يغضب لنفسه، ولا يغضب للدنيا.

خدمه أنس بن مالك عشر سنين، وقال في ذلك: خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين، والله ما قال لي أفًّا قط، ولا قال لي لشيء لم فعلت كذا وهلا فعلت كذا[17].

هذا الخلق العظيم، وهذه النفس السمحة، وهذا الطبع الكريم، كان في شؤونه الشخصية، ولكنه كان يغضب إذا انتهكت حرمات الله عز وجل، كان - كما قال علي - : «لا يغضب للدنيا، فإذا أغضبه الحق لم يعرفه أحد، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له»[18].

كان يغضب لله ولا يغضب لشخصه، وهذا هو شأن عباد الرحمن، لا

---

(17) حديث صحيح أخرجه مسلم في كتاب «الفضائل» باب «حسن خلقه صلى الله عليه وسلم». انظر: «صحيح مسلم بشرح النووي» (69/15).

(18) «إحياء علوم الدين» للغزالي (171/3) ط. دار المعرفة ببيروت، وعزاه الحافظ العراقي في تخريجه إلى الترمذي في «الشمائل».

يغضبون لأنفسهم في الشؤون الشخصية ... في شؤون الأخذ والعطاء، والبيع والشراء، والتعامل والتحاسب، والصحبة والجوار، ولا يشغلون أنفسهم بمعارك جزئية، إنما يشغلون أنفسهم بمعركة الإسلام والوجود الإسلامي وهذا ما ينبغي أن يعرفه المسلمون في عصرنا.

من أراد أن يكون من عباد الرحمن، فليدع هذه المعارك التي يفتعلها الناس بعضهم مع بعض.

الدنيا ـ والله ـ أهون من أن يتعارك عليها الناس، إنها لا تزن عند الله جناح بعوضة، والنفس أهون من أن يتقاتل عليها الناس.

لماذا ينتصر الناس لأنفسهم؟ من أنت أيها الإنسان؟ أيها التراب الذي يمشي على التراب ويصير إلى التراب.

لا تغضب لنفسك ولكن اغضب لربك، لا تغضب لدنياك ولكن اغضب لدينك.

فأين منا من يغضبون لربهم؟ وأين منا من يغضبون لدينهم؟ وأين منا من يتنازلون عن حقوقهم لإخوانهم؟ أين الأذلة على المؤمنين، الأعزة على الكافرين؟

نسأل الله عز وجل أن يفهنا في ديننا، وأن يجعلنا من عباد الرحمن **{ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ}** [الزمر: 18].

أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

من معارك الإسلام اليوم: معركة المسلمين في أفغانستان.

قدر الله لأمتنا الإسلامية في هذا العصر أن تخوض معارك شتى: معارك مع اليهودية العالمية، ومعارك مع الصليبية الغربية والشرقية، ومعارك مع الشيوعية الدولية، معارك في كل مكان.

ومن أعظم هذه المعارك: معركة إخواننا في أفغانستان، معركتهم مع الشيوعية الحمراء، مع الإلحاد الأحمر، الذي ينكر وجود الله عز وجل، وينكر الآخرة، وينكر النبوات والرسالات، وينكر القيم الأخلاقية، وينكر الإسلام خاصة.

الإلحاد الشيوعي يحارب الأديان جميعًا، ولكنه يخص الإسلام بمزيد من الحرب والنقمة لعداوات تاريخية.

هذا الإلحاد الشيوعي الأحمر لم يكتف بالتسلل إلى بلاد المسلمين، وغزوها من الداخل عن طريق التضليل الماركسي والغزو الفكري، الذي اصطاد ضحاياه من أبناء المسلمين الذين جهلوا دينهم، وجهلوا حقيقة رسالتهم.

لم يكفه هذا حتى أراد أن يغزو المسلمين بالسلاح، وبدأ هناك في أفغانستان، وأقول لكم: إن أفغانستان تمثل خط الدفاع بالنسبة للمسلمين جميعًا، لو أنهار هذا الخط سيزحفون على ما بعدها ويهددون هذه البلاد كلها.

ولذلك فإن المجاهدين في أفغانستان لا يدافعون عن أرض الإسلام في أفغانستان فقط، ولكنهم يدافعون عن شرف الإسلام، وعن شرف الأمة الإسلامية كلها، يدافعون عن كرامة هذا الدين، وهم يقاتلون وليس لهم نصير إلا الله عز وجل.

لقد بدأوا معاركهم بما معهم من مال قليل وسلاح ضئيل ... ببندقيات قديمة، ثم بدأوا يأخذون أسلحتهم من أعدائهم، غنائم يغنمونها، فكانت عندهم بعد ذلك دبابات وغيرها.

هؤلاء يحتاجون إلى العون ... إلى أن نعينهم بما نقدر عليه، إذا كانوا يجودون بالدم، فلا أقل من أن نجود بشيء من المال، والله تعالى يقول: **{ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ}** [التوبة: 41][19]، قدم الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس، لأنه لا جهاد إلا بمال، وكما قال تعالى: **{... وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}** [البقرة: 272]، **{إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ...}** [التوبة: 111].

ومن فضل الله أنه اشترى أنفسًا هو خالقها، وأموالًا هو رازقها، ثم أعطى الثمن غاليًا: جنة عرضها السموات والأرض.

ويقول النبي عليه الصلاة والسلام: «**جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم**»[20].

---

(19) وتتمتها: **{ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}**.

(20) رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن حبان، والحاكم، عن أنس رضي الله عنه، ورمز له السيوطي بالصحة في «الجامع الصغير» (143/1)، قال المناوي: قال الحاكم على شرط مسلم، وأقره الذهبي، وقال في «الرياض» بعد عزوه لأبي داود: إسناد

الجهاد بهذه الثلاث:

الجهاد بالنفس، والجهاد بالمال، والجهاد باللسان، وفي عصرنا بالقلم أيضًا، كل هذه الألوان من الجهاد.

ويقول عليه الصلاة والسلام - فيما جاء في «الصحيحين»: «**من جهز غازيًا في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيًا في أهله بخير فقد غزا**»(21)، «**من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه، مات على شعبة من النفاق**»(22)، ولكن إذا لم تستطع أن تغزو، ولم تتح لك الفرصة لتغزو، تستطيع أن تغزو بصورة أخرى: أن تجهز غازيًا في سبيل الله، أو تساهم في تجهيزه، أو تخلف أهله بخير.

مليون ومائتا ألف شهيد في أفغانستان!!

لأن هؤلاء من يقاتلون؟!

إنهم يقاتلون القوة الثانية في العالم، إنهم يقاومون إحدى الدولتين العظميين في هذا العالم، إنهم يقاومون «الاتحاد السوفيتي» بأسلحته وخبراته وما عنده، وهو لا يبالي أن يضربهم بالقنابل العنقودية، والقنابل النابالم، وبكل سلاح محرم دوليًا، لأنه لا يخاف الله ولا يستحي من الناس.

ولهذا كان علينا واجب نحو إخواتنا هؤلاء: أن نمد لهم يد العون، أن نكون

صحيح. «فيض القدير» (344/3) برقم (3578).

(21) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (373/1) برقم (666).

(22) رواه مسلم، وأبو داود، والنسائي، عن أبي هريرة رضي الله عنه. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (409/1) برقم (757).

وراءهم بقلوبنا وألسنتنا وأموالنا حتى ينصرهم الله، ونصرهم نصر لنا ... نصر للإسلام ... نصر لـ «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، ليظل الأذان مرتفعًا في تلك البلاد التي فتحت منذ عهد الصحابة، لتظل المئذنة ترسل: الله أكبر الله أكبر، حي على الصلاة، حي على الفلاح.

هؤلاء الذين يقفون على رؤوس الجبال والثلج يغطيهم عن يمينهم وعن شمالهم، ويعيشون بكسرة من الخبز، أو حبات من التمر، أو كأس من الشاي، لا يطلبون فخرًا ولا يطلبون بهرجًا، إنما يريدون القليل والأقل من القليل.

إن لهؤلاء - كما قال عبد رب الرسول سياف رئيس اتحاد المجاهدين في أفغانستان - حقًا علينا.

فجودوا لهم - أيها الإخوة - وادفعوا ما استطعتم، فالقليل على القليل كثير، **{... وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ}** [سبأ: 39]، **{... وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ}** [المزمل: 20].

نسأل الله عز وجل أن يتقبل منا، وأن يقبلنا، وأن يغفر لنا ما مضى، وأن يصلح لنا ما بقي.

اللهم انصر أمة الإسلام، اللهم ارحم أمة الإسلام، اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام، اللهم انصرنا على اليهود، اللهم انصرنا على الشيوعيين، اللهم انصرنا على الصليبيين المستعمرين، اللهم انصرنا على الكفرة الملحدين، اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الدين، اللهم إنا نجعلهم في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم.

{... رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ} [آل عمران: 147].

وصل اللهم على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان **{إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا}** [الأحزاب: 56].

وأقم الصلاة.

* * *

صفات عباد الرحمن

3- قيام الليل

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

لازلنا نعيش مع عباد الرحمن، مع هذه اللوحة القرآنية التي رسمها الله تعالى لعباده، ليصور فيها نموذجًا لنا من النماذج الراضية المرضية عند الله تعالى ، يقول الله عز وجل: **{وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا 63 وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا}** [الفرقان: 63، 64].

حدثنا الله تعالى عن حالهم في أنفسهم، وحالهم «التواضع» لا الفخر ولا الكبرياء: **{يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا}**.

وحدثنا عن حالهم مع الناس، وهي حالهم من لا يشغل نفسه بالسفهاء، ولا يخاطب الجاهلين إلا سلامًا: **{وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا}**.

وهو هنا يحدثنا عن حالهم مع ربهم، وتتجلى حالهم هذه في جنح الليل، إذا أرخى الليل سدوله، إذا أوى الناس إلى فرشهم ولحفهم، كان لهم حال مع الله: **{يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا}**، والخليون هجع، والناس في غفلاتهم نائمون، أو في سهرهم ماجنون، أو في مجونهم ساهرون ... هناك **{يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا}**.

إنهم في ليلهم بين سجود وقيام، وهذه أظهر حال الصلاة: السجود والقيام

«**أقرب ما يكون العبد من ربه عز وجل وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**»[23].

وصفوا بالسجود حيث يضعون جبهاتهم على الأرض لله تعالى ، هذه الجباه التي علت وارتفعت فلا تنحني لمخلوق، إنما تنحني لله ععع، راكعة ساجدة، خاشية خائفة، طامعة في رحمة الله عز وجل.

{يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا}: فهم بين سجود وقيام، يقومون يتلون كتاب الله، يقرأون كلام الله، يسألونه الرحمة، ويستعيذون به من النار.

إنهم يفعلون ذلك ليس طلبًا لمرضاة أحد، ولا ابتغاء محمدة أو شهرة، وإنما يفعلون ذلك لله: **{يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ}**.

إنهم يبيتون لله، يبتغون وجهه، يرجون رحمته، ويخافون عذابه، وصدق الله العظيم حينما وصف أمثال هؤلاء فقال: **{أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ...}** [الزمر: 9][24]، هذا هو العلم، العلم بما أعده الله لعباده الصالحين في الآخرة من نعيم، وما أعده للآخرين من عذاب أليم.

«يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه»: كان لبعض السلف غلام، خادم عندهم، فكان يقوم الليل، فقال له مولاه «سيده»: إن قيامك بالليل يؤثر على عملك في النهار.

قال: وماذا أعمل؟ إني إذا تذكرت الجنة طال شوقي، وإذا تذكرت النار

(23) رواه مسلم، وأبو داود، والنسائي، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» الحديثان (193، 923).

(24) وتتمتها: {إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ}.

طال خوفي، فكيف لي أن أنام بين خوف يزعجني وشوق يقلقني؟!

هؤلاء هم الذين **{تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ}** [السجدة: 16]، رغم أن المضجع هنيء والفراش لين، فإنهم يدعون ذلك كله لله.

روى الإمام أحمد[25] عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**عجب ربنا تعالى من رجلين: رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين أهله وحبه إلى صلاته، فيقول الله جل وعلا: أنظروا إلى عبدي ثار عن فراشه ووطائه من بين حبه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندي، وشفقة مما عندي. ورجل غزا في سبيل الله، وانهزم أصحابه، وعلم ما عليه في الانهزام، وما له في الرجوع، فرجع حتى يهريق دمه، فيقول الله: أنظروا إلى عبدي رجع، رجاء فيما عندي وشفقة مما عندي، حتى يهريق دمه**».

الخوف والطمع، أو الرغبة والشفقة، الرغبة فيما عند الله من المثوبة، والشفقة مما عنده من العقوبة، هو الذي جعله يترك الفراش اللين والمضجع الطيب إلى الله عز وجل.

الرجل الآخر: الذي غزا لله، وحينما رأى أصحابه انهزموا، وعلم ما له في الرجوع وما عليه من الفرار، رجع وقاتل حتى أهريق دمه، يعجب الله منه ويباهي به ملائكته.

كلاهما مجاهد، كلاهما مكابد، هذا جاهد النفس حتى أهراق دمه في

---

(25) ورواه أيضًا أبو يعلى والطبراني وابن حبان في «صحيحه»، وحسن الهيثمي إسناده. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (221/1)، الحديث (323).

مرضاة الله، وهذا كابد الليل وقام يرضي الله ععع.

الله تعالى وصف المتقين بقوله: {إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ 15 ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ 16 كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ 17 وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ} [الذاريات: 15 - 18]، قلّ هجوعهم، وقلّ نومهم بالليل، وفي آخر الليل يستغفرون، يشعرون بالتقصير رغم قيامهم ومكابدتهم لليل وطوله، وبأنهم مفرطون في جنب الله، مقصرون في حق الله، فيطلبون المغفرة من الله عز وجل.

كان بعض السلف يقوم من الليل حتى إذا جاء السحر قال: يا رب إن مثلي يستحي أن يسألك الجنة، فأسألك برحمتك أن تجيرني من النار.

يرى أنه ليس أهلًا لأن يطلب الجنة، فحسبه أن يسأل النجاة من النار!

هؤلاء هم الذين حدا بهم الخوف والطمع - الخوف مما عند الله والطمع فيما عند الله - إلى أن يصفوا أقدامهم لله راكعين ساجدين، يناجونه قائلين:

سهر العيون لغير وجهك ... وبكاؤهن لغير فقدك ضائع!

توفى سيد الصوفية في عصره، وشيخ المربين الروحيين: الجنيد رحمه الله ، فرآه بعض أصحابه في المنام، فسأله عن حاله، فقال له: ذهبت الإشارات، وطاحت العبارات، وضاعت العلوم، وفنيت الرسوم، ولم ينفعنا إلا ركيعات كنا نقوم بها في جوف الليل!

وصف الشاعر ابن الرومي هؤلاء القوام، المستغفرين بالأسحار في قصيدة له وصفًا مبدعًا حينما قال:

تتجافى جنوبهم ... عن وطيء المضاجع

كلهــم بــين خــائف   مســتجير وطــامع
تركــوا لــذة الكــرى   للعيــون الهواجــع
ورعـوا أنجـم الـدجى   طالعًـا بعـد طـالع
لــو تــراهم إذا هــم   خطــروا بالأصــابع
وإذا هــم تــأوهوا   عنــد مــر القــوارع
وإذا باشــروا الثــرى   بــالخلود الضــوارع
واســتهلت عيــونهم   فائضــات المــدامع
ودعــوا: يــا مليكنــا   يــا جميــل الصــنائع
اعــف عنــا ذنوبنــا   للوجــوه الخواشــع
اعــف عنــا ذنوبنــا   للعيــون الــدوامع
أنــت - إن لــم يكــن   لنا شـافع - خير شـافع
فــأجيبوا إجابــة   لـم تقـع فـي المسـامع
لــيس مــا تصــنعونه   أوليــائي بضــائع
تــاجروني بطــاعتي   تربحـوا فـي البضـائع
وابـذلوا لـي نفوسـكم   إنهـا فـي ودائعـي[26]!

هؤلاء هم قوام الليل تتجافى جنوبهم عن المضاجع، والليل للناس فيه أحوال ومنازل:

هناك من يقضي الليل في طاعة الله، وهناك آخرون يقضونه في نوم إلى الصباح، وهناك من يسهرون الليل، ولكن فيم يسهرون الجفون؟ وفي أي حال

---

(26) ديوان ابن الرومي (1482/4، 1483)، طبعة دار الكتب المصرية.

يعيشون؟

إن هناك من يسهر في اللهو والمجون، هناك من يسهر في لهو وعبث حتى قرب الفجر، فإذا قرب الفجر نام، ولم يقم إلا في الضحى أو في الظهر.

هناك من يبيت ليله ليلًا أحمر في شهوات ومنكرات، يعب من الشهوات، ويقارف المنكرات، لا يخشى خالقًا، ولا يستحي من مخلوق.

هناك من يقضي الليل في إجرام، يبيت المكايد والشرور والأذى للناس.

وهناك من لا هم له إلا الأكل والشرب والنوم، فنهاره شراب وطعام، وليله رقود ومنام، على نحو ما قال القائل:

إنما الدنيا طعام وشراب ومنام

فإذا فاتك هذا فعلى الدنيا السلام!

هذه أنواع من الليل لأصناف من الناس، وأما ليل هؤلاء: فهم **{يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا}**.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم - كما وصفته عائشة - : «يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه» أي: تتشقق، وفي بعض الروايات: «حتى تتورم قدماه» فقالت له: لم تصنع هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا**»(27).

دخل عليها يومًا عبيد بن عمير وعطاء بن أبي رباح فسألاها: أخبرين

---

(27) رواه البخاري، ومسلم، عن عائشة رضي الله عنها. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (218/1) برقم (312).

بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فسكتت، ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي قال: «**يا عائشة، ذريني أتعبد الليلة لربي**»، قلت: والله إني أحب قربك، وأحب ما يسرك، قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلي، قالت: فلم يزل يبكي حتى بل حجره، قالت: وكان جالسًا، فلم يزل يبكي صلى الله عليه وسلم حتى بل لحيته، قالت: ثم بكى حتى بل الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله، وتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا؟ لقد نزلت عليّ الليلة آية، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾** - الآية كلها - [آل عمران: 190 وما بعدها]»[28].

هكذا كان ليله صلى الله عليه وسلم، وهكذا كان أصحابه.

كانوا يشمرون عن ساعدهم، كانوا يحاولون أن يقوموا الليل كله، وكان منهم من لا يكتفي بقيام نصف الليل أو ثلثيه، ويريد أن يقوم الليل كله، والنبي صلى الله عليه وسلم يحاول أن يردهم إلى الاعتدال حتى يدوموا عليه، فـ «**أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل**»[29].

كانت أشواقهم عالية، كانت هممهم رفيعة، فلم يكونوا يقتصرون على

---

(28) رواه ابن حبان في «صحيحه» من حديث عبيد بن عمير رضي الله عنه، ونسبه ابن كثير في تفسيره أيضًا إلى أبي حتم وابن مردويه وابن أبي الدنيا، وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصرًا على جزء من آخر الحديث، وانظر نص الحديث في «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» للقرضاوي: (428/1 - 429) برقم (810).

(29) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها «الجامع الصغير» (11/1) قال المناوي: ورواه أحمد بلفظ: «**أحب الأعمال إلى الله ما داوم عليه صاحبه وإن قل**» والله أعلم «فيض القدير» (165/1 - 166 برقم 197).

الفرائض، بل كانوا يحبون أن يتنفلوا وأن يستزيدوا، وأن يكثروا من رصيدهم عند الله عز وجل، هكذا كان سلف هذه الأمة.

باع الحسن بن صالح - من فقهاء السلف - جارية كانت عنده لقوم، فلما كان الثلث الأخير من الليل قامت تنادي فيهم: الصلاة ... الصلاة، فقالوا لها: أأصبحنا؟ أطلع الفجر؟ قالت لهم: وما تصلون إلا الفجر؟! قالوا: بلى ما نصلي إلا المكتوبة، فرجعت إلى سيدها الأول وقالت له: بعتني لقوم ليس لهم حظ من الليل، بالله عليك إلا رددتني!

هكذا كانوا، أحرارًا وعبيدًا، حرائر وإماء، ورجالًا ونساء، كانوا يقومون الليل كله.

مر أبو حنيفة - وكان يقوم بعض الليل - على قوم فقال بعضهم وأشار إليه: هذا هو الرجل الذي يحيي الليل كله، فقال: والله إني لأستحي من الله أن أوصف بما لا أفعل، فكان بعد ذلك يحيي الليل كله.

وكان منهم من يقوم جزءًا منه، وهذا هو الأوفق للسنة والأرفق للبدن. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه ...**»[30].

أي ينام الجزء الأخير من الليل حتى يقوم بنشاط.

---

(30) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (218/1) برقم (313)، وتتمة الحديث: «**ويصوم يومًا، ويفطر يومًا**».

فكانوا حريصين على جوف الليل، كما جاء في الحديث: «**أفضل الصلاة بعد المكتوبة الصلاة في جوف الليل**»(31). وقد ورد أن الله ععع ينزل إلى عباده ويتجلى عليهم في الثلث الأخير من الليل ويناديهم: هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فيعطي سؤاله؟ هل من كذا هل من كذا حتى يطلع الفجر(32).

إنها ساعات الأسحار ... ساعات التجلي: «**أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن**»(33).

ومن لم يستطع أن يكون له حظ من الليل، لا نصف ولا ثلث، ولا سدس،

---

(31) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، والروياني في «مسنده»، والطبراني في «الكبير» عن جندب «الجامع الصغير» (50/1) قال المناوي: ووهم الطبراني في عزوه له «فيض القدير» (41/2 - 42) برقم (1274)، وتتمة الحديث: «**وأفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم**».

(32) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجب له؟ من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له؟**» رواه مالك والبخاري ومسلم والترمذي وغيرهم، وفي رواية لمسلم: «**إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه ينزل الله تعالى إلى السماء الدنيا، فيقول: هل من سائل فيعطي؟ هل من داع فيستجاب له؟ هل من مستغفر يغفر له؟ حتى ينفجر الصبح**». قال الشيخ القرضاوي معلقًا على الحديث: والمؤمن يسلم بصحة الحديث ويوقن بمضمونه، ولا يخوض في كنهه، وينزه الله تعالى عن مشابهة خلقه. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (476/1 - 477) برقم (924).

(33) رواه الترمذي واللفظ له، وقال: حديث حسن صحيح غريب، ورواه ابن خزيمة في «صحيحه»، والحاكم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (220/1) برقم (321).

فليحرص على أن يصلي العشاء في جماعة والصبح في جماعة، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله»**(34).

ومن لم يفعل ذلك، من كان أدنى من هذه المنازل، فليحرص على الصلوات في أوقاتها، ولا يضيع الصلاة حتى تشرق عليه الشمس وهو نائم.

ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل نام ليلة حتى أصبح، قال: **«ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه»**(35)، قال الحسن: إن بوله والله لثقيل.

وما أكثر الذين جعلوا من آذانهم مباول للشيطان!

لقد فسد على الناس نظام حياتهم، كان الناس من قبل ينامون مبكرين، ويستيقظون مبكرين، فلما جاءت الأجهزة الحديثة - أجهزة الإعلام والأفلام والمسلسلات - التي تسهر الناس إلى ما بعد نصف الليل، أصبح من العسير على الناس أن يقوموا في الصباح الباكر.

ينبغي أن تكون الصلاة هي المنظم لحياة المسلمين، ولمواعيد يقظتهم ونومهم، ليستقبلوا الصباح الباكر من يد الله طهورًا قبل أن تلوثه أنفاس العصاة، ففي الحديث: **«اللهم بارك لأمتي في بكورها»**(36).

---

(34) رواه مالك، ومسلم واللفظ له، وأبو داود، والترمذي، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (174/1) برقم (203).

(35) رواه البخاري، ومسلم، والنسائي، وابن ماجه، عن ابن مسعود، ورواه أحمد بإسناد صحيح عن أبي هريرة وقال: **«في أذنيه»** على الإفراد، وزاد في آخره قول الحسن. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (223/1 - 224) برقم (331).

(36) رواه الأربعة، وحسنه الترمذي، وصححه ابن حبان من حديث صخر بن وداعة

ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري: «**يعقد الشيطان على قافية رأس**[37] **أحدكم - إذا هو نام - ثلاث عقد، يضرب على كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله تعالى انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقده كلها، فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان**»[38] لازالت عقد الشيطان على رأسه، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**فحلوا عقد الشيطان ولو بركعتين**»[39].

هكذا يريد منا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا نستسلم للشيطان.

إن الذي يعين الناس على قيام الليل - كما قال الإمام الغزالي رضي الله عنه[40] - أن يتخففوا من المآكل والمشارب، وقد قال بعض الصالحين: لا تأكلوا كثيرًا فتشربوا كثيرًا فترقدوا كثيرًا فتتحسروا عند الموت كثيرًا.

ومما يعين - أيضًا - على ذلك: ألا يجهد الإنسان نفسه بالنهار فلا يستطيع

الغامدي، وزاد: وكان - أي النبي صلى الله عليه وسلم - إذا بعث سرية أو جيشًا بعثهم أول النهار، قال: وكان صخر تاجرًا فكان يبعث في تجارته في أول النهار، فأثرى وكثر ماله، انظر: «المقاصد الحسنة» للسخاوي: حديث (171).

(37) قافية الرأي: مؤخرة، ومنه سمى آخر بيت الشعر قافية.

(38) رواه مالك، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي وابن ماجه، وابن خزيمة في «صحيحه». «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (216/1) برقم (307).

(39) هذه الزيادة أوردها ابن خزيمة في «صحيحه».

(40) في الباب الثاني من كتاب «ترتيب الأوراد وتفصيل إحياء الليل»، وهو الكتاب العاشر من «إحياء علوم الدين»، وبه اختتام ربع العبادات.

القيام بالليل، وأن يستعين كذلك على قيام الليل بالقيلولة كما ورد في الأثر[41].

دخل الحسن البصري السوق فوجد أهله في شغل شاغل بدنياهم، وعجب من لغطهم ولغوهم فقال: ما أظن ليل هؤلاء إلا ليل سوء فإنهم لا يقيلون.

ثم على الإنسان بعد ذلك أن يبتعد عن الحرام، وأن يجتنب الذنوب، قال سفيان الثوري: حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته، قيل: وما ذاك الذنب؟ قال: رأيت رجلًا يبكي فقلت في نفسي: هذا مراء يرائي الناس.

وقال رجل للحسن: يا أبا سعيد إني أبيت معافي وأحب قيام الليل وأعد طهوري فما بالي لا أقوم؟ قال: لعل لك ذنوبًا قيدتك.

وعلى الإنسان المسلم الذي يريد أن يتشبه بهؤلاء:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إن التشبه بالرجال فلاح

عليه أن يتذكر الآخرة، يتذكر الموت وما بعده، كان بعضهم يقول لنفسه إذا أراد النوم:

يا طويل الرقاد والغفلات ... كثرة النوم تورث الحسرات

إن في القبر إن نزلت إليه ... لرقادًا يطول بعد الممات

عليه أن يتذكر الجنة والنار، قال طاووس: إن ذكر جهنم طير النوم من

---

(41) عن ابن عباس رضي الله عنهما: «**استعينوا بطعام السحر على صيام النهار، وبالقيلولة على قيام الليل**» رواه ابن ماجه، والحاكم وصححه، والبزار، والطبراني في «الكبير»، والبيهقي في «الشعب»، ورمز له السيوطي بالصحة، لكن فيه زمعة بن صالح ضعيف لخطئه ووهمه وإن كان صدوقًا «فيض القدير» للمناوي (494/1) برقم (986) «كشف الخفاء» للعجلوني (119/1) برقم (330).

أعين العابدين.

على الإنسان أن يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، يقول صلى الله عليه وسلم: «**عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم**»(42).

قيام الليل يبدأ من بعد صلاة العشاء إلى الفجر.

تستطيع أن يكون لك حظ في هذا الوقت، وإذا لم تكن تستطيع أن تقوم قبل الفجر، فصل بعد العشاء.

صل ما استطعت من ركعتين، إلى أربع، إلى ست، إلى عشر، إلى اثنتى عشرة ركعة، واختم بالوتر(43)، فإن آخر صلاة الليل مشهودة.

على المسلم أن يستفيد من الليل، من هذا الوقت الذي يتجلى الله سبحانه وتعالى فيه لعباده، وألا يضيع حظه من الليل، فإذا لم يكن له حظ من الليل، فكما قال بعض السلف: إذا لم يكن لك حظ من الليل، فلا تعصي ربك في النهار.

وهذا أدنى المنازل.

أقل ما يطلب منك أن تؤدي الفرائض.

---

(42) رواه الترمذي، وابن أبي الدنيا في كتاب التهجد، وابن خزيمة في «صحيحه»، والحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري، ووافقه الذهبي. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (1/218 - 219) برقم (315).

(43) عن عبد الله بن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وترًا**» متفق على صحته. «شرح السنة» للبغوي (4/86) برقم (965).

الله وصف «عباد الرحمن» بأنهم: **{يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا}**، ولم يصفهم بأنهم يحافظون على الفرائض، فهذه منزلة دون منزلتهم، وهم أعلى من ذلك وأرفع.

ذكر النبي صلى الله عليه وسلم الجنة فقال: «**في الجنة غرفة**(44) **يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها**»، فقال أبو مالك الأشعري: لمن هي يا رسول الله؟ قال: «**لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وبات قائمًا والناس نيام**»(45).

وقال عبد الله بن سلام: أول ما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس إليه «أي أسرعوا ومضوا إليه» فكنت فيمن جاءه، فلما تأملت وجهه، واستبنته، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول ما سمعت من كلامه أن قال: «**أيها الناس افشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام**»(46).

نسأل الله أن يجعلنا من هؤلاء، إنه سميع قريب، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم، ادعو الله يستجب لكم.

---

(44) في «المستدرك» «**إن في الجنة غرفًا**»، والغرف: المنازل المرفوعة.

(45) رواه الطبراني في «الكبير» بإسناد حسن، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (217/1) برقم (310).

(46) رواه أحمد، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه والدارمي، والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (217/1) برقم (309).

الخطبة الثانية:

أما بعد:

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**من استيقظ من الليل، وأيقظ أهله فصليا ركعتين، كتبا من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات**»(47).

وقال: «**رحم الله رجلًا قام من الليل فصلى، وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلن، وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء**»(48).

ولا شك أن هذا النضح - وهو الرش الخفيف - من باب الممازحة، وهو إنما يكون بناء على اتفاق بينهما، فهما متفاهمان على طاعة الله تعالى، ولا يحب أحدهما أن ينفرد بالخير دون الآخر.

إنها الأسرة المسلمة، الأسرة التي تعيش في ظلال الرحمن، في مرضاة الله تعالى ، يعين كل منهما صاحبه على تقوى الله تعالى ومرضاته، ونعم الزوجة تعين زوجها على أمر دينه، ونعم الرجل يعين زوجته على طاعة الله.

أين هذا مما نراه اليوم من أسر مفككة لا يكاد يعرف أحدهم الآخر، وإذا تعارفوا فإنما يتعارفون على أشياء غير ما يرضي الله تعالى ؟

---

(47) رواه أبو داوه، وابن ماجه، وابن حبان، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (219/1) برقم (317).

(48) رواه أبو داود، وهذا لفظه، والنسائي، وابن ماجه، وابن خزيمة، وابن حبان في «صحيحيهما»، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (219/1) برقم (316).

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ} [التحريم: 6]

ورد أن في يوم الجمعة ساعة إجابة، لا يصادفها عبد مسلم يدعو الله بخير إلا استجاب له، ولعلها تكون هذه الساعة(49).

اللهم إنا نسألك العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة.

اللهم إنا نسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا، وأهلينا وأموالنا، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا، ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا(50).

اللهم اغفر لنا ما مضى، وأصلح لنا ما بقى.

اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

{...رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ

---

(49) يشير الشيخ إلى حديث أبي هريرة المتفق عليه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوم الجمعة فقال: «**فيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي يسأل الله شيئًا إلا أعطاه إياه**» وأشار بيده يقللها، والمراد بالساعة هنا معناها اللغوي وهو «برهة من الزمن» ولهذا قال: وأشار بيده يقللها، ليسارة وقتها، وأما تعيين هذه الساعة فقد ورد فيه أحاديث كثيرة صحيحة واختلف العلماء فيها اختلافًا كثيرًا، انظر في ذلك: «زاد المعاد» (388/1 - 397)، و«المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» للقرضاوي (241/1 - 243).

(50) وهي من الكلمات التي لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعها حين يمسي وحين يصبح، كما ذكر ابن عمر رضي الله عنه فيما رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم. وانظر تعليق الشيخ على هذا الدعاء في كتابه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (228/1) برقم (343).

ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ} [الحشر: 10].

{... رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ} [آل عمران: 147].

وصل اللهم على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه وسلم: **{إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا}** [الأحزاب: 56].

{... وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ} [العنكبوت: 45].

* * *

صفات عباد الرحمن

4- الخوف من النار

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

لازلنا نعيش مع عباد الرحمن، مع أخلاق هؤلاء الربانيين، الذي رضى الله عنهم ورضوا عنه، يقول الله تعالى: **{وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا 63 وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا 64 وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا 65 إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا}** [الفرقان: 63 - 66].

وصف الله هؤلاء العباد:

وصف حالهم في أنفسهم بأنهم: **{يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا}**.

ووصف حالهم من غيرهم بأنهم: **{وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا}**.

ووصف حالهم معه سبحانه فقال: **{وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا}**.

حيث يغفل الغافلون، وينام النائمون، ويغطون في سبات عميق، هؤلاء: **{يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا}**.

{كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ 17 وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ} [الذاريات: 17، 18].

ما الذي دفعهم إلى هذا؟

إنه الخوف والطمع، إنه الرغب والرهب، إنه الخوف والرجاء، خوفهم من الله، تذكرهم للآخرة، إنها كانت دائمًا تجاههم، وأنّ جهنم كانت نصب أعينهم.

لم ينسوا قضيتهم المصيرية الأولى: أنهم إلى الله صائرون، أنهم مهما عاشوا في هذه الدنيا فإنهم ميتون، وأنهم بعد الموت مبعوثون، وأنهم بعد البعث محاسبون، فإما إلى جنة، وإما إلى نار، ولهذا؛ كانت جهنم دائمًا أمامهم.

لهذا وصفهم الله بقوله: **{وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا}** [الفرقان: 65] والغرام هو: الملازم الدائم المقيم، كل شيء يزول عنك فليس بغرام، إنما الغرام: ما لزمك وأقام معك[51].

{إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا}: وأي مقام أسوأ، وأي مستقر أقبح من جهنم ... الدار التي أعدها الله للعصاة والمكذبين من عباده؟

يا أيها الناس:

اتقوا هذه النار، اتقوا جهنم: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ}** [التحريم: 6].

لو كان الموت نهاية المطاف لكان الأمر هينًا، ولكن الموت «أشد ما قبله وأهون ما بعده».

---

(51) قال في «مختار الصحاح»: «الغرام» الشر الدائم والعذاب، وقوله تعالى: **{إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا}** قال أبو عبيدة: أي هلاكًا ولزامًا لهم.

هناك بعد الموت بعث، وهناك بعد البعث حشر، وهناك بعد الحشر موقف، وهناك بعد الموقف حساب وميزان وصحف تتطاير، ولا تدري أتأخذها باليمين أم بالشمال؟ ولا تدري إلى أين يميل لسان الميزان: إلى جانب الحسنات أو إلى جانب السيئات؟ أيثقل ميزانك فتكون ممن عيشته راضية؟ أم يخفّ ميزانك فتكون أمّك هاوية؟ **{وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ 10 نَارٌ حَامِيَةُۢ}** [القارعة: 10، 11].

هناك الموت وسكرته، هناك القبر وضمته، هناك الموقف وزحمته، هناك الميزان ودقّته، هناك الحساب وسرعته، هناك الربّ وغضبته، وهناك الجنة ونعيمها، وهناك النار ولهيبها.

عباد الرحمن وضعوا نصب أعينهم «جهنم»، وكأنها تريد أن تلفحهم، كأنها تفتح فاهًا لتلتهمهم، ولذلك دعاؤهم: **{رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ}**؛ لأن كل الناس وارد عليها، مارّ بها، الصراط فوقها، منصوب عليها، يا ترى أتنجو أم تسقط؟ أتسلم أم تهلك؟ أتمر عليها مرًا سريعًا أم تختطفك الكلاليب حتى تهوى إلى جهنم؟

{وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا 71 ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا} [مريم: 71، 72].

كان أحد الشباب الصالح - ابن أبي ميسرة - يبكي إذا أوى إلى فراشه ويقول: ليت أمي لم تلدني، فقالت له أمه: يا بنيّ إن الله أحسن إليك حين هداك إلى الإسلام، قال: ولكن يا أماه إن الله أخبرنا أنّنا واردون على النّار، ولم يخبرنا أنّنا صادرون عنها.

كلنا وارد على النار، تُرى من ينجو ومن لا ينجو؟

إن المشكلة أيها الإخوة ... مشكلة الناس كل الناس: أن الآخرة بعيدة عن تفكيرهم.

الناس لا يفكرون إلا في حاضرهم ... في يومهم ... في مصالحهم القريبة ... في لذاتهم العاجلة، أما الغد وما بعد الغد، فكل يبعده عن نفسه ... عن فكره ... عن ذهنه ... عن تصوره ... عن خياله، مع أن الأمر قريب قريب، وكل آت قريب.

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله!

قال تعالى: {**... وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ ...**} [النحل: 77].

إن مشكلات الحياة تتعقد حينما نرى الناس كالذئاب، حينما نرى الناس كالسباع في الغابة يأكل القوي الضعيف، حينما نرى الناس كالأسماك في البحر يلتهم الكبير الصغير، ما العلة؟

العلة أن الآخرة بعيدة عنهم، أن الناس لا يفكرون إلا في دنياهم ... هذا هو الإله المعبود.

الدنيا وما فيها أصبحت الشغل الشاغل، أصبحت أكبر همّهم، ومبلغ علمهم، ومحور تفكيرهم، ومدار اهتمامهم.

ولكن عباد الرحمن صنف آخر.

إنهم يذكرون الآخرة ويذكرون جهنم: {**وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا**} [الفرقان: 65].

روى البخاري[52]، عن أنس رضي الله عنه قال: كان أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: {**رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ**} [البقرة: 201]. رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل الله تعالى أن يقيه عذاب النار، وهو الذي غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر!

وكان يعلّم أصحابه - كما روى ابن عباس - هذا الدعاء كما يعلّمهم السورة من القرآن: «**قولوا: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات**»[53].

وهكذا كان يقولها دبر كل صلاة في آخر التشهد وهذا ما يسنّ لنا أن نفعله، حتى رأى ابن حزم وجوب هذا الدعاء في آخر كل صلاة.

لا بد أن يظل المسلم ذاكرًا للنار، وما أدراكم ما النار؟ إن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: « **نار بني آدم التي توقدون جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم**»، قالوا يا رسول الله، إن كانت لكافية «نار الدنيا ليست هينة فمن يصبر على حرها»؟ - قال: « **فإنها فُضلت عليها بتسعة وستين جزءًا**»[54].

---

(52) في كتاب «الدعوات» من «صحيحه»، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**ربنا آتنا في الدنيا حسنة ...**». انظر: البخاري مع «الفتح» (195/11) برقم (6389). وانظره في «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (956/2) برقم (2297).

(53) رواه مالك، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (955/2) برقم (2294).

(54) متفق على صحته من حديث أبي هريرة رضي الله عنه «شرح السنة» للبغوي بتحقيق الشاويش والأرناؤوط (239/15) برقم (4398).

وكما روى عن داود عليه السلام: إلهي لا صبر لي على حر شمسك، فكيف أصبر على حر نارك؟!

وكما قال القائل:

جسمي على الشمس ليس ولا على أهون الحرارة!
فكيف يقوى على جحيم وقودها الناس والحجارة؟!

إن الله وصف أولي الألباب - الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض، والذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم - بأنهم يقولون: **{رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ 191 رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ}** [آل عمران: 191، 192].

{فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ}: أهنته وأذللته، فالنار ليست عذابًا حسيًا فقط، ولكنها عذاب معنويّ أيضًا. الخزي ... الذّلّ ... الهون. حينما يُقال لهم: **{ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ}** [المؤمنون: 108]. أي خزي وأي هوان أشدّ من هذا؟

النار دار الخزي ... دار الهوان ... دار الحجاب عن الله، فقد وصف الله المكذبين بقوله: **{كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ}** [المطففين: 15].

كان بعض الصالحين يتعلق بأستار الكعبة ويقول: يارب، أما كان لك من عقوبة إلا النار؟ كيف لنا الصبر عليها؟

روي أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول: « **لا تنسوا العظيمتين: الجنة والنار** »(55).

---

(55) ذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» عن ابن عمر مرفوعًا، وقال: رواه أبو يعلى،

أيّ عظيم أعظم من هاتين العظيمتين؟ أين يكون مصيرك؟ دار النعيم أم دار العذاب؟

وقال عليه الصلاة والسلام: «**ما رأيت مثل النار، نام هاربها، ولا مثل الجنة: نام طالبها**»(56).

عش في الدنيا ما شئت، عش سبعين سنة، أو مائة سنة، أو مائتي سنة، أو ألف سنة، ثم ماذا؟ ستموت.

ثم ماذا بعد الموت؟

إما إلى جنة، وإما إلى نار، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**والذي نفسي بيده ما بعد الموت من دار إلا الجنة أو النار**»(57).

وقال صلى الله عليه وسلم يومًا لأصحابه: «**والذي نفسي بيده لو رأيتم ما رأيت، لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا**»، قالوا: وما رأيت يا رسول الله؟ قال: «**رأيت الجنة - والنار**»(58).

فاختر أيّ الدارين؟

الموت باب، وكل الناس داخله   يا ليت شعري بعد الباب ما الدار
جنات عدن إن عملت بما   يرضى الإله، وإن خالفت

وسكت عليه، الحديث (5255) بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة.

(56) رواه الترمذي عن أبي هريرة، والطبراني في «الأوسط» عن أنس، وحسنه في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» برقم (5622).

(57) لم أعثر له على مخرج، فيمكن أن يذكر على أنه أثر لا حديث.

(58) رواه مسلم، وأبو يعلى «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (957/2) الحديث (2303).

هما محلان ما للمرء غيرهما   فاختر لنفسك أيّ الدار تختار؟

إن على الناس أن يكونوا بين الخوف والرجاء، لا ينبغي أن يغلبهم الرجاء حتى يأمنوا مكر الله، ولا ينبغي أن يغلبهم الخوف حتى ييأسوا من روح الله.

ولكن إذا كثرت الذنوب ... إذا تزاحمت المعاصي ... إذا امتلأت الصحف بالخطايا، فعلى الإنسان أن يغلّب الخوف على الرجاء، أن يتذكّر ذنوبه ولا ينساها، أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب، أن يزن أعماله قبل أن توزن عليه، أن يسأل نفسه قبل أن يصير السؤال إلى غيره.

عليه أن يتذكر النار فيحاسب نفسه: ماذا قدمت؟ وماذا عملت؟ وفيم قصّرت؟ وفيم فرّطت؟ عسى أن يصحح، عسى أن يتدارك ما فات، عسى أن يتلافى ما فرّط، عسى أن يجعل يومه خيرًا من أمسه، وغده خيرًا من يومه.

هذا هو شأن المؤمنين: **{وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا}** [الفرقان: 62].

حينما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: **{وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ}** [الشعراء: 214] جمع أقاربه ودعاهم، فعمّ وخص، فقال: **«يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئًا، إلا أن لكم رحمًا وسأبُلُّها ببلاها»**(59).

---

(59) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسير سورة الشعراء (350/3) طبعة الحلبي، رواه أحمد

كل إنسان عليه أن ينقذ نفسه من النار، وإنما ينقذ نفسه من النار: بعمل الصالحات، واجتناب السيئات.

أنقذ نفسك من النار بأداء الفرائض واجتناب المحارم: «**اتق المحارم تكن أعبد الناس**»(60).

أنقذ نفسك من النار بأداء الحقوق: حق الله، وحقوق الناس.

أنقذ نفسك من النار بالتوبة إلى الله إذا أذنبت: {**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ...**} [التحريم: 8].

كان عيسى ابن مريم عليه السلام يقول: كم من جسد صحيح، ولسان فصيح، ووجه صبيح، غدًا بين أطباق النار يصيح!!

وعندما تصيح غدًا لا تنفعك الصيحة، ولا تنفعك الاستغاثة، إنما ينفع ذلك اليوم ؟؟؟.

غدًا حساب ولا عمل، واليوم عمل ولا حساب، فاعمل اليوم للغد، لتنقذ

عن أبي هريرة، ورواه مسلم والترمذي من حديث عبد الملك بن عمير به، وقال الترمذي: غريب من هذا الوجه، ورواه النسائي من حديث موسى بن طلحة مرسلًا ولم يذكر فيه أبا هريرة، والموصول هو الصحيح.

(60) جزء من حديث رواه أحمد، والترمذي، والبيهقي في «الشعب»، عن أبي هريرة رضي الله عنه «الجامع الصغير» (8/1)، وعزاه المناوي إلى أبي نعيم في «الحلية»، قال الترمذي: غريب منقطع، وقال المنذري: وبقية إسناده فيه ضعف، وفيه جعفر بن سليمان الضبعي شيعي زاهد، ضعفه الذهبي والقطان ووثقه آخرون، وفيه أيضًا أبو طارق السعدي قال الذهبي: مجهول. انظر: «فيض القدير» (124 - 125 برقم 118).

نفسك من النار.

كان من أدعية النبي صلى الله عليه وسلم: « **... وأسألك الجنة وما قرّب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل»**(61).

وكان يعلم أصحابه هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن: «**قولوا: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات»**(62).

وكان يقول: «**من سأل الله الجنة ثلاث مرات، قالت الجنة: اللهم أدخله الجنة، ومن استجار من النار ثلاث مرات، قالت النار: اللهم أجره من النار»**(63).

فاسألوا الله دائمًا الجنة، واستعيذوا بالله تعالى من النار، فإن الله أعدها للكافرين، ولكن يلحق بهم عصاة المؤمنين.

إن الله عع حذر وأنذر، ووعظ وذكر، وأنزل في كتابه آيات بينات، وصف لنا فيها هذه الدار المخوفة ووصف لنا عذابها، وما أعد فيها، فقال:

---

(61) قطعة من حديث رواه ابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها، ورواه عنها أيضًا البخاري في «الأدب المفرد»، وأحمد، والحاكم وصححه. «فيض القدير» (128/2 برقم 1497).

(62) من حديث ابن عباس رضي الله عنهب، رواه مالك، ورواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (955/2 برقم 2294).

(63) من حديث أنس رضي الله عنه، رواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان في «صحيحه»، ولفظهم واحد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (955/2) برقم (2296).

{... إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا} [الكهف: 29].

{إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ 43 طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ 44 كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ 45 كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ 46 خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ} [الدخان: 43 - 47].

{وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ 41 فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ 42 وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ 43 لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ} [الواقعة: 41 - 44].

{ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ 51 لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ 52 فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ 53 فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ 54 فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ 55 هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ} [الواقعة: 51 - 56].

{خُذُوهُ فَغُلُّوهُ 30 ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ 31 ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ} [الحاقة: 30 - 32].

{وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ 49 سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ} [إبراهيم: 49، 50]

وصف الله لنا النار حتى تكون واضحة المعالم أمام أعيننا، وحتى لا تكون لنا حجة، ولا يكون لنا عذر ولا تعلّة(64).

حذرنا الله النار، وحذّرنا رسوله النار، حتى نعمل على النجاة منها، أما أن نعيش في غفلة لاهين، وفي غمرة ساهين، لا ندري ماذا يُراد بنا ولا ماذا يُعد

---

(64) انظر كتاب: «التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار» لابن رجب الحنبلي (ت795هـ) فقد أطال الحديث فيه عن النار، وما أعد الله فيها لأعدائه من الخزي والنكال والبوار، وقسمه ثلاثين بابًا.

لنا، فهذا شأن الغافلين الذين جعلهم الله أحطّ من الأنعام وأضل سبيلًا.

استمعوا معي إلى قول الله تعالى في وصف قوم جعلهم حطب جهنم ووقود النار، يقول الله عز وجل: **{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ}** [الأعراف: 179].

كانوا أضل من الأنعام لأن الأنعام لم تؤت من العقول والمواهب ما أوتي هؤلاء، الأنعام، لم ينزّل عليها كتاب، ولم يُبعث لها رسول، الأنعام لم تُستخلف في الأرض، ولم يكرمها الله بالعقل كما كرّم الإنسان.

ثم إن الأنعام تؤدي رسالتها في الركوب والحلب والحرث والسقي، ولكن رسالة الإنسان أن يعبد الله: **{وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}** [الذاريات: 56]، فإذا لم يؤد هذه الرسالة رغم ما آتاه الله من الطاقات، والإمكانات والمواهب، فقد صار أضل من الأنعام سبيلًا، وصار أحطّ من الأنعام منْزلة، ولهذا جعل الله هؤلاء حصب جهنم، سرّ هذا كله: الغفلة: **{أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ}**.

أعين قلوبهم قد عميت، أعمتها الشهوات وأعمتها الشبهات، فعاشوا لا يدرون أمامًا من خلف، ولا يمينًا من شمال.

هؤلاء الذين عميت بصائرهم، وصمت عن الحق آذانهم، وضلت عن الحق عقولهم، فكانوا أضل من الأنعام سبيلًا.

يا أيها لإخوة المؤمنون:

كونوا كعباد الرحمن، ضعوا نصب أعينكم «الآخرة» تنحل المشاكل، تهن عليكم الدنيا، ويصبح كل أمر عسير يسيرًا أمامكم، تؤدي الحقوق إلى أهلها.

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «من خاف الله لم يشف غيظه، ومن اتقى الله لن يفعل ما يريد، ولولا يوم القيامة لكان الأمر غير ما ترون»، أي لكان كل إنسان يفعل ما يشتهي وما يحلو له، ولكن هناك قيامة، وهناك حساب، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم للجارية: «**لولا القصاص لضربتكِ بهذا السواك**»(65).

ولكن هناك قصاص، وهناك عدل إلهي مطلق يقتص للشاة الجمّاء من القرناء.

إننا في هذه الدنيا لسنا مخلدين، ولكننا فيها ضيوف راحلون، كلنا فيها مسافر، ينتظر الطائرة التي تقله، أو القطار الذي يحمله إلى داره ... إلى دار المقامة.

نحن في مقيل، نحن في محطة استراحة، وبعد ذلك يذهب كل إلى حال سبيله، ويذهب كل إلى داره الأصلية: تُرى ماذا تكون داره: أهي الجنة أم هي النار؟

مر الحسن البصري على شاب مستغرق في الضحك، فقال له: يا هذا علام استغراقك في الضحك؟ أعرفت هل تأخذ كتابك بيمينك أم بشمالك؟ قال: لا، قال: أمررت بالصراط ونجوت منه؟ قال: لا، قال: أعرفت أنك هاوٍ إلى النار أو ناج منها؟ قال: لا، قال: فعلام ضحكك؟ فبكى الشاب.

---

(65) الحديث ذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» وقال: رواه أبو يعلى بأسانيد أحدها جيد، وذكره الهيثمي في «المجمع» بعدة روايات وقال: روى هذا كله أبو يعلى والطبراني بنحوه. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (931/2) الحديث (2261).

علام يضحك الناس، ويستغرقون في الضحك وفي اللهو، وفي الغفلة، والأمر خطير؟

ليس معنى هذا أن يظل الناس باكين، ولكن ليذكر الناس الآخرة الحين بعد الحين، ساعة وساعة.

أذكروا الآخرة، لا تطرحوها وراء ظهوركم، لا تجعلوها نسيًا منسيًا، لا تتخذوها وراءكم ظهريًا.

أذكروها حتى تستقيم حياتكم، وحتى تقوم أعمالكم، وحتى تسدد خطاكم في الطريق إلى الله تعالى : {... **رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ**}(66).

اللهم إنا نسألك الجنة، ونستعيذ بك من النار.

اللهم إنا نسألك الجنة، وما قرب إليها من قول وعمل، ونعوذ بكل من النار وما قرب إليها من قول وعمل.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، ادعو ربكم يستجيب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد: فيا أيها الإخوة المسلمون:

المفروض من المسلم أن يتوازن الرجاء والخوف في قلبه، أن يرجو

---

(66) هو من أدعية القرآن الجامعة التي يحسن بالمرء أن يدعو بها. قال تعالى: {**فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ 200 وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ 201 أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ**} [البقرة: 200 - 202].

رحمة الله وأن يخشى عذابه، كما ذكرنا في الخطبة الماضية قول الله تعالى: **{أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ ...}** [الزمر: 9].

وكما قال تعالى في وصف المؤمنين: **{تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ}** [السجدة: 16].

وكما وصف بعض الأنبياء المصطفين الأخيار:

{... إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ} [الأنبياء: 90].

الرغبة: الرجاء فيما عند الله من رحمة.

والرهبة: الخوف مما عند الله من عذاب.

الله تعالى وصف نفسه بقوله: **{نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ 49 وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ}** [الحجر: 49، 50].

وقال: **{غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ}** [غافر: 3].

ووصف لنا الآخرة فقال: **{... وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞ ...}** [الحديد: 20]، ففيها العذاب وفيها المغفرة والرضوان.

فلا بد أن يسير الخطان متعادلين متوازين: الحذر والرجاء، الرغب والرهب، الخوف والطمع.

لا يغلب الرجاء حتى يصل الرجاء إلى الأمن: **{... فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا**

ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ} [الأعراف: 99]، ولا يغلب الخوف حتى يصل الخوف إلى اليأس فـ {**... إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ}** [يوسف: 87].

وإنما يرجو ويخاف.

ولهذا روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لو نادى المنادي يوم القيامة: كل الناس في الجنة إلا واحدًا، لخفت أن أكون ذلك الواحد، ولو نادى المنادي: كل الناس في النار إلا واحدًا لرجوت أن أكون ذلك الواحد.

فالرجاء والخوف متوازنان عنده، وهذا هو المطلوب من الإنسان المسلم.

ولكن من كثرت خطاياه وتفاقمت ذنوبه ينبغي أن يغلب الخوف، ولكنه خوف مشوب بالرجاء، حتى إذا جاءه الموت كان كذلك الرجل الذي دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم - وهو يحتضر - فقال: «**كيف تجدك؟**». قال: أرجو الله يا رسول الله وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن، إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف**»(67).

إذا اجتمع الرجاء والخوف ساعة الاحتضار، فهذا علامة القبول عند الله عز وجل.

نسأل الله أن يجعلنا من الراجين الخائفين، وأن يجعلنا من عباد الرحمن.

اللهم إنا نسألك رضاك والجنة، ونعوذ بك من سخطك والنار.

---

(67) رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه، وقال: حديث غريب، وفي بعض النسخ: حسن غريب، ورواه ابن ماجه، وابن أبي الدنيا، وذكره الألباني في «الصحيحة». «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (875/2) الحديث (2112).

اللهم إنا نسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، ونعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول أو عمل.

اللهم اغفر لنا ما مضى، وأصلح لنا ما بقى.

اللهم تُب علينا توبة نصوحًا.

اللهم أعنّا على شهوات أنفسنا، وأصلح فساد قلوبنا.

اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام، اللهم انصر المسلمين حيثما كانوا.

اللهم أيّدهم بروح من عندك، وأمدهم بملأ من جندك، واحرسهم بعينك التي لا تنام، واكلأهم في كنفك الذي لا يضام.

{... رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا 65 إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا} [الفرقان: 65، 66].

{... رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ} [البقرة: 201].

{... رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ} [آل عمران: 147].

{... رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ} [الحشر: 10].

وصلّ اللهم على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

{إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا} [الأحزاب: 56].

{... وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ ...} [العنكبوت: 45].

* * *

صفات عباد الرحمن

5- الاعتدال في الإنفاق

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

لازلنا نعيش في رحاب القرآن مع عباد الرحمن، الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، والذين وصفهم الله تعالى في سورة الفرقان.

وصف حالهم في أنفسهم، ووصف حالهم مع الناس، ووصف حالهم معه سبحانه. ثم وصف حالهم في أموالهم فقال تعالى: {**وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا**} [الفرقان: 67].

فليس المفترض في عباد الرحمن أنهم قوم لا مال لهم، لا، ليس الفقر من خصائص هذه العبودية للرحمن، فقد يكونون أغنياء.

وقد وصف الله رواد المساجد ... رواد البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، فقال: {**... يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ 36 رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ ...**}(68) [النور: 36، 37] فهم - بلغة العصر - «رجال أعمال» لهم تجارة ولهم بيع، ولكن ذلك لا يشغلهم عن واجبهم نحو ربهم.

وخاطب الله المؤمنين بقوله: {**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ**

---

(68) وتمامهما: {**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ 36 رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ**}

عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ ...}(69) [المنافقون: 9] ومعنى هذا: أنّ لهم أموالًا وأولادًا، وليسوا رهبانًا ولا دراويش، ولكنهم مأمورون ألا تلهيهم أموالهم ولا أولادهم عن ذكر الله، ذكره بالقلب، وذكره باللسان، فعباد الرحمن لا بأس أن يكون لهم أموال، والمال في نظر الإسلام نعمة يجب أن تشكر(70)، وهو في نظر الإسلام أمانة يجب أن ترعى، وهو في نظر الإسلام ضرورة - من الضروريات الخمس - يجب أن تحفظ.

والمسلم في ماله مستخلف، هو في الحقيقة مال الله وهو أمين عليه ... خليفة عليه نائب عن ربه في حسن تنميته وإنفاقه، ولذلك قال الله تعالى: **{... وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ}** [الحديد: 7](71).

وإذا كان المال مال الله، والإنسان مستخلفًا فيه كأمين الصندوق، فيجب عليه أن يراعي تعليمات صاحب المال وتوجيهاته: ماذا يريد منه؟ وماذا يرضاه؟ وماذا يسخطه؟ وماذا يأمر به؟ وماذا ينهي عنه؟

لا يجوز لموظف في شركة أو مؤسسة أن يخالف عن أمر صاحب المؤسسة ويتصرف كما يشاء، فالمسلم موظف في مال الله، أمين عليه.

ولله تعالى تعليمات في شكل المال:

تعليمات تتعلق باكتسابه، أن يكتسب من حله ومن وجوهه المشروعة، وتعليمات تتعلق بتثميره وتنميته، وتعليمات تتعلق بإنفاقه واستهلاكه

---

(69) وتتمتها: **{... وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ}**

(70) ولهذا بوب الإمام النووي في «رياض الصالحين» بابًا سماه: باب فضل الغني الشاكر وهو من أخذ المال من وجهه وصرفه في وجوهه المأمور بها.

(71) وتتمتها: **{... فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ}**

وتوزيعه، والآية التي معنا ركزت على معنى معين مهم، هو: كيف ينفق المال؟

قد يجمع المال من حله، قد يكتسبه الإنسان من وجوهه المشروعة، ولكنه بعد ذلك يبخل به عن حقه يشح به أن يبذله لما يحب الله تعالى ويرضى، أو يتلفه ويبعثره ذات اليمين وذات الشمال.

والأمة قد تصاب في أغنيائها من وجهين:

إما أن تصاب من ناحية ذلك الغني الشحيح الذي لا يعرف لله حقًا، ولا يعرف في ماله للناس حقًّا، يبخل به عن كل واجب.

وإما أن تصاب من ناحية ذلك المتلاف المبذر الذي لا يبالي أين ذهب المال؟ يبذله هنا وهناك، لا يقف عند حدّ، ولا يقف عند شرع.

ولكن المال ينبغي أن ينفق في وجوهه المشروعة بلا إسراف ولا تقتير، هذا هو خلق الإسلام: القصد والاعتدال.

لذلك جاء في آية أخرى من وصايا القرآن ... من وصايا الله لعباده في سورة الإسراء: **{وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا 26 إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ}** «أشباههم في الشر والمعصية والجحود بنعمة الله»، **{وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا 27 وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا}** «إذا أتاك القريب أو المسكين أو ابن السبيل يرجو منك شيئًا ولا تملكه وتبتغي رحمة من الله ورزقًا يسوقه إليك» **{فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا}** «عدهم وعدًا جميلًا إذا وسع الله عليك وأفاء عليك من فضله» **{وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ}** «كناية عن البخل بما هو واجب» **{وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ}**

«فتتوسع وتسرف» **{فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا}** [الإسراء: 26 - 29]. «فإنك إذا أسرفت قعدت محسورًا، وإذا بخلت وقترت قعدت ملومًا، وأنت ملومٌ محسور على كل حال إذا لم تتبع أمر الله ونهيه».

هذا هو القصد والاعتدال، هذا هو دستور الإسلام.

كان النبي صلى الله عليه وسلم يسأل الله ويقول: «**اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الإخلاص في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى**»(72).

والقصد: الاقتصاد والاعتدال.

روى الإمام البزار من حديث حذيفة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**ما أحسن القصد في الغنى، ما أحسن القصد في الفقر، وأحسن القصد في العبادة**»(73).

حتى العبادة القصد والاعتدال فيها مطلوب.

وروى الإمام أحمد من حديث أبي الدرداء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**من فقه الرجل رفقه في معيشته**»(74): هذا دلالة على فقهه وعلى

---

(72) رواه النسائي والحاكم عن عمار بن ياسر، وذكره في «صحيح الجامع الصغير» وزيادته برقم (1301).

(73) قال الهيثمي: رواه البزار من رواية سعيد بن حكيم عن مسلم بن حبيب، ومسلم هذا لم أجد من ذكره إلا ابن حبان في ترجمة سعيد الراوي عنه، وبقية رجاله ثقات. «مجمع الزوائد» (252/10).

(74) قال الهيثمي في «المجمع»: رواه أحمد، وفيه أبو بكر بن أبي مريم وقد اختلط (74/4) وعن جابر مرفوعًا: «**الرفق في المعيشة خير من بعض التجارة**»، رواه الطبراني في

نور بصيرته، إنه يقتصد، ولا يبذر ولا يسرف، ولا يبخل ولا يقتر، فهو وسط من أمة وسط، و«خير الأمور أوسطها»[75].

وروى الإمام أحمد كذلك من حديث ابن مسعود، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«ما عال من اقتصد»**[76]، أي: ما افتقر من اقتصد، وذلك لأن الذي يقتصد ويعتدل في إنفاقه، يدخر بعض الشيء من شبابه لهرمه، ومن صحته لسقمه، ومن غناه لفقره، ومن اقتصد شيئًا للمستقبل فقلما يفتقر.

الإسلام يطلب الإنفاق، ومن صفات المتقين أنهم ينفقون، ولكن الله حينما وصف المتقين في مطلع سورة البقرة قال: **{... وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ}** [البقرة: 3] أي: ينفقون بعض ما رزقهم الله، وليس كل ما رزقهم الله.

والله حين أوجب على الناس الزكاة، أوجبها في بعض المال: ربع العشر، وفي بعض المال: نصف العشر، وفي بعض المال: العشر، ولم يكثر على الناس، كما قال الله تعالى: **{إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ** «يشدد عليكم» **تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ**

«الأوسط»، وفيه عبد الله بن صالح المصري، قال عبد الملك بن شعيب: ثقة مأمون، وضعفه جماعة. «مجمع الزوائد» (252/10).

(75) لم يذكره الأستاذ القرضاوي على أنه حديث نبوي، وقد أورده ابن السمعاني في «ذيل تاريخ بغداد» بسند مجهول عن علي مرفوعًا به، وهو عند ابن جرير في «التفسير» من قول مطرف بن عبد الله ويزيد بن مرة الجعفي، وكذا أخرجه البيهقي عن مطرف، والديلمي بلا سند عن ابن عباس مرفوعًا: «خير الأعمال أوسطها». «المقاصد الحسنة» للسخاوي برقم (455) وتشهد له نصوص كثيرة في القرآن والسنة.

(76) رواه أحمد والطبراني في «الكبير» و«الأوسط»، قال الهيثمي: وفي أسانيدهم: إبراهيم بن مسلم الهجري وهو ضعيف، وعن ابن عباس مرفوعًا: **«ما عال مقتصد قط»** رواه الطبراني فيهما، ورجاله وثقوا وفي بعضهم خلاف كما قال الهيثمي «مجمع الزوائد» (252/10).

أَضۡغَٰنَكُمۡ} [محمد: 37].

ولذلك لم يسألنا إلا العفو: **{خُذِ ٱلۡعَفۡوَ ...}** [الأعراف: 199]، **{... وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَ}** [البقرة: 219]. أي: ما فضل عن الحاجة.

ومن هنا جاء في الحديث: «**لا صدقة إلا عن ظهر غنى**»[77]. لم يطلب الإسلام منك أن تنفق مما تحتاج إليه، من فعل هذا إيثارًا فهذه فضيلة وليست فريضة، كالذين مدحهم الله تعالى في كتابه بقوله: **{... وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ}** [الحشر: 9]، والأبرار الذين أثنى عليهم فقال: **{وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا}** [الإنسان: 8]. يحبون الطعام، ويتوقون إليه، وهم في حاجة إليه، ولكنهم يبذلونه لله: **{إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا 9 إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا}** [الإنسان: 9، 10].

المسلم ينفق ماله بغير إسراف ولا تقتير، لا يبخل على نفسه، فإنها أول ما ينبغي النفقة فيه.

بعض الناس يحوز المال فيقتر على نفسه وأهله، المال في يده وهو محروم منه! وهذا هو الذي قيل فيه: بشر مال البخيل بحادث أو وارث: إما حادثة تأكل أخضره ويابسه، وإما وارث يتمتع به من بعده، وربما يلعنه ويذمه، فما انتفع منه بشيء!

ككلب الصيد يمسك وهو طاو   فريسته ليأكلها سواه!

---

(77) رواه أحمد في «مسنده» عن أبي هريرة، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح. انظر: الحديث (7155)، وذكره البخاري معلقًا في كتاب الوصايا من «صحيحه».

جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلم تعجبه هيئته، فسأله: «**ألك مال**»؟ قال: نعم، قال: «**أي المال عندك**»؟ قال: من كل المال آتاني الله «أي عنده الإبل والبقر والغنم والزروع والثمار»، قال: «**فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته عليك**»(78).

وقال تعالى: **{وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}** [الضحى: 11]: والحديث ليس اللسان فقط، ولكن بالحال أيضًا.

لا داعي أن تجوع نفسك، وأن تقتر على نفسك وأهلك والمال في يدك، أنفق باعتدال على نفسك وأهلك، وفي الحديث: «**أفضل دينار ينفقه الرجل: دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه على فرسه في سبيل الله، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله**»(79).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص: «**وإنك لن تنفق نفقة تبغي بها وجه الله إلا أجرت عليها، حتى ما تجعل في فيّ امرأتك**»(80).

فالنفقة على النفس وعلى البيت هي أول ما ينبغي أن يفعله الإنسان، ثم بعد

---

(78) رواه الترمذي والحاكم عن عبد الله بن عمرو، وحسنه في «صحيح الجامع الصغير» (1887)، ورواه البيهقي في «الشعب» جزءًا من حديث عن أبي سعيد، وصححه في المصدر السابق (1742).

(79) رواه مسلم، والترمذي، عن ثوبان رضي الله عنه. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (560/2) برقم (1133).

(80) رواه البخاري، ومسلم من حديث طويل «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (560/2) برقم (1134)، وقد أورده بطوله النووي في باب الإخلاص وإحضار النية من كتاب «رياض الصالحين».

ذلك ينفق على من حوله من الأقارب والجيران، فهؤلاء لهم حقوق، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: «**ما آمن بي من بات شبعانًا وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم**»(81).

ليس من الإسلام في شيء أن تأكل ملء بطنك، وتضحك ملء سنك، وبجوارك إنسان يئن من الجوع، ولا يجد من يقدم له ما يقيم أوده، وما يطفء حرقه، ليس هذا من الإسلام ولا من الإنسانية في شيء، ولذلك برئ منه النبي صلى الله عليه وسلم.

إذا كان لك قريب فينبغي أن يكون لقريبك هذا عند عسره وفقره حظ من مالك: {**وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ...**} [الإسراء: 26].

والأقربون أولى بالمعروف، كما قال تعالى: {**يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ...**} [البقرة: 215]، فبدأ بالوالدين والأقربين.

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: «**الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم ثنتان: صدقة وصلة**»(82) أي فيها أجران: أجر الصدقة، وأجر صلة الرحم.

وأفضل ما تكون الصدقة على القريب إذا كان بينك وبينه شيء من

---

(81) رواه الطبراني، والبزار وإسناده حسن، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (691/2) برقم (1530).

(82) من حديث سلمان بن عامر رضي الله عنه، رواه النسائي، والترمذي وحسنه، وابن خزيمة وابن حبان في «صحيحيهما»، والحاكم وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (288/1)، الحديث (461).

الخصومة والجفوة، كما في الحديث الصحيح: «**أفضل الصدقة: الصدقة على ذي الرحم الكاشح**»(83). أي: الذي يضمر في كشحه لك خصومة أو عداوة، لأنك في هذه الحالة لاتعطيه مجاملة ولا مودة بمودة ولا إحسانًا بإحسان، بل تعطيه لله عز وجل، ولحق القرابة بينك وبينه.

مع هذا كله هناك حق الزكاة، الحق المالي الثابت الدوري المحدد في نظر الإسلام.

الزكاة ثالثة دعائم الإسلام بعد التوحيد والشهادة للنبي عليه الصلاة والسلام بالرسالة وإقامة الصلاة، فلا بد أن تبذل من مالك، وقد جاء في بعض الأحاديث:

«**برئ من الشح من أدى الزكاة، وقرى الضيف، وأعطى في النائبة**»(84).

يبرأ الإنسان من الشح: إذا أدّى الزكاة الواجبة عليه، وقرى الضيف الذي يحل به، وأعطى في النوائب التي تنزل بالمسلمين: زلازل، جهاد، مجاعة ... إلخ.

بهذا يبرأ الإنسان من الشح {**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ**} [الحشر: 9].

---

(83) رواه الطبراني في «الكبير»، ورجاله رجال الصحيح، وابن خزيمة في «صحيحه»، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (289/1)، الحديث (462).

(84) ذكره ابن كثير في تفسير سورة الحشر نقلًا عن ابن جرير الذي رواه بسنده عن أنس رضي الله عنه (339/4) طبعة الحلبي.

وهناك أناس يعطون فوق هذا كله، كان الإمام الليث بن سعد - وكان يقارن بالإمام مالك - من أغنياء المسلمين، وقالوا: إن دخله السنوي كان ثمانين ألف دينار وما وجبت عليه زكاة قط، لأنه ما كان ينتظر بالمال حتى يحول عليه الحول، بل يتصدق بكل ما يجمعه، فالمال من الله وإلى عباد الله، جاءت امرأة تسأله شيئًا من عسل، فأمر لها بزق «جرة كبيرة» فقال له بعض جلسائه: تسألك أكلة عسل فتعطيها زقًّا! فقال: إنها تسأل على قدر حاجتها، ونحن نعطيها على قدر نعمة الله علينا!

وكذلك كان عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، كان من كبار الأثرياء، ومن كبار الأسخياء أيضًا، وكان من خصاله وفضائله المشهورة أنه لا يرد سائلًا يؤمّه في حاجة قط، ولما لامه بعض هؤلاء الذين يبخلون الناس، قال: إن الله عودني عادة وعودت عباده عادة، عودني أن يعطيني وعودت عباده أن أعطيهم، وأخشى إذا قطعت عادتي عنهم، أن يقطع عادته عني!

هكذا كان القوم، لم يكونوا يقترون بل كانوا ينفقون، والإنفاق في الخير لا سراف فيه، كان بعضهم قد جاء بصرة من فضة في سبيل الله فقيل له: يا فلان لا خير في إسراف، قال: ولا إسراف في الخير، والصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا يتسابقون في البذل عند الحاجة إلى تمويل العسكر المسلم في الغزوات، كان هذا يدفع الآلاف، وهذا يدفع عشرات الآلاف، وهذا يدفع مئات الآلاف، وهذا يجهز جيشًا بأسره[85].

وفي إحدى الغزوات: جاء عمر رضي الله عنه بشطر ماله إلى النبي

(85) راجع في هذا «حياة الصحابة» للكاندهلوي، باب «إنفاق الصحابة في سبيل الله».

صلى الله عليه وسلم، وكان يظن أن أحدًا لم يعط مثل هذا من قبل، فإذا بأبي بكر رضي الله عنه يأتي بكل ما عنده، فسأله النبي صلى الله عليه وسلم: «**يا أبا بكر: ما أبقيت لأهلك؟**»، قال: أبقيت لهم الله ورسوله[86]، لم يدع لهم شيئًا.

وهذا يجوز إذا كان الإنسان قوي الثقة بالله، قوي التوكل على الله، ويعلم من أهله وأسرته مقدار توكلهم وصبرهم أيضًا.

أما إن كانوا لا يصبرون وليس عندهم مثل هذا اليقين والإيمان، فلا ينبغي أن يبذل ماله كله، لأنهم لا يصبرون صبره.

فأبو بكر علم أنه وأهله قادرون على الصبر فلذلك أعطى ماله كله لله.

إن هؤلاء كانوا على ثقة أن الله تعالى لا يضيع عليهم شيئًا «**ما نقص مال من صدقة**»[87]، أو «**ما نقصت صدقة من مال**»[88]، على هذا حلف رسول

---

(86) أخرجه أبو داود، والترمذي وقال: حسن صحيح، والدارمي، والحاكم، والبيهقي، وأبو نعيم في «الحلية». «حياة الصحابة» (150/2)، ولفظ الترمذي: «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق فوافق ذلك مالًا فقلت: اليوم أسبق أبا بكر أن سبقته يومًا، قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أبقيت لأهلك؟» قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: «يا أبا بكر: ما أبقيت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسوله. قلت: والله لا أسبقه إلى شيء أبدًا.

(87) كما في حديث أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه مرفوعًا: «**ثلاث أقسم عليهن ...: ما نقص مال عبد من صدقة ...** » رواه أحمد في «مسنده» (231/4)، والترمذي وقال: حسن صحيح (2326).

(88) رواه مسلم، والترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وتتمته: «**وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عز وجل**». «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» الحديثان (1462، 1751).

الله صلى الله عليه وسلم، فالمال لا تنقصه الصدقة بل تزيده، يقول الله تعالى: {... وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ} [سبأ: 39]، {ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ} «إذا أنفقتم» {وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ} «الخصلة القبيحة البالغة القبح وهي البخل»، {وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ} «أي في الآخرة» {وَفَضْلًا} «أي سعة في الدنيا»، {وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: 268]، وأكثر الناس يصدقون وعد الشيطان، ولا يصدقون وعد الرحمن! أو يصدقونه ولكن لا يضعونه موضع التنفيذ، بل يغفلون عنه.

عباد الرحمن «إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا» لم يقتروا على أنفسهم، لم يقتّروا على أهليهم، لم يقتّروا على أقاربهم، لم يقتّروا على جيرانهم، لم يقتّروا في النوائب والنوازل التي تنزل بالمسلمين، وقبل ذلك كله: لم يقتّروا ولم يبخلوا بحق الله الأول عليهم وهو «أداء الزكاة».

وهم - أيضًا - لا يسرفون إذا أنفقوا، والإسراف: إما النفقة في معصية الله عز وجل، كما جاء عن السلف: لو أن امرءًا أنفق ماله كله في الحق والخير لم يكن مبذرًا، ولو أنفق مدًّا ؟؟؟ في باطل وشر كان مبذرًا.

من أنفق ماله في خمر ... في مخدرات ... أو في ترف محرم كأواني الذهب والفضة، وتماثيلهما، في أي شيء من الحرام، فهذا إسراف وتبذير ولا شك.

وإما إنفاق المال وتبديه في المباحات، فالمسلم إذا أنفق لا يتوسع أكثر من طاقته، يمد رجليه على قدر لحافه، يوازن بين دخله وخرجه، بين إيراده ومصروفه، فلا يتوسع ثم يورط نفسه في الدين، والدين هم بالليل ومذلة

بالنهار، ولعل الأجل يوافيه قبل أن يوفي ما عليه، ويكون مرهونًا بدينه، فلماذا يورط نفسه في هذا؟؟ وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يستعيذ بالله تعالى من ضلع الدين وغلبة الرجال(89).

الناس يستهينون بالديون، ويتوسعون في الشراء بالتقسيط والآجال، ويضيقون على أنفسهم، وأولى بالمسلم أن يوازن بين أحواله، إلا إذا اقتضته حاجة إلى أن يستدين، فليستدن ولينظم أموره حتى يقضي دينه، ولينو وليصمم على أداء الدين، والله تعالى إذا عرف صدق نيته أمده بمعونته ومساعدته، ففي حديث البخاري: «**من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه، ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله**»(90) أي: أهلكه وأهلك ماله.

هذا هو شأن الإنسان المسلم: إذا أنفق لا يسرف ... لا يضيع المال، فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن إضاعة المال(91) ... عن إضاعة هذه النعمة ... عن تضييع هذه الأمانة.

---

(89) في الدعاء المأثور عنه صلى الله عليه وسلم: «**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدين وغلبة الرجال**» رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، كلهم عن أنس بن مالك بألفاظ متقاربة، واللفظ للبخاري. «فيض القدير» للمناوي (151/2 - 152 برقم 1513).

(90) رواه البخاري، وابن ماجه، وغيرهما، عن أبي هريرة رضي الله عنه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (521/2)، الحديث (1018).

(91) في حديث المغيرة بن شعبة المتفق عليه مرفوعًا: «**إن الله تعالى حرم عليكم: عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنعًا وهات، وكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**». «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (1749).

أيّ درهم أو دينار في يدك ثق أنه ليس لك، إنه للأمة كلها، إذا ضيعته في غير حق فقد ضيعته على نفسك وضيعته على الجماعة ... على الأمة الإسلامية.

ولهذا فالذي ينفق ماله في شرب الدخان - مثلًا - يضيع هذا المال على نفسه وعلى الأمة، يضر نفسه بحر ماله، يشتري ضرره بفلوسه، ولمن يدفع هذه الفلوس؟ لشركات التدخين العالمية الاستعمارية!

المال نعمة يجب على المسلم أن يحافظ عليها.

كم من مشروعات إسلامية في بلاد إسلامية تحتاج إلى تمويل ولا تجد من يمولها؟ كم من مدارس نحتاج إلى أن تقوم؟ كم من مساجد نحتاج إلى أن تشيد؟ كم من مكاتب لتحفيظ القرآن، وكم من مراكز إسلامية نحتاج إليها؟ كم من مرضى يفتقرون إلى الدواء؟ كم من مشردين يفتقرون إلى البيوت؟ كم من يتامى يفتقرون إلى من يكلفهم؟ كم من جياع يريدون أن يأكلوا وليس هناك من يعطيهم؟!

ألقلّة المال لدى المسلمين؟ لا والله، المال كثير، ولكنه يبعثر - للأسف - في غير وجهه.

كم من أناس ينفقون الألوف، وعشرات الألوف، ومئات الألوف في غير ما يرضي الله تعالى ، فإذا طلبت منهم شيئًا لله كفوا أيديهم وشحت أنفسهم؟!

ولا عجب أن وصف لنا القرآن قومًا من الناس حينما قال: {**... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا 36 ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا 37 وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ**

رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا} [النساء: 36 - 38].

انظروا: وصفهم بالبخل ... البخل في أنفسهم، وتحريض الآخرين على البخل، ووصفهم - في الوقت نفسه - بأنهم ينفقون أموالهم رئاء الناس، أي في المظاهر الزائفة ... في الأحفال التي يتحدث الناس عنها ... في الولائم التي يتسامع الناس بها، حيث تذبح الذبائح الكثيرة، ولا يؤكل منها إلا العشر أو أقل من العشر، ثم يرمي الباقي هنا وهناك، وهناك أناس يحتاجون إلى اللقمة فلا يجدونها!

أموال تضيع هنا وهناك رئاء الناس، الرياء الاجتماعي والرياء الديني: كم أفسدا النيات وأفسدا القلوب، وأضاعا الأموال على هذه الأمة.

الإسراف - للأسف - أصبح سمة من سماتنا، نبخل عن الواجبات ونسرف في المحظورات أو فيما لا نفع فيه.

نحن في حاجة إلى أن نضبط أنفسنا ... أن نضبط استهلاكنا، يتحدثون الآن عن ترشيد الإنفاق، ونحن في حاجة إلى أن نرشد الإنفاق والاستهلاك في كل شيء.

نحن نسرف في استهلاك الماء، ونسرف في استهلاك الكهرباء، ونسرف في استهلاك الطاقة، ونسرف في استهلاك السيارات، ونسرف في استهلاك الأجهزة والأدوات، كل شيء لا قيمة له عندنا، كأن هذه الأموال أموالنا نحن ليست أموال الله في أيدينا.

نحن في حاجة إلى أن نحافظ على هذا كله[92].

وبعض الناس يحافظ على ماله هو، الذي يملكه، ولكنه إذا كان موظفًا في حكومة، أو موظفًا في مؤسسة، أو موظفًا في شركة، أسرف في المال الذي تحت يديه، وأنفق وبدد، وتوسع وبعثر.

لا، إن من صفات عباد الرحمن أنهم: {**إِذَآ أَنفَقُواْ**} من أموالهم أو من أموال غيرهم التي ائتمنوا عليها {**لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ**} إنهم معتدلون في كل شيء، والاعتدال خلق من أخلاق الإسلام.

مر النبي صلى الله عليه وسلم على سعد وهو يتوضأ، فقال له: «**لا تسرف في الماء**» فقال: وهل في الماء من إسراف؟ قال: «**نعم وإن كنت على نهر جار**»[93]: حتى لو توضأت من نهر تجري مياهه، ولا يضر النهر إن أخذت منه أو زدت، ولكن ليكن هذا خلقًا لك ... سمة من سمات شخصيتك.

هذه أخلاق عباد الرحمن، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم، إنه سميع قريب، ادعوا الله تعالى يستجب لكم.

---

(92) انظر: فصل «القيم والأخلاق في مجال الاستهلاك» من كتاب الأستاذ القرضاوي «دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي» (ص 195 - 257) نشرته مكتبة وهبة بالقاهرة.

(93) رواه ابن ماجه، وأحمد عن عبد الله بن عمرو، وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده ضعيف لضعف حي بن عبد الله المعافري وابن لهيعة. «زاد المعاد» لابن القيم بتحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط (192/1)، وهو الحديث (425) في ابن ماجه، ولكنه يقويه حديث ابن عمر قبله (424): «**لا تسرف، لا تسرف**».

الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة:

ورد أن في يوم الجمعة ساعة إجابة، لا يصادفها عبد مسلم يدعو الله بخير إلا استجاب له، ولعلها تكون هذه الساعة.

اللهم إنا نسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا، اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر.

اللهم إنا نسألك خشيتك في الغيب والشهادة، ونسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، ونسألك القصد في الفقر والغنى، ونسألك الإخلاص في السر والعلانية.

اللهم اجعل يومنا خيرًا من أمسنا، واجعل غدنا خيرًا من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

اللهم اغننا بحلالك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك، وبفضلك عمن سواك.

اللهم انصر أمة الإسلام على من عاداها، اللهم عليك بالكائدين لها.

اللهم عليك بأعدائك أعداء الإسلام، اللهم رد عنا كيدهم، وفل حدهم، اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ

ٱلۡكَٰفِرِينَ} [آل عمران: 147].

اللهم آمين.

{... وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ} [العنكبوت: 45].

* * *

صفات عباد الرحمن

6- التوحيد

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

لازلنا نعيش في رحاب القرآن ومع عباد الرحمن، ومن منا لا يحب أن يكون عبدًا من عباد الرحمن، من منا لا يحب أن ينتمي إلى هذه الفئة الصالحة الصادقة، التي رضيت عن الله تعالى ورضي الله عنها، وجعل جزاءها الجنة **{أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا}** [الفرقان: 75]، وسجل ذكرها في كتابه، وذكرهم بهذه الأوصاف الكريمة، وهذه السمات الجليلة، وهذه الأخلاق الجميلة.

فبين الله تعالى من أول الأمر حالهم في أنفسهم، حال التواضع والسكينة: **{ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا}** [الفرقان: 63]، وحالهم مع الناس وبخاصة أولئك السفهاء والجاهلون: **{وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا}** [الفرقان: 63]، وحالهم مع ربهم: **{وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا 64 وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا 65 إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا}** [الفرقان: 64 - 66]، ثم ذكر حالهم في أموالهم، فهم فيها متوسطون معتدلون، شأنهم في كل أمورهم وفي كل حياتهم، منهجهم الوسط، وطريقهم الاعتدال: **{وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا}** [الفرقان: 67]، **{وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ...}** [البقرة: 143].

هكذا ذكرهم الله تعالى بتلك الصفات الإيجابية، ولكن الدين أمر ونهي، فإذا كان هذا حالهم مع أوامر الله تعالى وتوجيهات الدين، فما هي حالهم مع ما نهى الله تعالى عنه؟

هذا ما ذكرته هذه الآية الكريمة التي نقف عند الفقرة الأولى منها: **{وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا}** [الفرقان: 68]. إن سيرتهم غير سيرة المشركين، المشركون يعبدون مع الله آلهة شتى، اتخذوها أربابًا من دون الله أو مع الله، والمشركون لا يتورعون عن سفك الدماء وقتل الأنفس، والمشركون لا يتورعون عن هتك الأعراض وسفح الشهوات، ولكن عباد الرحمن تورعوا عن هذا كله.

فأول ما اتصفوا به هو التوحيد، ولهذا **{لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ}**: لا يتجهون إلى الله بالدعاء، و«**الدعاء مخ العبادة**»(94) بل الدعاء هو العبادة.

روى الترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**الدعاء هو العبادة**»(95) وقرأ: **{وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}** [غافر: 60]، فوضع كلمة «الدعاء» موضع كلمة «العبادة» وكلمة «العبادة» موضع كلمة «الدعاء».

---

(94) رواه الترمذي عن أنس بن مالك، ثم قال: هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة. «صحيح الترمذي»، أبواب الدعوات: باب ما جاء في فضل الدعاء.

(95) ورواه مسلم والطبراني وابن أبي شيبة وأحمد والبخاري في «الأدب المفرد»، وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم عن النعمان بن بشير، وقال الترمذي: حسن صحيح. «كشف الخفاء» للعجلوني (403/1) برقم (1295).

فـ {**ٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا**} أي لا يعبدون إلا الله، ولا يقدسون غير الله، ولا يبتهلون إلى غير الله، ولا يسجدون لغير الله، ولا ينحنون لغر الله، إلههم «الله» وحده.

قد أفردوا الله وحده بالعبادة وبالاستعانة، فهموا سر قوله تعالى: {**إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ**} [الفاتحة: 5] أي: لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا بك: « **... إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله ...**»(96)، وكما قال الله تعالى على لسان شعيب: {**... وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ**} [هود: 88]، {**وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ ...**} [هود: 123].

إن تفرد الله بالعبادة والإنابة، وبالتوكل والاستعانة: هذه حقيقة التوحيد.

والتوحيد نوعان: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية.

توحيد الربوبية: أن تعتقد أنه لا رب غير الله، ولا خالق ولا رازق غير الله، فهو خالق السموات ومالكهما.

وهذا النوع من التوحيد قداعترف به المشركون، كانت قريش ومشركوا العرب يعترفون بأن الله رب السموات والأرض: {**وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ...**} [لقمان: 25، الزمر: 38]، {**قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ...**} [يونس: 31].

---

(96) قطعة من حديث ابن عباس، الذي رواه الترمذي وقال: حديث صحيح، وسيأتي نصه كاملًا في صفحة (81).

ومع هذا الاعتراف أشركوا مع الله آلهة أخرى، عبدوا الأحجار وعبدوا الأوثان والأصنام، ومن الناس من عبد الشمس ومن عبد القمر، ومنهم ومنهم.

ومن هنا قالوا: إن توحيد الربوبية لا يغني عن التوحيد الآخر: توحيد الألوهية.

توحيد الألوهية: أن لا تؤله غير الله، ولا تتجه بالدعاء والعبادة والاستغاثة والرجاء والخوف إلا إلى الله وحده.

وهذا هو التوحيد الذي أنزل الله به كتابه، وبعث به رسله، ليدعو إليه أقوامهم، فإن الذي أضل البشرية ليس هو الجحود والإلحاد، بل هو الشرك والوثنية.

ولهذا كان النداء الأول في رسالات الرسل: **{... يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ...}** [الأعراف: 59، 65، 73، 85، هود: 50، 61، 84]، وكان التوحيد هو القاسم المشترك بين رسل الله جميعًا: **{وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ}** [الأنبياء: 25]، **{وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ...}** [النحل: 36].

كان المشركون يعتقدون أن الله خالق كل شيء ويعبدون غيره، ويقولون عن آلهتهم المزعومة: **{... مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ...}** [الزمر: 3]، **{وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ...}** [يونس: 18]، فجاء الإسلام ليحرر هؤلاء من عبادة غير الله، سواء كان هذا الغير حجرًا أو بشرًا، أو جنًا أو ملكًا، أو حيوانًا أو نجمًا، أو شمسًا أو قمرًا، أو جمادًا أو أي شيء.

كان النبي صلى الله عليه وسلم يختم رسائله إلى ملوك الأرض - إلى قيصر ... إلى أمراء النصارى ... إلى المقوقس ... إلى النجاشي ... إلى غير هؤلاء من أهل الكتاب - بهذه الآية الكريمة من سورة آل عمران: **{قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ...}** [آل عمران: 64].

إن الذي أفسد الحياة، وأفسد المجتمعات، هو: دخول الشرك عليها، واتخاذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله، فإنهم لم يعبدوا الحجر فقط بل عبدوا البشر.

كان هناك مثل «النمروذ» الذي قال: أنا أحي وأميت[97]، فقد حكم على رجل بالإعدام ثم أعدمه، وحكم على آخر بالإعدام ثم عفا عنه، أنذا أحيي وأميت!

و «فرعون» الذي ادعى الألوهية، وقال لقومه: **{أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ}** [النازعات: 24].

{... مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي} [القصص: 38]، **{فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوه ...}** [الزخرف: 54].

وهناك كثيرون ادّعوا لأنفسهم أو ادعي لهم أنهم آلهة أو أرباب من دون الله، وقد لا يدعون ذلك بألفاظهم ولكن أعمالهم تنبئ عنهم، وتصرفاتهم تعبر عن هذا التأليه الكامل، فهم يريدون أن يذلوا عباد الله، وأن يصبح الناس لهم عبيدًا، يأمرونهم فيطيعون، ويشيرون إليهم فيسمعون، ويشرعون لهم

---

(97) قال تعالى: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبْرَٰهِۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ...}** [البقرة: 258].

فينفذون، ويحلون لهم الحرام أو يحرمون عليهم الحلال فيستجيبون!

لا يقولون: لم، ولا يقولون: لا، يحرمون عليهم ما شاؤوا ويحلون لهم ما شاووا!

دخل عدي بن حاتم - وكان قد تنصر في الجاهلية - على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية: **{ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ}** [التوبة: 31]، فقال إنهم لم يعبدوهم، قال: «بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم»[98].

هذا نوع من العبادة: أن تتخذ أناسًا مشرعين، يشرعون لك ما شاؤوا، يحلون ويحرمون، اغتصبوا سلطة الإلهية!

هناك أنواع شتى من الربوبية تظاهر بها الناس في مختلف القرون وعلى مر العصور، ودان الناس لهم وأطاعوهم، فانقسموا قسمين: آلهة وعبيد، آلهة يفعلون ما يشاؤون، ويحكمون بما يريدون، ولا يسألون عما يفعلون، وعبيد ليس لهم إلا السمع والطاعة.

جاء الإسلام يحرر الناس من هذا كله، يحرر النفوس من الشرك، يحررها بالتوحيد، يحررها بـ «لا إله إلا الله» هذه الكلمة كانت إيذانًا بحياة جديدة، ومجتمع جديد، كانت إعلانًا لحرية البشر ولحقوق الإنسان.

بهذه الكلمة يجب أن ترتفع الحياة، وان تتحرر النفوس، وأن ترتفع

---

(98) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسير سورة التوبة، من رواية الإمام أحمد، والترمذي، وابن جرير، من طرق، عن عدي بن حاتم رضي الله عنه (348/2 - 349)، طبعة الحلبي.

الرؤوس، ولا تنحني إلا لله في ركوع أو سجود.

كان التوحيد تحريرًا حقيقيًا للبشرية.

ولم يسمح النبي صلى الله عليه وسلم بأي نوع من أنواع الشرك، سواء كان أكبر أو أصغر.

هناك الشرك الأكبر وهو نوعان: ظاهر جلي كاتخاذ آلهة مع الله، وباطن خفي كدعاء الموتى والمقبورين والاستعانة بهم وطلب قضاء الحوائج منهم.

وهناك الشرك الأصغر: كالتبرك بالشجر أو بالحجر، وكالحلف بغير الله تعالى، كأن تقسم بالنبي صلى الله عليه وسلم أو بالكعبة أو بالشيخ الفلاني أو بالولي الفلاني، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**من حلف بغير الله فقد كفر، أو أشرك**»(99)، لا تحلف إلا بالله: « **... من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت**»(100).

ومن الشرك الأصغر أن تقول: لولا فلان لحصل كذا وكذا، فالمسلم ينبغي أن يتحرز في ألفاظه ويقول: لولا الله ثم فلان لكان كذا وكذا.

قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: ما شاء الله وشئت، فقال: «**أجعلتني لله ندا؟ قل: ما شاء الله وحده**»(101). وفي حديث آخر: «**لا تقولوا: ما شاء**

---

(99) رواه الترمذي وحسنه، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما، ووافقه الذهبي. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (2/771 - 772) برقم (1792).

(100) رواه مالك، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، عن ابن عمر رضي الله عنهب، وأوله: «**إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ...**».

(101) رواه أحمد في «المسند» من حديث ابن عباس رضي الله عنهب وإسناده صحيح،

الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله، ثم ما شاء فلان»(102).

لا ينبغي أن يقال: باسم الله واسم فلان، لأن ظاهرة هذه الألفاظ جعل «فلان» هذا كأنه شريك مع الله، كأنه ندٌّ لله تعالى .

أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يحرر الإنسان المسلم فلا يتجه إلا إلى الله وحده.

حتى الغلو في شخصه صلى الله عليه وسلم نهى الناس عنه، ما كان يجب أن يغلو الناس فيه، وقال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**»(103). ومن هنا نقول في التشهد: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

ولهذا وصفه الله بالعبودية في أسمى المقامات: **{سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ ...}** [الإسراء: 1]، **{تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ ...}** [الفرقان: 1]، **{ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ ...}** [الكهف: 1]، **{فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ}** [النجم: 10].

وهذا هو ما يفتخر به صلى الله عليه وسلم، أنه عبد لله.

ورواه أيضًا النسائي في «عمل اليوم والليلة» (988) بلفظ: «**أجعلتني لله عدلًا**». انظر: «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد» بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط (ص 505)، و«زاد المعاد» بتحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط (353/2).

(102) رواه أبو داود، وأحمد، من حديث حذيفة، وإسناده صحيح «زاد الميعاد» (353/2).

(103) رواه البخاري في «صحيحه»، من حديث عمر رضي الله عنه «شرح السنة» للبغوي بتحقيق الشاويش والأرناؤوط (246/13) برقم (3681). والإطراء: مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه.

لم يسمح لأحد أن يغلو فيه، ولما جاء بعض الناس وقالوا له: يا رسول، يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، قال: **«يا أيها الناس قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل»**(104).

ومن الشرك الأصغر: النذر لغير الله(105)، والذبح لغير الله(106)، والرقي(107)، والتمائم(108)، والتولة(109)، وغير ذلك(110).

---

(104) رواه النسائي عن أنس رضي الله عنه بسند جيد «حقيقة التوحيد» للقرضاوي (ص 630)، وانظر: «عمل اليوم والليلة» بتحقيق فاروق حماده، الأحاديث: (245، 246، 247، 248، 249).

(105) قال تعالى: **{وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ}** [البقرة: 270] وفي الحديث: **«من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن ذر أن يعصي الله فلا يعصيه»** رواه البخاري وغيره.

(106) قال تعالى: **{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ 162 لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ}** [الأنعام: 162، 163]. والنسك: الذبح بقصد التقرب، وفي الحديث عن علي رضي الله عنه: حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات - وذكر أولها - : **«لعن الله من ذبح لغير الله»** رواه مسلم.

(107) التي تسمى «العزائم» وهي عبارة عن كلمات وتمتمات كان يتعاطاها أهل الجاهلية معتقدين أنها تدفع عنهم الآفات، مستعينين بالجن أو مرددين بعض الألفاظ الأعجمية أو غير المفهومة، فجاء الإسلام فأبطل ذلك، إلا ما ذُكر فيه أسماء الله وصفاته وآياته والمأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم فهذا حسن.

(108) جمع تميمة، وهي خرزات كان العرب يعلقونها وخاصة على الأولاد زاعمين أنها تدفع عنهم الجن أو تقيهم العين ونحوها، فأبطلها الإسلام، ومن هذه التمائم ما يسمى «الجامعة» أو «الحرز» أو «الحجاب» أو ما شابه ذلك، فكل ذلك من كبائر المنكرات، لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف، وانظر كتاب الشيخ القرضاوي: «موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى ومن الكهانة والتمائم والرقى» نشرته مكتبة وهبة.

كل هذه ضروب من الشرك لا ينبغي للمسلم أن يقع فيها، وقد حذرنا النبي صلى الله عليه وسلم منها.

جاء الإسلام يدعو إلى التوحيد، وإلى التحرر من الشرك أكبره وأصغره، وجليه وخفيه، وذلك ليكون الشخصية المتزنة ... الشخصية السوية ... الشخصية التي لا ترجو إلا الله ولا تخاف الله.

المشرك يخاف من كل شيء ويخاف على كل شيء، والمؤمن الذي وحد الله تعالى لا يخاف من شيء، سدّ منافذ الخوف كلها، فلم يعد يخاف إلا ربه، حتى الموت لا يخاف منه، لأنه يعلم أن بعد الموت حياة أخرى يلقى فيها ربه، ويُخلّد فيها في عمله، ولا يخاف على الرزق ولا يخاف على الأجل، لأن الرزق مضمون والأجل محدود: {**...فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ**} [الأعراف: 34، النحل: 61].

ومن هنا كان التوحيد مصدر الأمان النفسي: {**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ** «أي لم يشوبوا توحيدهم بشرك» **أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ**} [الأنعام: 82]، أي: لهم الأمن في الدنيا والاهتداء، ولهم في الآخرة كذلك.

على حين قال الله تعالى عن المشركين: {**سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ**

---

(109) شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته، وهي ضرب من السحر، وفي حديث ابن مسعود: «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**» رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد» بتحقيق الأرناؤوط (ص 133).

(110) هناك ألوان أخرى من الشرك الأصغر ذكرها الأستاذ القرضاوي في رسالته الوجيزة النافعة: «حقيقة التوحيد» التي نشرتها مكتبة وهبة بالقاهرة.

ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ} [آل عمران: 151].

التوحيد تحرير للنفس، فلا تذل لغير الله، ولا تعتز إلا بالله وحده. **{وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ ...}** [المنافقون: 8]، **{مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا ...}** [فاطر: 10].

التوحيد سمو بالإنسان، وارتفاع به عن حضيض الأرض إلى الأفق الأعلى، أما الشرك فهو انحطاط بالإنسان، ينحط الإنسان ليعبد إنسانًا مثله، أو ليعبد أشياء سُخرت من أجله، يعبد أشياء لا تضر ولا تنفع، يعبد أشياء لا تُبصر ولا تسمع، يعبد أشياء لا تعي ولا تعقل.

انظروا إلى ذلك الذي ينحت الحجر بيده ثم يتوجه إليه راجيًا خائفًا خاشعًا متضرعًا! كما قال إبراهيم عليه السلام لقومه: **{...أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ 95 وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ}** [الصافات: 95، 96].

انظروا إلى ذلك الذي يعبد الحيوان الذي سُخّر لمنفعته، ويقدس الأنعام التي تخدمه وهي صحيحة، ويأكلها وهي ذبيحة!

كنت في الأسبوع الماضي في الهند، فرأيتهم كيف يقدسون الأبقار التي لا تملك لنفسها فضلًا عن غيرها - ضرًا أو نفعًا أو موتًا أو حياة.

والعجيب أنهم يؤلهون البقرة ولا يؤلهون الجاموسة، والجاموسة أنفع منها، وأكثر لبنًا، ويؤلهون الأنثى ولا يؤلهون الذكر، الأنثى تقدس وتُعبد، والثور يضرب ويهان ويستخدم في حمل الأثقال وغير ذلك.

ما الذي جعل هذه إلهًا وذلك ليس بإله؟! وما الذي جعل البقرة إلهًا

والجاموسة ليست بإله؟! شيء عجيب!!

هناك وجدنا من يعبد الثعابين، ومن يعبد النمل، ومن يعبد الشيطان، وهناك من يعبد الفرج، ومن يعبد الحشرات!!

الشرك أذل الإنسان وانحط به، وصدق الله العظيم إذ يقول: {**... وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**} [الحج: 31].

والشرك وكر للخرافات ومباءة للأضاليل، يجعل الإنسان أسير الأوهام، ويصبح زمامه بيد أولئك الكهان الذين يبيعون فيه ويشترون، ويسرقونه أو يقودونه كما تساق أو تقاد الأنعام.

أولئك الكهنة وسدنة الأصنام وخدمتها، يتحكمون في أولئك الناس، إذا قالوا لهم شيئًا سمعوا وأطاعوا، وهذا هو الشرك، وهذه هي العبودية، عبودية الإنسان للإنسان!

جاء الإسلام ليحرر الإنسان من هذا الوهم، ويجعله مع الله مباشرة، ليست هناك وساطة بين الله وعباده، ليس هناك سماسرة محتكرون لهذه الوساطة، تستطيع أن تقرع باب ربك في أي وقت وتدعوه بما تشاء، فيقول لك: لبيك وسعديك، تستطيع أن تصلي في أي بقعة من الأرض:

«**وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا**»(111)، تستطيع أن تؤدي عبادتك

(111) قطعة من حديث جابر المتفق عليه، ورواه أيضًا النسائي، ونصه: «**أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد**

وأنت متحرر من رق الكهنوت.

جاء الإسلام ليحررنا من العبودية لغير الله تعالى ، وهذه مزية عباد الرحمن، أنهم: {لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ} أيًا كان هذا الإله، تحرروا من كل الوثنيات: الوثنية الدينية، والوثنية الاقتصادية، والوثنية الاجتماعية.

أ- الوثنية الدينية: اتخاذ آلهة أخرى، سواء كانت وثنية كبرى أو وثنية صغرى، وثنية ملحوظة أو وثنية غير ملحوظة.

قد يقول بعض الناس: نحن لا نعبد هؤلاء، ولكن إذا كنت تتوجه إلى صاحب الضريح وتستغيثه وتبتهل إليه، وتخاف منه أكثر مما تخاف الله(112)، فهذا من الوثنية.

لا يجوز للمسلم أن يستغيث بولي أو صاحب ضريح، إنما عليه - إن كان مسلمًا - إذا زار قبرًا من هذه القبور أن يقول: «**السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله للاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية**»(113)، فهو يدعو لهم وليس يدعوهم، هذا منطق الإسلام.

أما أن تدعوهم وأنت لا تعرف إن كانوا من أهل الجنة أم من أهل النار، لأنك لا تدري شيئًا عن خواتيم العباد، لا يستطيع إنسان أن يجزم أن صاحب

قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة».
«الجامع الصغير» للسيوطي (46/1 - 47) وشرحه: «فيض القدير» للمناوي (566/1 - 568 برقم 1174).

(112) بعض الناس يقسم بالله كاذبًا ويخشى أن يقسم بالشيخ أو بالولي!!

(113) حديث صحيح، أخرجه مسلم في كتاب «الجنائز» باب: «ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها». انظر: «صحيح مسلم بشرح النووي» (45/7) ط. دار الفكر.

هذا القبر قد خُتم له بالإيمان، وهو في الجنة.

ولما مات عثمان بن مظعون - وهو من السابقين الأولين الذين دخلوا في الإسلام وأوذوا في سبيله وهاجروا من أجله - قالت أم العلاء الأنصارية: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك: لقد أكرمك الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**من هذه المتألية على الله تعالى؟ وما يدريك أن الله أكرمه؟ والله ما أدري - وأنا رسول الله - ما يُفعل بي؟**» قالت: فوالله لا أزكي بعده أحدًا أبدًا(114).

فلم يرض النبي صلى الله عليه وسلم أن تقول الصاحبية: «فشهادتي عليك: لقد أكرمك الله» بهذا الجزم، لأنها صيغة قسم، ومن أين تعلم أن هذا قد خُتم له بالجنة؟ العشرة المبشرون بالجنة - وأمثالهم - هم الذين نشهد لهم بالجنة، وما عدا ذلك فكل إنسان مصيره إلى الله.

ثم لماذا تطلب من غيرك وهو مثلك عبد ومخلوق؟! هل يسأل «الشحات» «الشحات»؟!

اسأل صاحب الخلق والأمر، اسأل صاحب الخزائن التي لا تنفذ: « **... إذا سألت فسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله ...**»(115).

---

(114) رواه البخاري في «صحيحه» عن أم العلاء الأنصارية في عدة مواضع: في الجنائز والشهادات، وفضائل الصحابة، والتعبير، وهو مع قوله تعالى في سورة الأحقاف: {**قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡ ...**} (9)، وهذا قبل أن تنزل سورة الفتح وفيها: {**لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ...**} (2) فالأحقاف مكية، والفتح مدنية باتفاق.

(115) قطعة من حديث ابن عباس رضي الله عنهب، ونصه كاملًا: قال: كنت خلف النبي

ب- الوثنية الاقتصادية: عبادة المال، عبادة الدينار والدرهم، كما جاء في حديث البخاري: «**تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة**»(116)، وزاد في رواية: «**وعبد القطيفة**»(117).

هناك أناس أشركوا مع الله المال، فهم يلهثون وراءه، يستحلون من أجله كل حرام، ويرتكبون كل موبقة، هؤلاء عبيد المال.

ج- الوثنية الاجتماعية «أو الوثنية السياسية»: إذا كان هناك من يعبدون القبور، فهناك من يعبدون القصور، شرك العوام تأليه الأموات، وشرك الخواص تأليه الأحياء! طاعتهم طاعة مطلقة، إعطاؤهم حقوق الألوهية من التعظيم والتقديس والخوف والرجاء.

وكل ذلك وثنية.

صلى الله عليه وسلم يومًا فقال: «**يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف**». رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وهو الحديث التاسع عشر من «الأربعين النووية».

(116) بفتح الخاء: ثوب معلم من خز أو صوف

(117) هي كساء له خمل يجعل دثارًا، والحديث رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه وتتمته: «**إن أُعطى رضي، وإن لم يُعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يُشفع**». وانظر تعليق الشيخ القرضاوي على الحديث في كتابه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (368/1 - 369 برقم 658).

إذا كنت عبدًا لله حقًا فلا تؤلّه غير الله، ولا تلتفت بقلبك إلا إلى الله، لا يملك أحد لك ضرًا ولا نفعًا، ولا حياة ولا موتًا، ولا يستطيع مخلوق أن يقدّم لك أجلًا، أو ينقص لك رزقًا: « **... واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفّت الصحف»**(118).

التوحيد الحقيقي يجعل من المسلم شخصية قوية، تقف عند الحق، وتتشبث به، وتجادل دونه، وتدافع عنه، وتبذل من أجله المال والنفس والنفيس، والغالي والرخيص، وهذا هو الذي تقوم به النهضات، وتنتصر به الرسالات، ويرتفع به شأن الأمم.

المؤمنون الموحدون الأقوياء هم الذين أخلصت قلوبهم لله، وتحررت له، فلم يعد هناك أرباب أخرى، كما قال يوسف عليه السلام لأصحابه في السجن: **{يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ}** [يوسف: 39] أتعبد عددًا من الآلهة أم إلهًا واحدًا قهارًا؟!

الذين يعبدون الآلهة المختلفة تتوزع قلوبهم رغبات مختلفة، وأهواء مختلفة، لا يدري أيهم يُرضى وأيهم يُسخط، كما ضرب القرآن لنا مثلًا: **{ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ}** [الزمر: 29].

إنه مثل واضح: عبد له سيد واحد عرف ما يرضيه وما يسخطه، فلزم

---

(118) جزء من حديث ابن عباس السابق: «**يا غلام إنّي أعلمك كلمات ...**».

رضاه ففاز بقربه ومحبته، وعبد له أسياد مختلفون، وهم شركاء متشاكسون، هذا يأمره أن يذهب إلى الشرق هذا إلى الغرب، فلا يدري من يُرضي ومن يُسخط، ومن يطيع ومن يعصي.

هذا فرق ما بين الموحّد والمشرك، ما بين المؤمن وغير المؤمن، ما بين عبد الرحمن وعبد غير الرحمن.

عباد الرحمن حرروا أنفسهم من كل آلهة سوى الله، فلا يدعون مع الله إلهًا آخر، وهكذا ينبغي أن يكون المسلم، وهكذا ينبغي أن نكون.

نسأل الله عز وجل أن يجعلنا من الذين أخلصهم الله لدينه، وأخلصوا دينهم لله.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد:

فقد ورد أن في يوم الجمعة ساعة إجابة، لا يوافقها عبد مسلم يدعو الله بخير إلا استجاب له، ولعلها تكون هذه الساعة.

اللهم إنا نسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا، وأهلينا وأموالنا، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا، ونعوذ بعظمتك أن نُغتال من تحتنا.

اللهم أكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا

تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا.

{... رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ} [البقرة: 201].

{... رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ} [الحشر: 10].

اللهم انصر الإسلام وأعز المسلمين، اللهم اجعل كلمة الإسلام هي العليا، واجعل كلمة أعداء الإسلام هي السفلى.

اللهم عليك بأعدائك أعداء الإسلام أيًا كانوا، اللهم رد عن المسلمين كيدهم، وفل حدهم، وأذهب عن أرض المسلمين سلطانهم، ولا تدع لهم سبيلًا على أحد من عبادك المؤمنين.

{... رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ} [آل عمران: 147].

عباد الله: **{إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا}** [الأحزاب: 56].

وأقم الصلاة.

* * *

صفات عباد الرحمن

7- اجتناب القتل واحترام الحياة

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

لا زلنا نعيش مع «عباد الرحمن»، ولا زلنا نعيش في رحاب القرآن، مع هذه الطائفة الراضية المرضية، الذين أثنى الله تعالى عليهم في كتابه، وذكرهم لنا نموذجًا يُحتذى، ويُقتدى به فيهتدي.

ووقفنا في أوصافهم عند قول الله تعالى: **{وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا}** [الفرقان: 68].

إنهم لا يدعون مع الله إلهًا آخر، بل لا يدعون إلا الله وحده، ولا يعبدون إلا الله وحده، ولا يستعينون إلا بالله وحده، شعارهم: **{إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ}** [الفاتحة: 5].

بهذا حافظوا على الهدف الأول من رسالات الله إلى خلقه، وهو: العقيدة ... الإيمان.

ولكن الرسائل السماوية والشرائع الإلهية، لم تأت لحفظ الدين والعقيدة فحسب، إنما جاءت لحفظ الدماء والأنفس، ولحفظ الأعراض والحرمات، ولحفظ العقول، ولحفظ الأنساب، ولحفظ الأموال.

فمن هنا قرن الله هذه الصفة بصفة أخرى فقال: {... **وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ** ...} [الفرقان: 68].

والقرآن قرن القتل بالشرك لبشاعة هذه الجريمة وفظاعتها، الشرك اعتداء على الدين، والقتل اعتداء على الحياة، ومن أنت أيها الإنسان حتى تعتدي على حياة غيرك؟ هذه الحياة وديعة أودعها الله تعالى لصاحبها، فكيف تسلبها من غيرك؟! هل تستطيع أن تخلق ذبابة أو بعوضة حتى تستحل قتل نفس مؤمنة بغير حق؟! هل تستطيع أنت أن تودع الروح في أدنى مخلوقات هذه الأرض؟! كيف تجرؤ على قتل نفس وسفك دم؟!

لقد جاء الدين يحرم سفك الدماء، ولا يجيز للإنسان أن يعتدي على إنسان بغير حق، ولماذا يقتل الناس الناس؟ لماذا يقتلون الأنفس المعصومة؟ والنفس المعصومة هي نفس الإنسان المسلم، أو نفس الإنسان المعاهد.

من كان يقول: «لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله» فقد عُصم دمه وماله إلا بالحق، ومن عاهد المسلمين بعقد ذمة أو هدنة من سلطان مسلم، أو إجارة من مسلم، فلا يجوز أن يُعتدى عليه.

هذه هي النفس المعصومة فلا يجوز قتلها.

بل كل من سالم المسلمين وألقى إليهم السلم وكف يده عنهم فلا يجوز قتله كما قال تعالى: {... **فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا**} [النساء: 90].

ولكن الناس من قديم الزمان سولت لهم أنفسهم الأمارة بالسوء أن يقتل بعضهم بعضًا من أجل دنيا تافهة، أو من أجل غضب طارئ، أو من أجل

حسد أو كراهية أو بغضاء، أو تنافس على عرض من أعراض هذه الحياة، أو لغير ذلك.

حين كان الناس أسرة واحدة من أب وأم وأولادهما حدثت هذه الجريمة البشعة. قتل ابن آدم أخاه من قديم الزمان كما قص علينا القرآن: **{وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ 27 لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ** (ثم خوفه وهدده) **28 إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ** (ولكن لم ينفع فيه اللين ولا التهديد) **29 فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ}** [المائدة: 27 - 30].

في فجر البشرية ... في فجر الحياة، حيث لم يكن يعرف الإنسان كيف يواري جثة أخيه الإنسان، فهذه أول جريمة تقع على وجه الأرض، حتى بعث الله غرابًا يعلم الإنسان كيف يواري سوأة أخيه.

من قديم الزمان تعلم الناس العدوان، من قديم الناس عرف الناس الشر. ووجد في الناس الشرير الذي يقتل أخاه بغير ذنب جناه، ووجد في الناس الطيب الوديع المسالم الذي يقول لأخيه: **{لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ}**، ووجد الذي طوعت له نفسه الأمارة بالسوء قتل أخيه فقتله.

ولم يكن هناك مجتمع يهيئ له أسباب الجريمة، كما يقول الذين يزعمون أن المجرمين - كل المجرمين - ضحايا المجتمع، وأن المجتمع هو الذي

يصنع المجرم، ويدفعه للجريمة!!

ولكن ظلم الإنسان للإنسان قديم، وأنى ظلم أكبر من الإعتداء على الحياة؟

غضب الرسول الكريم على هذه الجريمة فقال: «**لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها، لأنه أول من سن القتل**»(119).

وعقب القرآن عليها فقال: **{مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا ...}** [المائدة: 32].

الإسلام لا يجيز للمسلم أن يقتل المسلم: **{وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗا ...}** [النساء: 92].

استبعد القرآن كل الاستبعاد أن يقتل المؤمن أخاه المؤمن، إلا أن يقع ذلك خطأ منه وبغير قصد. وجعل في ذلك الدية والكفَارة:

دية مسلمة إلى أهله.

وكفارة: عتق رقبة. فكما قتل إنسانًا يحاول أن يحي إنسانًا آخر، واعتبر القرآن تحرير الرقبة بمثابة الإحياء، لأن العبودية بمثابة الموت الأدبي، والحرية بمثابة حياة جديدة.

ومن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله، وهذا هو المتيسر في هذا الزمن.

الذين يقتلون خطأ بسياراتهم، بعضهم يظن أن يكفيه أن يدفع الدية، أو تدفع

---

(119) رواه أحمد والشيخان والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن مسعود، كما في «صحيح الجامع الصغير» وزيادته (7387).

شركة التأمين الدية ولا شيء عليه بعد ذلك، لا، عليه أن يصوم شهرين متتابعين توبة من الله، لو أفطر - بعد شهر أو بعد سبعة وخمسين يومًا - قبل أن يتم الشهرين، عليه أن يعيد من جديد، حتى لا يستهتر بأرواح الناس.

وبعض الذين يفعلون هذا ربما لا يعتبر قتلهم خطأ، من أمثال هؤلاء المتهورين المجانين، الذين يسيرون في الشوارع كأنما يستعرضون عضلاتهم، هؤلاء الذين لا يمشون على الأرض هونًا بسياراتهم شأن عباد الرحمن، هؤلاء الذين يقتلون الناس ويزهقون الأرواح، لا أظن قتلهم خطأ، ولا يعتبر من باب الخطأ، إنما هو من باب التعدي، ويجب أن يعاقبوا عقوبة أخرى فوق عقوبة القتل الخطأ.

لماذا يقتل المؤمن المؤمن؟!

هل في هذه الدنيا ما يستحق أن يقتل المسلم أخاه المسلم من أجله؟!

هذه الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة، فكيف يقتل الإنسان من أجلها أخاه المسلم؟! والمفروض فيه أن يحميه ويدافع عنه ويبذل نفسه من أجله، فكيف يقتله؟!

ومن هنا يقول القرآن: **{وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا}** [النساء: 93].

أنظروا إلى هذه الأجزية الكبيرة ... إلى هذه العقوبات الضخمة:

1- «فجزاؤه جهنم».

2- «خالدًا فيها».

3- «وغضب الله عليه».

4- «ولعنه».

5- «وأعد له عذابًا عظيمًا».

جهنم والخلود فيها والغضب واللعنة من الله والعذاب العظيم.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه النسائي والترمذي: «**لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم**»(120). وجاء في حديث آخر: «**لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبهم الله في النار**»(121) ، وروى ابن ماجه أن النبي صلى الله عليه وسلم طاف بالكعبة فقال: «**ما أطيبك وأطيب ريحك! ما أعظمك وأعظم حرمتك! والذي نفسي بيده لحرمة المؤمن**(122)، **أعظم حرمة منك: ماله ودمه وأن نظن به إلا خيرا**»(123)، وقال صلى الله عليه وسلم: «**كل المسلم على المسلم حرام:**

---

(120) رواه النسائي، والترمذي، من حديث عبد الله بن عمرو، وروى ابن ماجه نحوه من حديث البراء بن عازب، بإسناد حسن. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (665/2) الحديث (1446).

(121) رواه الترمذي عن أبي سعيد وأبي هريرة وقال: هذا حديث غريب، وله شواهد عند البيهقي والطبراني والأصفهاني، وقد ذكرها كلها المنذري. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (665/2) برقم (1447) وقد ذكره في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (5247).

(122) أي حرمة دمه وماله وعرضه.

(123) رواه ابن ماجه في «سننه» في كتاب «الفتن» عن عبد الله بن عمرو (3932) وقال في «الزوائد»: في إسناده مقال، نصر بن محمد - شيخ ابن ماجه - ضعفه أبو حاتم، وذكره ابن حبان في «الثقات».

دمه وماله وعرضه»(124)، وقال: «**المؤمن: من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم»**(125).

فكيف يسوغ - بعد هذه النصوص المحكمات - في عقل إنسان مسلم وفي ضميره وفي دينه أن تمتد يده بالإثم ليقتل إنسانًا بغير حق؟!

في حديث ابن مسعود الذي رواه البخاري وغيره: «**أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء»**(126)، أي أن أول ما يحاسب عليه الناس في المحكمة الإلهية يوم القيامة: الدماء ... الأنفس، وما ذلك إلا لخطرها وعظم أمرها.

ويرى عدد من الصحابة وعلماء السلف أن القاتل لا توبة له لشدة جرمه، وذلك لما روى بعضهم: «**لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا»**(127)، أي يضيق عليه دينه، أو يضيق عليه ذنبه، كما في بعض الروايات.

وروى معاوية عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**كل ذنب عسى الله أن يغفره، إلا الرجل يموت كافرًا، أو الرجل يقتل مؤمنًا متعمدًا»**(128).

---

(124) رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة، كما في «صحيح الجامع الصغير» (7242).

(125) رواه ابن ماجه وأحمد وابن حبان والحاكم عن فضالة بن عبيد، المصدر السابق (6658).

(126) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (664/2) برقم (1444).

(127) رواه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهب، ورواه الحاكم وقال: صحيح على شرطهما «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (664/2 - 665) برقم (1445).

(128) رواه النسائي، وأبو داود، وابن حبان، والحاكم وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي

كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا هذين الذنبين: ذنب الشرك والموت على الكفر، وقتل امرئ مؤمن بغير حق، ويلحق به أن يساعد على قتله، بل روى ابن ماجه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة، لقى الله مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله**»(129). قال سفيان بن عيينة - راوي هذا الحديث - : بشطر كلمة: أن يقول له «أق» - يعني لا يكمل الكلمة «أقتل»، فكيف بمن قتل؟!

لقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمة من بعده أن يرتدوا إلى عصر الجاهلية الجهلاء، فيعادي بعضهم بعضًا، ويقتل بعضهم بعضًا بغير حق، فقال في حجة الوداع أمام الجماهير المؤمنة بعد أن أمر باستنصات الناس: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»(130).

وفي رواية: «**ويلكم - أو ويحكم - لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»(131).

فاعتبر هذا من شأن الكفار لا المسلمين: أن يضرب بعضهم رقاب بعض، كما صح عنه قوله عليه الصلاة والسلام: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»(132).

«المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (666/2) الحديث (1448).

(129) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورمز له السيوطي بعلامة الضعف «الجامع الصغير» (165/2)، وانظر «فيض القدير» للمناوي (72/6) برقم (8471).

(130) متفق عليه عن جرير، كما في «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان» (44).

(131) متفق عليه عن ابن عمر، المصدر السابق (45).

(132) متفق عليه عن ابن مسعود، نفسه (43).

هناك أناس يجترئون على قتل الأنفس، ولم يبح الله قتل النفس إلا في حالات ثلاث، كما في حديث ابن مسعود في «الصحيحين»: «**لا يحل دم امرئ يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس**(133)**، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»(134).

الثيب الزاني: الزاني المحصن، من زنى وهو متزوج، وثبت عليه الزنا، أي رآه أربعة من الشهود عيانًا بيانًا وهو يرتكب الفاحشة، أو اعترف على نفسه أمام قاضي شرعي أربع مرات، فهذا يستحق القتل، وليس القتل عقوبة على مجرد الزنا، ولكن على المجاهرة به إلى حد أن يراه أربعة من الناس.

والعقوبة هنا حق الإمام ... حق ولي الأمر، فلا يجوز للفرد أن يجعل نفسه خصمًا وحكمًا، يأخذ سلطة الاتهام وسلطة القضاء وسلطة التنفيذ، يعاقب كما يشاء.

بعض الناس قتل ابنته البكر، التي غرها غار أو لعب بها شيطان فارتكبت الفاحشة، مع أن الشرع لم يعط الأقارب حق العقوبات.

الذين يفعلون ذلك لم يفعلوه غيرة على حرمات الله، لأن هؤلاء إذا زنى أبناؤهم الذكور سكتوا عنهم، وإذا زنت بناتهن قتلوهن!

فهل الزنا حلال للرجال حرام على النساء؟! الزنا حرام على الذكر

---

(133) من قتل عمدًا يقتل قصاصًا ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 179] قال البغوي: أراد أن القاتل إذا علم أنه إذا قتل يقص منه، كف عن القتل، ففيه حياته وحياة المقصود قتله. «شرح السنة» للبغوي بتحقيق الشاويش والأرناؤوط (158/10).

(134) متفق على صحته من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. «شرح السنة» (147/10) برقم (2517).

والأنثى، إذًا فهي غيرة تقليدية وليست غيرة دينية.

والزنا في حد ذاته لا يستحق القتل، إنما الزنا الذي يستحق القتل هو ما كان بالشروط التي ذكرتها، فلا يجوز للأب أن يقتل ابنته البكر إذا زنت، لأن عقوبتها في الشرع هي الجلد، وذلك لو ثبت عليها الزنا ثبوتًا قضائيًا، وليس هذا بيسير، وإذا لم يجز للأب، فمن باب أولى: لا يجوز للأخ أو غيره من العصبات، كما لا يجوز للمرء أن يجعل من نفسه قاضيًا ويقتل في جرائم لا تستحق القتل.

رأى رجل امرأته تسير مع رجل آخر فقتلها، وهو لا يعلم إن كانت ارتكبت الفاحشة أو لم ترتكب، ثم أحرق جثتها ودفنها، وقال: قد ماتت بالسكتة القلبية!

مشيها مع رجل أجنبي إثم وجريمة ولا شك في هذا، بل لا يجوز أن تخرج من بيت زوجها بغير إذنه، فضلًا عن أن تخرج مع رجل أجنبي، فهي مجرمة وخائنة ولا شك، ولكن الشرع لم يعطه حق قتلها إلا إذا وجده معها في فراشه، فدفعته الغيرة أن يفعل ذلك كما قال سعد بن عبادة رضي الله عنه(135).

والأمر الثاني الذي يبيح قتل النفس المحرمة هو: القتل العمد، فالنفس بالنفس، من قتل يقتل، وإذا عرف أنه سيقتل كف - غالبًا - عن القتل، فحفظت

---

(135) وقد قال سعد: لو رأيت رجلًا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**أتعجبون من غيرة سعد؟ لأنا أغير منه، والله أغير مني**». رواه البخاري في كتاب «النكاح» باب «الغيرة» أول الباب. انظر: «البخاري مع الفتح» (230/9) برقم (107) ط. دار الريان للتراث بالقاهرة.

بذلك حياته وحياة من يريد قتله، وفي هذا يقول الله تعالى : **{وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ}** [البقرة: 179].

وفي القصاص من القاتل المتعدي المتعمد شفاء لأنفس أولياء الدم، حتى لا يفكروا في الثأر لقتيلهم، ويقتلوا بالواحد اثنين أو أكثر، وربما قتلوا بدل القاتل ابنه أو أخاه وهو لم يقتل، كما يحدث في صعيد مصر، وفي هذا يقول الله تعالى: **{وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا}** [الإسراء: 33]، ومن حقه أن يمكنه ولي الأمر من قتل القاتل بعد أن يحكم عليه القضاء، وليس من حقه أن يكون هو الخصم، الحكم والمنفذ. كما أن من حقه أن يعفو أو يقبل الصلح بمال، كما قال تعالى **{... فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ}** [البقرة: 178].

ومما يؤسف له أن نجد الغربيين اليوم ينكرون شريعة القصاص، ويزعمون أننا بالقصاص نخسر اثنين بدل واحد، وينسون أننا بقتل الواحد نحفظ دماء الكثيرين، ولا نجرئ الناس على القتل، وهكذا نراهم يرأفون بالجاني وينسون الضحية، ويهتمون بالفرد وينسون أمن المجتمع.

والأمر الثالث المبيح للقتل: هو ترك الدين ومفارقة الجماعة، بمعنى: أن يرتد المسلم عن دينه، ويخرج على جماعتهن وينضم إلى جماعة أخرى مخالفة لها، يعطيها ولاءه، ويعادي جماعته الأصيلة، فهذا أشبه بما يسمى في عصرنا «خيانة الأمة والوطن»، ولا يعاقب ذلك من ارتد في نفسه ولم يجاهر بردته، ويدع الآخرين إلى مسلكه، فهذا حسابه على الله.

ولا بد أن يستتاب المرتد، ويناقش بالحكمة، وتزال عنه الشبهة التي دعته إلى الردة، ويرفق به، ما لم تكن ردته من النوع الغليظ المثير، ولا سيما إذا استعان بأعداء الإسلام على أمته(136).

القتل مسألة كبيرة، فلا يجوز للناس أن يقدموا عليه إلا بمحكمة ... بقضاء، يدافع فيه كل إنسان عن نفسه، ثم يقضي له أو عليه.

الإسلام حرم سفك الدماء، سواء دم المسلم أو دم غير المسلم إذا كان بينه وبين المسلمين عهد وميثاق: { **... وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ...** } [النساء: 92](137)، وجاء في حديث البخاري عن عبد الله بن عمرو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة** «أي لم يشم رائحتها» **وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عامًا**»(138).

هذا بالنسبة للإنسان المعاهد وليس بمسلم، فكيف بالمسلم؟!

حتى في الحروب المشروعة لم يجز الإسلام قتل من لا يقاتل، مثل المرأة والطفل والشيخ الكبير، بل كان الخلفاء الراشدون ينهون القادة العسكريين ان يقتلوا الرهبان الذين فرغوا أنفسهم للعبادة، وقد روى ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم وجد في بعض المغازي امرأة مقتولة، فأنكر رسول الله قتل

---

(136) انظر: البحث القيم الذي كتبه الأستاذ القرضاوي عن «عقوبة المرتد» في كتابه «ملامح المجتمع المسلم» فصل «العقيدة والإيمان» نشرته مكتبة وهبة بالقاهرة.

(137) وتتمتها: {**فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا**}.

(138) وروى نحوه النسائي «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (667/2) الحديث (1452).

النساء والصبيان[139].

الإنسان يستحق الحياة، ولا يجوز أن يعتدى عليه ولو كان طفلًا، للطفل حق الحياة واحترام النفس كالكبير تمامًا، ولذلك يجب في هذا دية كاملة وفي هذا دية كاملة، وفي هذا كفارة وفي هذا كفارة.

بل لا يجوز الاعتداء على الجنين بالإجهاض والإسقاط، وخاصة إذا كان بعد مرور أربعة أشهر، حيث تكون الجريمة فيه جريمة قتل كاملة.

إذا كان الإجهاض في الأربعين الأولى فهو أخف، ولكنه جريمة، وإذا كان بعد الأربعين الأولى فهو جريمة أكبر، ولا يجوز اللجوء إليها في الأسابيع الأولى إلا لضرورة يقدرها الأطباء الثقات المتخصصون، كخطر على صحة المرأة أو نحو ذلك، لأن حياة الأم مقدمة على حياة الجنين، وصحتها مقدمة على صحته.

بل لو نشأ هذا الجنين من حرام، لم يجز لأمه ولا غيرها الاعتداء على حياته، كما رأينا ذلك في قصة المرأة الغامدية، التي طلبت من الرسول أن يقيم عليها الحد، لأنها حبلى من زنا، فرفض ذلك حتى تضع، وبعد الوضع حتى يفطم طفلها[140]!

إلى هذا الحد يحترم الإسلام النفس البشرية.

بل لا يجيز الإسلام للإنسان أن يعتدي على حياة نفسه، أنت ملك لله، فمن أعطاك الحق أن تنتحر ... أن تقتل نفسك ... أن ترميها من شاهق ... أن

---

(139) متفق عليه «اللؤلؤ والمرجان» (1138).

(140) انظر: قصتها في «صحيح مسلم» باب «حد الزنا».

تضرب نفسك بالرصاص، كما يفعل أولئك الذين يقلدون الأفلام والتمثيليات وغيرها.

الأصل أن يصبر المسلم على الشدائد، المسلم صبور مصابر، يرضى بما قسم الله له، ويتوقع أن يفرج الله عنه الشدائد، ويعلم أن مع اليوم غدًا، وأن غدًا لناظره قريب، وأن دوام الحال من المحال، وأن مع العسر يسرًا، وأن بعد الظلام فجرًا، ولهذا لا يقدم المسلم على جريمة يقتل فيها نفسه.

وليس في الحياة ما يستحق أن يقتل الإنسان نفسه من أجله، أمن أجل حب قد فشل، أو من أجل تجارة قد كسدت، أو من أجل أمل قد خاب، يقدم الإنسان على قتل نفسه يائسًا من روح الله تعالى؟! والله تعالى يقول: **{... إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ}** [يوسف: 87]، **{قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ}** [الحجر: 56].

لهذا جاءت الأحاديث تشدد في هذا الأمر، وتنذر أبلغ الإنذار، وتتوعد أشد الوعيد، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالدًا فيها أبدًا، ومن تحسى سمًا فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده يتوجًا بها في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا**»(141).

(141) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي بتقديم وتأخير، والنسائي، وروى أبو داود نحوه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (667/2) الحديث (1453). وقوله «يتوجا بها» أي يضرب بها نفسه.

وقال عليه الصلاة والسلام: «**الذي يخنق نفسه يخنقها في النار، والذي يطعن نفسه يطعن نفسه في النار، والذي يقتحم يقتحم في النار**»(142).

وجاء في «الصحيح» أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**كان فيمن قبلكم رجل به جرح فجزع فأخذ سكينًا فحز بها يده، فما رقأ الدم حتى مات، قال الله تعالى: بادرني عبدي بنفسه، حرمت عليه الجنة**»(143).

والله تعالى يقول: {**... وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا**} [النساء: 29].

القتل حرام، وسفك الدماء حرام، بل من أكبر كبريات الحرام، حتى قال من قال من الصحابة: لا توبة للقاتل، قالوا لأن هناك حقوقًا ثلاثة.

حق الله تعالى: وهذا تنفع فيه التوبة.

وحق أولياء الدم: أهل المقتول وورثته، وهؤلاء يمكن أن يسقطوه بالعفو أو بأخذ الدية أو بالصلح.

وبقى حق المقتول نفسه: وقد جاء في الأحاديث: «**يأتي المقتول متعلقًا رأسه بإحدى يديه، متلببًا قاتله باليد الأخرى، تشخب أوداجه دمًا حتى يأتي به العرش، فيقول المقتول لرب العالمين: هذا قتلني، فيقول الله عز وجل للقاتل: تعست، ويذهب به إلى النار**»(144).

---

(142) رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (668/2) الحديث (1454).

(143) رواه البخاري في كتاب «الأنبياء» باب «ما ذكر عن بني إسرائيل»، من حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه.

(144) من حديث ابن عباس رضي الله عنه، رواه الترمذي وحسنه، والطبراني في «الأوسط» ورواته رواة الصحيح، واللفظ له، والحديث كان جوابًا من ابن عباس لمن

وقال الآخرون: إذا تاب توبة نصوحًا ورضي عنه أولياء الدم، فإن الله جدير أن يرضي عنه القاتل يوم القيامة، وهو أهل التقوى وأهل المغفرة، وهذا هو الصحيح والراجح إن شاء الله.

هذا ما جاء به الإسلام - أيها الإخوة - : لا تقتل، ولا تشارك في القتل ولو بشطرة كلمة.

بل جاء في الحديث: «**لا يشهد أحدكم قتيلًا، لعله أن يكون مظلومًا، فتصيبه السخطة**» رواه أحمد واللفظ له، والطبراني إلا أنه قال: «**فعسى أن يكون مظلومًا، فتنزل السخطة عليهم، فتصيبه معهم**»(145).

وقال عليه الصلاة والسلام: «**من جرد ظهر مسلم** «يعني: ليضربه» **بغير حق، لقي الله، وهو عليه غضبا**»(146)، وذلك ليعيش المسلم مصدر سلام للناس من حوله، فالمسلم الحق من سلم الناس من يده ولسانه.

لا تقتل، ولا تؤذ أحدًا ولا تشهد مشهد قتل أو ظلم.

هناك أناس جلادون لا يبالون بحرمات الخلق، وحقوق الإنسان، أناس

سأله: يا أبا العباس هل للقاتل من توبة؟ فقال ابن عباس كالمعجب من شأنه: ماذا تقول؟ فأعاد عليه مسألته، فقال ماذا تقول مرتين أو ثلاثًا، ثم ذكر له الحديث «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (666/2) الحديث (1449).

(145) قال المنذري في «الترغيب والترهيب» رواه - عن خرشة بن الحر رضي الله عنه أحمد والطبراني، ورجالهما رجال الصحيح خلا ابن لهيعة «المنتقى» (1459) وقال الهيثمي: فيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وفيه ضعف، وبقية رجالهما رجال الصحيح «مجمع الزوائد» (284/6) و(300/7).

(146) قال المنذري: رواه الطبراني في «الكبير والأوسط» بإسناد جيد - عن أبي أمامه - «المنتقى» (1460) وكذا قال الهيثمي (253/6).

طالما سفكوا الدماء، وعذبوا خلق الله.

لقد رأينا أناسًا أمسكوا بأيديهم الكرابيج والسياط، وأمسكوا بأيديهم أدوات التعذيب، ومازالا يعملون فيها طوال الليل، في أجسام غضة، وظهور طالما انحنت لله تعالى راكعة، وأعضاء لم تعرف إلا السجود لله، حتى خروا قتلى من التعذيب، رأينا هذا والله بأم أعيننا.

رأينا الذين قتلوا ثم دفنوا في جنح الليل، ولم يعرف أحد أين ذهبوا، وجاء أهلوهم ليزوروهم في السجون والمعتقلات، فقيل لهم: أفرج عنهم!

يا ويل هؤلاء الجلادين!! ألم يقرأوا آيات القرآن؟ ألم يقرأوا أحاديث محمد صلى الله عليه وسلم؟ ألم يعرفوا أن للنفس حرمتها، وأنه لا يجوز قتل هرة بغير حق، فإن امرأة دخلت النار في هرة حبستها(147) حتى ماتت، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تاكل من خشاش الأرض(148).

نسأل الله عز وجل أن يهيئ لنا من أمرنا رشدا، وأن يوفق المسلمين إلى حقن دمائهم، بدل هذه الحروب التي تسفك فيها الدماء لسبب ولغير سبب، ولحق ولغير حق.

نسأل الله أن يعصم هذه الدماء ويحقنها ويصونها، ويوفق من المسلمين من

---

(147) فكيف بمن يسجن ويعذب ألوف المؤمنين؟!

(148) عن ابن عمر رضي الله عنهب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض**». وفي رواية: «**عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، لا هي أطعمتها وسقتها، إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض**» رواه البخاري وغيره «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (628/2) برقم (1333).

يقوم على حقنها.

استغفروا ربكم إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة:

كتبت إلى إحدى الأخوات - ولعلها من المصليات في المسجد أو من المستمعات في البيوت - تقول: لماذا توجه كلامك إلى الرجال دون النساء، ولا تخصنا نحن بحديث كالرجال، وتطالبني أن أتحدث عن بر الأمهات وعقوقهن، لما ترى من كثرة العاقين من الأبناء والبنات.

وأحب أن أقول: إن هذه الخطب والأحاديث ليست موجهة للرجال وحدهم، إنها للرجال وللنساء جميعًا، إن الله تعالى حينما يقول: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ}** - وإن كانت الواو هنا للجماعة الذكور كما يقول النحويون - فهذا خطاب للمؤمنين والمؤمنات جميعًا.

كل ما في القرآن وفي السنة من أوامر ونواهي وتوجيهات فهو للجنسين معًا، ولذلك فالكلام للجميع.

إذا تحدثنا عن الشرك والبراءة من الشرك، فالحديث يعم الرجال والنساء، إذا قلنا: **{وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ ...}** [الفرقان: 67]. فهذا للرجال والنساء.

كل الصفات هذه يشترك فيها الرجال والنساء، إلا ما كان من خصوصيات الرجال ومن خصوصيات النساء.

فليفهم هذا جيدًا.

أما حديث البر والعقوق، فهو حديث يحتاج إلى خطبة مستقلة أو أكثر من خطبة، ولكني أحب أن أقول شيئًا سريعًا:

إن بر الوالدين في نظر الإسلام يأتي بعد توحيد الله تعالى ، فالقرآن يقول: **{وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا ...}** [النساء: 36]، **{وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا ...}** [الإسراء: 23]، **{... أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ}** [لقمان: 14].

وجعل عقوق الوالدين من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله تعالى، وليس من الكبائر فقط بل من أكبر الكبائر(149)، والعاق لوالديه لا يشم رائحة الجنة.

العقوق من أكبر المحرمات في الإسلام، وبخاصة عقوق «الأمهات»: **«إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات ...»**(150).

خص «الأمهات» بالذكر، مع أن عقوق الآباء - أيضًا - محرم، ولكن الأبناء قد يجترئون على الأمهات ما لا يجترئون على الآباء، ولأن حق «الأم» في البر أكبر من حق الأب(151)، ولهذا لما سئل النبي صلى الله عليه

---

(149) كما ثبت في حديث أبي بكرة الذي رواه البخاري، ومسلم، والترمذي: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**» ثلاثًا. قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين**» وكان متكئًا فجلس، فقال: «**ألا وقول الزور، وشهادة الزور**»، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (680/2) الحديث (1491).

(150) رواه البخاري - وغيره - عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، وتتمته: «**ومنعًا وهات، وكره. لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**». «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (680/2) برقم (1490).

(151) ويقول الحافظ ابن حجر: قيل خص الأمهات بالذكر، لأن العقوق إليهن أسرع من

وسلم: «**من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك**»(152).

وقال في حديث آخر: «**إن الله تعالى يوصيكم بأمهاتكم، إن الله تعالى يوصيكم بأمهاتكم، إن الله تعالى يوصيكم بأمهاتكم، إن الله تعالى يوصيكم بآبائكم، إن الله تعالى يوصيكم بآبائكم، إن الله تعالى يوصيكم بالأقرب فالأقرب**»(153).

فحق الأم حق عظيم، ومن هنا لما ذكر القرآن الإحسان بالوالدين {**وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا**} [الأحقاف: 15]، {**حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ...**} [الأحقاف: 15]، {**حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ ...**} [لقمان: 14].

فالأم هي التي تعبت، الأم هي التي سهرت، الأم هي التي عانت من الحمل والطلق والوضع.

ولهذا روى البزار: أن رجلًا كان يطوف بالكعبة وهو يحمل أمه على كتفه، فرآه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أأوفيت لها حقها؟

الآباء لضعف النساء، ولينبه على أن بر الأم مقدم على بر الأب في التلطف والحنو ونحو ذلك. «فتح الباري»، كتاب الاستقراض (83/5) ط. دار الريان بالقاهرة.

(152) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه «رياض الصالحين» للنووي، باب: «باب الوالدين وصلة الرحم»، و«صحابتي» بمعنى: صُحبتي.

(153) رواه البخاري في الأدب، وابن ماجه، والطبراني في «الكبير»، والحاكم، عن المقدام رضي الله عنه، ورمز له السيوطي بالحسن، وذكره في «صحيح الجامع الصغير» (1924).

فقال صلى الله عليه وسلم: «**لا، ولا بزفرة واحدة**»[154]، أي ولا بزفرة من زفرات الطلق وألم الوضع.

وقال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن أمي بلغت من الكبر والوهن أنها صارت لا تقضي حاجتها إلا وظهري لها مطية، هل أديت حقها؟ قال: لا، إنها كانت تفعل بك ذلك وأنت صغير وتتمنى لك عمرًا طويلًا، أما أنت فتفعل بها ذلك اليوم وأنت تنتظر موتها غدًا أو بعد غد.

روى معاوية بن جاهمة أن أباه جاهمة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله أردت أن أغزو، وقد جئت استشيرك، فقال: «**هل لك من أم؟**» قال: نعم، قال: «**فالزمها، فإن الجنة عند رجلها**»[155].

وعن أنس رضي الله عنه قال: أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: إني اشتهي الجهاد ولا أقدر عليه، قال: «**هل بقي من والديك أحد؟**» قال: أمي، قال: «**قابل الله في برها، فإذا فعلت ذلك فانت حاج ومعتمر ومجاهد**»[156].

---

(154) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسير سورة الإسراء (35/3) ط. الحلبي، من رواية الحافظ البزار في «مسنده» عن بريدة، وفي سنده الحسن بن أبي جعفر ضعيف، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (137/8).

(155) رواه النسائي، واللفظ له، وابن ماجه، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (676/2) برقم (1475).

(156) رواه أبو يعلى، والطبراني في «الصغير والأوسط» وإسنادهما جيد، وقال الهيثمي: رجالهما رجال «الصحيحن» غير ميمون بن نحبيح، وقد وثقه ابن حبان (138/8)، وانظر تعليق الشيخ عليه في كتابه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (675/2 - 676) برقم (1474).

الأم هي التي توصلك إلى الجنة إن رضيت، أو توصلك إلى النار إن سخطت.

جاء في حديث الترمذي بسند ضعيف عن علي رضي الله عنه: «**إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء** «من هذه الخمسة عشر»: **... وأطاع الرجل زوجته، وعق أمه، وبر صديقه، وجفا أباه ...**»(157).

أنظروا:

«وأطاع الرجل زوجته وعق أمه»: الأم التي تعبت فيه وعانت من أجله، ولعلها ترملت أو تأيمت عليه، وحرمت نفسها حياة طويلة، ومع هذا يأتي هذا الإنسان ليؤثر عليها زوجته، ليس معنى هذا أن يسيء الإنسان معاملة زوجته، لا، ولكن لا يجوز أن يسمع وساس زوجته - وبعض الزوجات موسوسات لا يحببن الأمهات - ويطيعها ويعق أمه. «وبر صديقه وجفا أباه»: تراه حلو المعاشرة، حسن الخلق، لين الطباع من أصدقائه، غليظًا جلفًا جافيًا مع أبيه.

بهذا ينزل البلاء بالأمة، فاتقوا الله أيها الناس في آبائكم وأمهاتكم.

إياك أن تجعل بينك وبين الجنة حجابًا إذا اسخطت أمك أو أباك.

---

(157) ونصه كاملًا: «**إذا فعلت أمتي خمسة عشرة خصلة حل بها البلاء: إذا كان المغنم دولًا، والأمانة مغنمًا، والزكاة مغرمًا، وأطاع الرجل زوجته، وعق أمه، وبر صديقه، وجفا أباه، وارتفعت الأصوات في المساجد، وكان زعيم القوم أرذلهم، وأكرم الرجل مخافة شره، وشربت الخمور، ولبس الحرير، واتخذت القينات والمعارف، ولعن آخر هذه الأمة أولها، فليرتقبوا عند ذلك ريحًا حمراء أو خسفًا أو مسخًا**». «الجامع الصغير» (32/1)، وانظر شرحه «فيض القدير» (1/409 - 410) برقم (774).

أرض والديك مهما كانا، حتى لو كانا مشركين: **{وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}** [لقمان: 15].

أي دين يحث على البر إلى هذا الحد؟!

واحذر أن يسلط الله عليك أبناءك، فبر الوالدين «**سلف: بروا آباءكم تبركم أبناؤكم**»(158).

نسأل الله عز وجل أن يفقهنا في ديننا، وأن يهيئ لنا من أمرنا رشدا.

اللهم اغفر لنا ما مضى، وأصلح لنا ما بقى.

اللهم اجعل يومنا خيرًا من أمسنا، واجعل غدنا خيرًا من يومنا، ووفقنا لما تحب وترضى.

اللهم اجمع كلمة المسلمين على الهدى، وقلوبهم على التقى، ونفوسهم على المحبة فيك، وعزائمهم على عمل الخير وخير العمل.

اللهم ألف بين قلوب المسلمين، واصلح ذات بينهم، ووافقهم على حقن دمائهم، وجندهم جميعًا للجهاد في سبيل دينك، وابتغاء مرضاتك.

{... رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [الحشر: 10].

{... رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ

---

(158) رواه الطبراني بإسناد حسن، عن ابن عمر رضي الله عنهب، وتتمته: «**وعفوا تعف نساؤكم**». «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (677/2) الحديث (1480).

ٱلۡكَٰفِرِينَ} [آل عمران: 147].

وصـل اللهـم علـى نبيـك وعبـدك ورسـولك محمـد، وعلـى آلـه وصـحبه أجمعين.

{إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَـهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا} [الأحزاب: 56].

وأقم الصلاة.

* * *

صفات عباد الرحمن

8- اجتناب الزنا

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

لا زلنا نعيش في رحاب القرآن ومع عباد الرحمن الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه.

تحدثنا عن «عباد الرحمن» وأخلاقهم وأوصافهم، في ليلهم ونهارهم، مع أنفسهم ومع ربهم ومع الناس.

تحدثنا عن صفاتهم إذا مشوا على الأرض هونًا، تحدثنا عن معاملتهم مع من جهل عليهم، تحدثنا عن أخلاقهم في مالهم إذا أنفقوا، ثم تحدثنا عنهم في صفاتهم الأخرى، حينما حرروا أنفسهم من كل ما يسخط الله تعالى ، حينما ساروا على منهج مستقيم يخالفون به مناهج الكفر والنفاق، فليسوا ممن يشرك بالله شيئًا، ولا ممن يستهين بحياة البشر.

واليوم نتحدث عن صفة أخرى داخلة في المنهيات، وهي اجتناب الزنا، فعباد الرحمن: {**... لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا 68 يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا 69 إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا ...**} [الفرقان: 68 - 70].

أيها الإخوة:

حافظ الإسلام على الدين والعقيدة، فحرم الشرك أكبره وأصغره، جليه وخفيه، وحافظ الإسلام على النفس، فحرم القتل وكل ما يؤذي النفس.

وحافظ الإسلام عل العرض وعلى النسب، فحرم الزنا، وكان من صفات عباد الرحمن: أنهم لا يزنون ولا يتورطون في هذه الكبيرة التي نهى الله تعالى عنها. حينما قال **{وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ}** أي لا تزنوا ولا تفعلوا ما يؤدي إلى الزنا، **{إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا}** [الإسراء: 32].

ومن هنا نهى الإسلام عن الزنا، ونهى عن كل ذريعة توصل إليه أو تقرب منه، فحرم الخلوة بالمرأة الأجنبية، وحرم النظرة بشهوة، وحرم التبرج بالزينة، وحرم من الوسائل كل ما يغري الناس بالفاحشة، ما ظهر منها وما بطن، وعمل على تطهير البيئة الإسلامية من أسباب الإغراء والفساد، حتى يحصن الفتى المسلم والفتاة المسلمة، فليس من الإسلام أن تترك البيئة تغري بالإثم وتغري بالفاحشة، وتضع الشاب - أو الشابة - في اللهب، ثم تقول له: لا تحترق.

جاء الإسلام ينهي عن كل ما يؤدي إلى الزنا، فبدأ بتربية الفرد على أن يعف نفسه ... أن يحصن فرجه ... أن يغض بصره، سواء كان رجلًا أو امرأة، يقول الله تعالى: **{قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ 30 وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ...}** [النور: 30، 31] إلى آخر الآية الكريمة.

أمر الإسلام المسلم أن يستعف حتى يجد القدرة على الزواج الحلال:

{وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ ...} [النور: 33] ومن يستعف يعفه الله، ومن يتصبر يصبره الله.

وأمر الإسلام أن تطهر البيئة من كل ما يغري بالفواحش، فلا يجوز أن تظهر في المجتمع المسلم صورة عارية أو شبه عارية، أو أغنية ماجنة، أو أدب مكشوف، أو قصة داعرة، أو تمثيلية فاجرة، أو شيء من هذا الذي نراه في مجتمعاتنا اليوم.

لا يجوز أن يظهر في الشارع المسلم لحم رخيص يعرض في الأسواق، ويغري الشباب بالإثم، لا يجوز أن يكون هذا في مجتمع مسلم.

حرم الإسلام الزنا واعتبره من كبائر الإثم، حرمه لماذا؟ حرمه الله تعالى لمصلحة الناس، ليس لله حاجة في أن يحلل أو يحرم، إن الله لا تنفعه طاعتنا ولا تضره معصيتنا، وإنما يحلل الطيب ويحرم الخبيث، يبيح النافع ويحرم الضار، يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، فإذا حرم الزنا فإنما هو لحماية الإنسان ... لتزكية الإنسان ... للسمو بالإنسان. إنه يريد أن يحمي إيمان المؤمن، فلا يكون عبدًا إلا لله تعالى ، لا عبدًا للغريزة، ولا عبدًا للشهوة، ولا عبدًا لامرأة، ولا عبدًا لشيء، إلا أن يكون عبدًا لله تعالى .

حرم الإسلام الزنا ليبقى المؤمن خالصًا لله، لا لشيء آخر، ومن هنا جاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في «الصحيحين»: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ...**»(159)، لأنه في حالة الزنا ينزع منه الإيمان،

---

(159) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وتتمته: «**ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر**

فالإيمان سربالٌ يسربله الله من يشاء[160]، فحينما يزني ينخلع عنه هذا السربال، ويكون عليه كالظلة - كما جاء في الحديث[161] - فإذا قلع وتاب رجع إليه سربال الإيمان.

إنه يريد أن يحمي المؤمن، ويريد أن يحمي أخلاقه، لا يريد أن يكون المؤمن كالحيوان يفعل ما يشتهي، بل يفعل ما ينبغي، إنما سمي «العقل» عقلًا، لأنه يعقل الإنسان ويقيده - كالعقال أو القيد - فيجعله يفكر قبل أن يقدم على الأمر.

أما الذين يفعلون ما تحلو لهم أنفسهم، وما تزين لهم شهواتهم، وما توسوس لهم شياطينهم، دون أي رادع أو زاجر، فقد انخلعوا من الإنسانية إلى الحيوانية.

الحيوان الهابط هو الذي يفعل ما يشتهي، أما الإنسان العاقل فهو الذي يفعل ما ينبغي، ومن هنا يريد الإسلام للمسلم أن يرتقي بإنسانيته، فلا يكون كالحيوان الذي تسيره الغريزة.

حين يشربها وهو مؤمن»، وزاد مسلم في رواية، وأبو داود: «**ولكن التوبة معروضة بعد»**، وفي رواية النسائي: «**فإذا فعل ذلك فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، فإن تاب تاب الله عليه»**، قال الشيخ القرضاوي معلقًا على الحديث: نفي الإيمان هنا يعني نفي الكمال لا نفي الأصل، وذلك لتتفق النصوص بعضها مع بعض، ولتتفق مع الواقع أيضًا، فالإيمان لا يزول بالكلية بمجرد الوقوع في المعصية، واللغة تتسع لهذا التأويل بغير تكلف، انظر: «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (651/2) برقم (1399).

(160) أي: قميص يلبسه الله من يشاء.

(161) الذي أخرجه أبو داود، والحاكم بسند صحيح كما قال الحافظ ابن حجر في الفتح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ونص: «**إذا زنى أحدكم خرج منه الإيمان وكان عليه كالظلة، فإذا انقلع رجع إليه الإيمان**». انظر: «شرح السنة» للبغوي: (90/1).

لقد انتهت الغريزة بأقوام من الناس إلى أن أصبحوا يتسافدون في الطرقات، كما تتسافد الحمير والبهائم، لا يتورعون عن شيء، ولا يخجلون من شيء.

وأصبحت هذه المناظر تباح في صحف ومجلات، وتعرض في أفلام ومسلسلات في بلاد شتى، وهناك من الناس - للأسف - من يدخل هذه الأفلام وهذه المجلات - اختلاسًا وسرقة - إلى مجتمعات المسلمين.

أصبحت التجارة بالجنس تجارة رابحة في كثير من البلدان، تباع بالملايين وعشرات الملايين، وأكثر ما تصدر تصدر إلى ما يسمونه «البلاد النامية» لإفسادها وتدميرها، وإفساد شبابها ورجالها وبناتها.

هناك أفلام وصور ومجلات محرمة في ديارها وعلى أهلها، ولكنها تصدر من أوربا وغيرها إلى بلاد شتى، وأثبتت الإحصاءات أنهم يكسبون من ورائها عشرات الملايين، ومئات الملايين.

الإسلام يريد أن يحمي إيمان المسلم، ويحمي أخلاقه، ويريد أن يحمي صحته أيضًا، فإن هذه الغريزة إذا أطلق لها العنان، أصبح الإنسان لا يتورع عن شيء، إنه يغدو ويروح حيث شاء، يتنقل كما يحلو له، فكل يوم مع امرأة أو مع فتاة، والفتاة كل يوم مع شاب أو مع رجل.

وهكذا توجد الأمراض التناسلية، وتتعرض الصحة للخطر، وتنتقل العدوى كما تنتقل النار في الهشيم.

وقد ظن هؤلاء الناس يومًا أنهم استطاعوا أن يقاوموا الأمراض الجنسية

كالزهري[162]، والسيلان[163]، وغيرهما من الأمراض القديمة، فجاءت لهم أمراض حديثة ما كان لهم بها من علم، وما توقعوا أن يحدث مثلها، فوقفوا أمامها حيارى عاجزين.

مرض «الهربيس»: مرض انتشر في أوربا وأمريكا، حتى أعلنت بعض المجلات المتخصصة التي تعني بمثل هذه الأمور: أن خمسة وعشرين مليونًا في أمريكا وأوربا مصابون بهذا المرض، الذي يفقد الجسم المناعة، فلا يعود يقاوم مرضًا، فقد وضع الله في الأجسام من التحصينات ما يمنعها من غزو الأمراض الخبيثة والمعدية، وضع الله «عساكر» في داخل الجسم البشري تحمي الإنسان من الغزو الخارجي.

هذا المرض يفقد الجسم هذه المناعة وهذه الحصانة، فلا يقدر على مقاومة مرض من الأمراض، وإذا أصيب بأي شيء سقط، هذا المرض يجعل الإنسان يفكر في الانتحار، ويرغب في التخلص من البقاء[164]، هذا المرض

---

(162) هذا المرض تسببه جرثومة تقوم بخرق الجلد في منطقة ضعيفة، وتنتقل من مريض إلى آخر أثناء الاتصال الجنسي المحرم، ثم تظهر أولى علامات المرض على شكل قرحة، ويصبح المرض في تلك الحالة معد جدًّا، وتستمر مدة العدوى لتصل أحيانًا إلى خمس سنوات.

(163) وهو من أكثر الأمراض المعدية انتشارًا، ويعد من أهم الأسباب التي تؤدي إلى العقم، ونسبة كبيرة من النساء المصابات به لا تظهر عليهن علامات هذا المرض، في حين أنهن معديات جدًا لكل من يتصل بهن جنسيًا، أما أعراضه عند الرجل فتبدأ بألم في الإحليل، يتبعه سائل صديدي أصفر يبدأ بالتقاطر من فتحة القضيب، ويشعر المريض بضيق وحرقان عند التبول.

(164) أو يتمنى أن ينتقل مرضه إلى أكبر عدد من الناس نتيجة الحقد والقلق والهلع.

له مظاهر وأعراض شتى[165]، يشعر صاحبه بحالة مثل حالات البرص.

وهناك - كما ذكر العلماء - ثمانية وعشرون نوعًا من أنواع الأمراض الجنسية والتناسلية، آخرها وأخطرها المرض الذي يسمونه «الإيدز»[166]، وهو يصيب الزناة والزانيات، كما يصيب الذين يصابون بالشذوذ الجنسي من الرجال أو النساء.

هذه الأمراض الخطيرة سلطها الله على الناس، جزاء خروجهم عن الفطرة التي فطر الناس عليها، وجاءت بها النبوات والرسالات جميعًا، هذه الفطرة: أن يختص الرجل بامرأة عن طريق الزواج، ليكونا الأسرة التي هي نواة المجتمع.

---

(165) تبدأ أعراضه عند الرجال بالشعور بالحكة، فتتهيج المنطقة، ثم تظهر البثور والتقرحات على القضيب، وعلى منطقة الشرج عند الذين يفعل بهم الفاحشة، ثم تكبر البثور ويزداد ألمها وتتآكل فتلتهب، وربما يمتد الإلتهاب إلى الفخذ والعانة، فتتضخم الغدد الليمفاوية وتصبح مؤلمة جدًا، أما عند المرأة فيأخذ هذا المرض أشكالًا خطيرة، حيث يتهيج الفرج والمنطقة المحيطة به، كما يلتهب عنق الرحم التهابًا شديدًا، ويسبب ألمًا حادًّا.

(166) مما يذكر للشيخ القرضاوي: أنه نبه على خطورة هذا المرض منذ بداية ظهوره، وقبل انتشار الحديث عنه، و«الإيدز» حروف للكلمات تدل على مرض هو: «نقص المناعة الطبيعية والمكتسبة لدى الإنسان»، والأسباب الرئيسية لانتقال فيروس هذا المرض هي: الشذوذ الجنسي، والزنا، والمخدرات عن طريق استعمال حقن المصابين، أما أعراضه فكثيرة منها: إنهاك شديد يستمر عدة أسابيع دونما سبب معروف، تضخم في الغدد الليمفاوية، نقص شديد في الوزن، ارتفاع في درجة الحرارة، سعال جاف، صعوبة في التنفس، التهابات في الفم والحلق، إسهالات شديدة ومزمنة، ظهور الإنتانات الانتهازية التي تكون السبب المباشر للموت، وليس كل من أصيب بفيروس «الإيدز» تظهر عليه أعراض المرض، وإن أصبح معديًا لغيره، بل نسبة الذين تظهر عليهم أعراضه قليلة جدًا إذا ما قورنت بالذين لا تظهر عليهم، وهنا يكمن الخطر.

عاقبهم الله بهذه الأمراض، وهذا ما حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم حينما قال في حديث ابن عمر: «**يا معشر المهاجرين، خمس خصال إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن** «وكانت أولى هذه الخصال»: **لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا ...**»(167).

أنظروا: كان النبي صلى الله عليه وسلم ينظر من وراء الغيب إلى هذا العصر الذي نعيش فيه، ويخير بما وقع.

«**لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها**»: الفاحشة موجودة من قديم الدهر، وليس الخطر في وجودها، إنما الخطر في انتشارها ... إنما الخطر في ظهورها علانية، ولا ينكر المنكر، كما نرى ذلك في البلاد الغربية، وكما نرى بعض شرره يتطاير إلى بعض البلاد الإسلامية، والناس سكوت غافلون. «**إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا**»: والعجيب أن الغربيين يسمون «الإيدز» الطاعن الأبيض، فهو من الأوجاع الحديثة ... لم تكن الأجيال السابقة تعرف هذه الأمراض، ورغم تقدم الطب وتقدم العلم وتقدم التكنولوجيا، لم يستطيعوا أن يجدوا لهذه الأمراض دواء.

وستظهر أمراض وأمراض مادام الناس يحيدون عن منهج الله الذي رسمه لعباده، وفيه الخير كل الخير.

---

(167) رواه ابن ماجه - وهذا لفظه - والبزار والبيهقي بنحوه، ورواه الحاكم وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، انظر: «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» الحديثان (399، 1433).

الإسلام حينما حرم الزنا حرمه لمصلحة الإنسان الفرد، وحرمه لمصلحة الأسرة ... لتتكون الأسرة ... لتوجد هذه الخلية ... ليوجد هذا الأساس لبناء المجتمع، لينسد الطريق أمام الإنسان فلا يجسد تفريغًا لشهوته إلا في الطريق الحلال.

لم يكن الإسلام ضد الغريزة الجنسية، ليست نظرة الإسلام كنظرة بعض الأديان الأخرى التي تعتبر الغريزة الجنسية في ذاتها نجسًا، أو رجسًا من عمل الشيطان.

الغريزة ركبها الله في الإنسان لحكمة، لتكون سوطًا يسوق النوع البشري إلى طلب النسل ... إلى الزواج، لتعمر الأرض، ويستمر بقاء هذا النوع إلى ما شاء الله تعالى .

لكل غريزة من الغرائز التي جبل عليها الإنسان حكمة، وهذه الغريزة النوعية أو الجنسية - هي التي من ورائها بقاء النوع والجنس - لم يقف الإسلام ضدها على طول الخط، لا، ولم ير إطلاق العنان لها على طول الخط، كما ترى المذاهب الإباحية وفلسفات هذا العصر المادية والحسية.

وإنما يرى الإسلام أن توضع هذه الغريزة حيث أراد الله تعالى وحيث أمر الله، وأن يبحث الإنسان عن طريق الحلال بالزواج، لتنشأ الأسرة المسلمة التي تتكون في ظلالها عواطف المحبة والأخوة والإيثار والتعاون، ومنها ينشأ المجتمع الصالح.

ومن هنا حرم الإسلام الزنا وأباح الزواج، حرم السفاح وشرع النكاح، حتى أن بعض علماء المسلمين يعتبرون الزواج فريضة على القادر: «**يا**

معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ...»(168) وهذا أمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم، والله تعالى يقول: **{وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ...}** [النور: 32].

حمى الإسلام الأسرة، وحمى الأنساب أن تختلط، فإنه إذا أبيح الزنا لا يعرف المرء: أحملت زوجته منه أم حملت من غيره؟ أهذا الذي يربيه ابنه أم ابن رجل آخر؟ وبذلك يقع الشك، وتفقد الثقة من الناس، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: **«لا تزال أمتي بخير ما لم يفش فيهم ولد الزنا، فإذا فشا فيهم ولد الزنا فأوشك أن يعمهم الله بعذاب»**(169)، إذا فشا أبناء الحرام هنالك تختلط الأنساب، وفي هذا دلالة على أن الأمة قد تفككت عراها، وتمزقت روابطها، وانتشرت الخيانة الزوجية.

الإسلام حرم الزنا حماية للفرد، وحماية للأسرة، وحماية للمجتمع كله، حتى يكون مجتمع طهارة ونقاء، لا تشغله الشهوات عن الواجبات، ولا يركض وراء الغرائز، وإنما يتبع نداء العقول، إنه مجتمع إنساني وليس بمجتمع حيواني، كتلك المجتمعات التي يظنون أنها راقية، وهي اليوم تشكو مما أصابها، الجمعيات الطيبة تصرخ وتنادي: انقذوا المجتمع ... انقذوا

---

(168) رواه البخاري، ومسلم، واللفظ لهما، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وتتمته: **«ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»** والباءة ما يلزمه من القدرة على مؤن الزواج ونفقاته «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (549/2 - 550) برقم (1095).

(169) رواه أحمد وإسناده حسن، من حديث ميمونة رضي الله عنها، ورواه أبو يعلى والطبراني بنحوه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (658/2)، الحديث (1421).

الصحة ... انقذوا الأخلاق من الانهيار، بعد أن أبيحت الشهوات وعب الناس منها ما شاؤوا.

كان بعض الناس في بعض الأوقات يقولون: ما هذا التعقيد؟ ما هذه القيود؟ اتركوا للناس الحرية، افتحوا النوافذ، دعوا الرجل يستمتع بالمرأة، ودعوا المرأة تستمتع بالرجل، حلوا العقد، ما هذا الكبت؟ وما هذه القيود والعراقيل؟ إنكم لو فعلتم ذلك انحلت العقدة، ولم يعد هناك كبت ولم تعد هناك شكوى!!.

فهل هذا صحيح؟

إنهم فعلوا ذلك، إنهم تركوا الحبل على غاربه للفتى والفتاة، تختار رفيقها ويختار رفيقته، لم يعودوا يحرمون شيئًا، فهل حلوا العقدة؟ هل عولجت المشكلة؟ أم ازدادت تعقيدًا؟.

أجل، ازدادت - والله - تعقيدًا.

لم تحل المشكلة، كم من فتى عندهم يبحث عن فتاة فلا يجد، لأن الفتاة تبحث عن الأجمل أو الأقوى أو الأغنى أو الأهم، ولكن الأضعف قوة، أو الأدنى منزلة، أو الأفقر مالًا، أو الأقل وسامة، لا يجد من ترضى به، فماذا يصنع؟

إنه يعيش في كبت وقلق وحيرة وأسى، قد يؤدي به إلى الانتحار.

والفتاة غير الجميلة وغير الشابة لا تجد من يرضى بها، فماذا تفعل؟ والفتاة الجميلة الوسيمة يتهافت عليها الشباب، ويقاتل بعضهم، حتى إنهم ليخطفونها وقد يقتلونها إذا لم يظفر أحدهم بها!

لم يحل القوم المشكلة، إنهم كلما ازدادوا شربًا ازدادوا عطشًا، إنها مصيبة لا تحل إلا بالحل الإلهي ... إلا بالزواج ... إلا بالأسرة، هذا هو حل الإسلام: النكاح لا السفاح.

البلاد التي فيها حرية الحب، أو الحرية الجنسية - كالسويد والنرويج وغيرها - هي أكبر البلاد نسبة في الانتحار، ومعظم أسباب الانتحار من هذه النواحي.

بلاد بلغت القمة في الناحية المادية والضمانات الاجتماعية، للطفل - هناك - منذ أن يولد إلى أن يموت ضمانات: للأمومة، والولادة، والشيخوخة، والمرض، والحوادث، وغير ذلك، فلماذا ينتحرون؟!

إنهم فقدوا الإيمان، وفقدوا الأخلاق، فلم يركنوا إلى ركن ركين، ولا إلى حصن حصين، فلأدنى شيء يتهاوون وينتحرون.

الإسلام حفظ المجتمع من هذا، جاء عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله**»(170).

«الزنا»: إشارة إلى فساد الحياة الخلقية.

و«الربا»: إشارة إلى فساد الحياة الاقتصادية.

من هنا ينبغي أن يتبع الناس منهج الله في حياتهم الخلقية، وحياتهم

---

(170) رواه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (535/2) برقم (1061).

الاجتماعية، وحياتهم الاقتصادية، وحياتهم السياسية، فليس هناك أعدل من منهج الله {**... وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ**} [المائدة: 50].

لا يجوز لنا نحن المسلمين أن ندع ديننا، ونسير وراء الغربيين، شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، فإذا خرجت «مودة» من «الموديات» اتبعناها بلا عقل، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**... حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم ...**»(171)، على ما في جحر الضب من السوء وكراهية الرائحة والضيق والظلمة والالتواء، لو دخلوا حجر ضب لصار جحر الضب «مودة» يتبعها الناس.

يا أيها الإنسان المسلم:

احفظ فرجك، وغض بصرك، ولا تتبع خطوات الشياطين من الإنس أو الجن.

إن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**من يضمن لي ما بين لحييه** (اللسان، والفم، فلا يتكلم بحرام، ولا يأكل حرامًا) **وبين رجليه** (الفرج) **تضمنت له بالجنة**»(172)، ويقول: «**اضمنوا لي ستًا من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا الأمانة إذا ائتمنتم،**

---

(171) ونصه كاملًا: «**لتتبعن سنن من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم**»، قلنا يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ **قال:** «**فمن؟!**» متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. «شرح السنة» للبغوي بتحقيق الشاويش والأرناؤوط (392/14)، الحديث (4196).

(172) رواه البخاري واللفظ له، والترمذي، وغيرهما، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (661/2) برقم (1431).

واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم»(173) وهذا للمسلمين عامة، الرجال والنساء، فالمرأة كالرجل.

الزنا حرام على الرجال وعلى النساء جميعًا، يقول عليه الصلاة والسلام: **«إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجعها، وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئت»**(174).

جاء الإسلام يطهر المجتمع من الفاحشة ما ظهر منها وما بطن.

كانت الجاهلية تبيح الزنا، ولا تضع معوقات في طريقه: الزنا العلني: كانت هناك بغايا ينصبن الرايات على أبوابهن، والزنا السري: اتخاذ الأخذان، فحرم الإسلام هذا وذاك، وربي الإنسان المسلم على أن يبحث عن الحلال، فإن عجز عنه أعف نفسه، ونظر إلى ظل العرش، حيث هناك سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله - منهم: **« ... ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله ...»**(175).

---

(173) رواه أحمد، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم وصححه، وقال الذهبي في اختصاره للبيهقي: إسناده صالح، وقال العلائي في «أماليه»: سنده جيدًا، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع الصغير». «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (47/2)، الحديث (1087).

(174) رواه أحمد، والطبراني، من حديث عبد الرحمن بن عوف، ورواه أحمد رواة الصحيح خلا ابن لهيعة كما قال المنذري، وعزاه في «الجامع الصغير» أيضًا إلى البزار عن أنس، والطبراني عن عبد الرحمن بن حسنة، مع اختلاف في اللفظ، وذكره الألباني في «صحيح الجامع» وزيادته، ورجح شاكر أنه منقطع، ولكن متن الحديث صحيح كما قال القرضاوي. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (556/2) برقم (1118).

(175) رواه البخاري ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه - ونصه كاملًا: «**سبعة يظلهم**

ومثله: المرأة التي يغريها رجل ذو منصب ووسامة، فتقول: إني أخاف الله تعالى.

حرم الإسلام الزنا، وحرم الإسلام كذلك الذوذ (عمل قوم لوط)، حرمه القرآن، وحرمه النبي صلى الله عليه وسلم.

حدثنا القرآن عن قوم لوط الذين ارتكبوا هذه الفاحشة، وابتكروها، ما سبقه بها من أحد من العالمين(176)، وقال لهم نبيهم: **{أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ}** [الشعراء: 165].

ولعن النبي صلى الله عليه وسلم من فعله، كما جاء في الحديث: «**لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من غير تخوم الأرض، ولعن الله من كمه أعمى عن السبيل، ولعن الله من سب والديه، ولعن الله من تولى غير مواليه، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط**»(177)، في هذه كررها ثلاثًا(178)

الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا على ذلك، وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (287/1)، الحديث (457).

(176) كما قال القرآن: **{وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ}** [الأعراف: 80]، وقال: **{وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ}** [العنكبوت: 28].

(177) رواه النسائي، وابن حبان في «صحيحه»، ورواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، ورواه البيهقي، من حديث ابن عباس رضي الله عنهب، وقوله «تخوم الأرض»: أي حدودها، و«كمه الأعمى»: أي أضله. «المنتقى من كتاب الترغيب

لعظم خطرها، حتى لا ينقلب المجتمع على عقبيه، فإن من أخطر الأشياء أن تتغير الفطرة، فيتخنث الرجال، ويسترجل النساء! «**لعن الله المتشبهات من النساء بالرجال، والمتشبهين من الرجال بالنساء**»(179).

ومن هنا حرم الإسلام هذه الفاحشة، حتى أن بعض الفقهاء قالوا: يقتل الفاعل والمفعول به ولو لم يكن محصنًا، عملًا بحديث ورد في ذلك(180)، مع أن العقوبة في الزنا: أن يقتل - يرجم - المحصن فقط، ولكن غير المحصن يجلد(181).

كما أن النبي صلى الله عليه وسلم حذرنا من أمر آخر وقال: «**هي اللوطية الصغرى: يعني الرجل يأتي امرأته في دبرها**»(182)، وقال:

والترهيب» (662/2)، الحديث (1434).

(178) والتكرار في الآخرة من رواية النسائي.

(179) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، عن ابن عباس رضي الله عنهب، ورمز له السيوطي بالصحة «الجامع الصغير» (124/2). قال المناوي: وظاهر كلامه أن ذا لا يوجد مخرجًا في أحد «الصحيحين» وإلا لما عدل عنه وهو ذهول عجيب فقد رواه سلطان هذا الشأن - أي الإمام البخاري - في «صحيحه» في اللباس عن ابن عباس ولفظه: «**لعن النبي صلى الله عليه وسلم المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال**»، والتقديم والتأخير ليس عذرًا في ترك العزو إليه «فيض القدير» (271/5) برقم (7265).

(180) عن ابن عباس رضي الله عنهب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به**» رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والبيهقي، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (662/2)، الحديث (1435).

(181) رأوها أشد من الزنا لما فيها من خطورة.

(182) رواه أحمد، والبزار، وصحح الشيخ شاكر إسناده في تخريجه للمسند، وقال الشيخ القرضاوي في تعليقه على الحديث: وإنما سماها (لوطية) لشبهها بعمل قوم لوط من

«ملعون من أتى امرأة في دبرها»[183].

وقال: **«استحيوا، فإنه الله لا يستحي من الحق، ولا تأتوا النساء في أدبارهن»**[184]، فهذا حرام ملعون من فعله، ولكنه لا يؤدي إلى الطلاق كما يزعم بعض الناس.

هكذا حرم الإسلام إتيان الفواحش بكل طريقة من الطرق، وفتح طرق الحلال: **{وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ 5 إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ}** [المؤمنون: 5، 6 - المعارج: 29، 30].

الزنا حرام كله، ولكنه أشد ما يكون حرمة إذا زنى الإنسان بحليلة جاره، كما روى ابن مسعود في «الصحيحين»[185]: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: **«أن تجعل لله ندًا وهو خلقك»** قلت له: إن ذلك لعظيم، قال: قلت: ثم أي؟ قال: **«ثم أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك»** قال: قلت: ثم أي؟ قال: **«ثم أن تزاني حليلة جارك»** فأنزل الله عز وجل تصديقها: **{وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي**

حيث استعمال مكان القذر، وإنما كانت (الصغرى) لأن الزوجة محل الاستمتاع في الجملة، بخلاف الذكر. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب) (663/2) برقم (1438).

(183) رواه أحمد، وأبو داود، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (664/2)، الحديث (1443).

(184) رواه أبو يعلى، والطبراني في «الكبير»، والبزار، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح خلا يعلى بن اليمان وهو ثقة كما قال الهيثمي، من حديث عمر رضي الله عنه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (663/2)، الحديث (1439).

(185) رواه البخاري في كتاب «التفسير»: سورة البقرة باب (3)، ورواه مسلم - واللفظ له - في كتاب (الإيمان): باب «كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده».

حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا} [الفرقان: 68].

المفروض في الجار أن يكون حافظًا لحرمة جاره، حارسًا لأهله في غيبته، لا أن يكون لصًا يعتدي على أعراضهم.

كذلك زنا المحصن غير زنا العزب، وزنا الشيخ غير زنا الشاب، ومن هنا جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم(186): «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر**».

«شيخ زان» الشيخ الذي شاب وشاخ ولكنه يزني، ليست حاجته كحاجة الشاب.

«وملك كذاب»: الناس قد يكذبون لضعف عندهم، أو لحاجة إلى غيرهم، فلماذا يكذب الملوك والأمراء والرؤساء؟ إلا إذا كانوا يدجلون على شعوبهم، وفي ذلك الخطر كل الخطر.

«وعائل مستكبر»: هو الفقير المستكبر. الغني قد يغره ماله فيستكبر، أما الفقير المتكبر الذي تقول له الحق فيرده، والذي لا يبالي بأحد، ولا ينظر إلى الناس إلا باستعلاء واستخفاف، فهذا من أشد الناس عذابًا.

نسأل الله عز وجل أن يفقهنا في ديننا، وأن يتوب علينا توبة نصوحا، وأن يغنينا بحلاله عن حرامه، وبطاعته عن معصيته، وبفضله عمن سواه.

---

(186) والنسائي، عن أبي هريرة رضي الله عنه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (2/657 - 658) برقم (1420).

ادعو الله تعالى يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة السلمون:

حرم الإسلام الزنا ولا شك، وحرم كل ما يؤدي إليه، ولكن الإسلام إذا حرم شيئًا وضع البديل له، فليس هناك حرام إلا وبمقابله حلال يغني عنه، ما حرم الله على الناس شيئًا يحتاجون إليه قط، ففي الحلال دائمًا ما يغني عن الحرام[187].

ومن هنا حين حرم الإسلام الزنا، فقد شرع الإسلام الزواج، تحصينًا للنفس، وكسرًا للشهوة، وإغراء للشيطان، وتكوينًا للأسرة المسلمة، وتدبيرًا للمنزل، وتكثيرًا للعشيرة، وتحقيقًا لإرادة الله تعالى في بقاء هذا النوع: **{وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ ...}** [النحل: 72]، **{وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ}** [الروم: 21].

---

(187) كما بين ذلك ابن القيم رحمه الله في كتابيه: «روضة المحبين» و«إعلام الموقعين» حين ذكر أن الله حرم على الناس الاستقسام بالأزلام، وعوضهم عنه دعاء الاستخارة، وحرم عليهم الربا، وعوضهم التجارة الرابحة، وحرم عليهم القمار، وأعاضهم عنه أكل المال بالمسابقة النافعة في الدين بالخيل والإبل والسهام، وحرم عليهم الحرير، وأعاضهم عنه أنواع الملابس الفاخرة من الصوف، والكتان والقطن. وحرم عليهم الزنا واللواط، وأعاضهم عنهما بالزواج الحلال، وحرم عليهم شرب المسرات، وأعاضهم عنه بالشربة اللذيذة النافعة للروح والبدن، وحرم عليهم الخبائث من المطعومات، وأعاضهم عنها بالمطاعم الطيبات.

نقلًا عن كتاب «الحلال والحرام» للأستاذ القرضاوي (ص33)، ط. المكتب الإسلامي.

أمر الله تعالى المجتمع المسلم أن يعمل على تزويج أبنائه وبناته أمرًا صريحًا حينما قال: **{وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ}** [النور: 32] ... الأيم: غير المتزوج، ذكرًا كان أو أنثى، من لا زوجة له، ومن لا زوج لها.

«وانكحوا»: خطاب للمسلمين عامة، وأولى الأمر والأولياء خاصة، أن يزوجوا هؤلاء ولا يدعوهم في حالة العزوبة يتعرضون للشيطان وللشهوات.

لا يمكن كل همكم البحث عن المال: ماذا تدفع؟ وكم تأخذ؟ وماذا عندك من مال؟ إنها ليست سلعة تباع وتشترى، إنك حينما تزوج ابنتك تريد لها إنسانًا كريم الخلق، متين الدين، إن أحبها أكرمها، وإن أبغضها لم يظلمها.

زوج ابنتك ذا الدين، وابحث لها عن صاحب الدين والخلق: «**إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه إن لا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**»(188). إن على مجتمعنا أن يعي أمر الله تعالى : **{وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ}** [النور: 32].

كم من فقير اغتنى، وكم من معسر أيس **{... سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا}**

---

(188) رواه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم، عن أبي هريرة، ورواه ابن عدي عن ابن عمر، ورواه الترمذي والبيهقي في «السنن» عن أبي حاتم المزني، ورمز له السيوطي بالصحة «الجامع الصغير» (16/1)، قال العراقي في تخريج أحاديث «الإحياء»: أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة، ونقل عن البخاري أنه لم يعده محفوظًا، وقال أبو داود: إنه خطأ، ورواه الترمذي أيضًا من حديث أبي حاتم المزني وحسنه، ورواه أبو داود في «المراسيل»، وأعله ابن القطان بإرساله وضعف رواته (22/2). وانظر أيضًا «فيض القدير» (243/1) برقم (347).

[الطلاق: 7]، ودوام الحال من المحال.

لا يجوز للآباء أن يجعلوا من بناتهم سلعًا، لا يجوز للآباء أن يعطلوا البنات. إن هذه الظاهرة الشاذة في مجتمعاتنا ليست ظاهرة إسلامية بحال.

هؤلاء البنات اللائي نراهن بالمئات والآلاف - وهن بنات عائلات - لا ينقصهن الجمال، ولا تنقصهن الثقافة، ولا ينقصهن الأدب، ولا تنقصهن الأخلاق، فلماذا لا يتزوجن؟ من وراء هذا؟ من المسؤول عن هذا؟

طالما بحت أصواتنا، ونادينا: يا قوم «**يسروا ولا تعسروا ...**»(189)، لا تعسروا ما يسر الله، لا تحجروا ما وسع الله، لا تضعوا عراقيل في طريق الحلال، فنحن إذا يسرنا الحرام - كما نرى - ووضعنا الأحجار في طريق الحلال، وسددنا أبوابه، فماذا تكون النتيجة؟ إما الحرمان والكبت، وإما الانحراف، وعلى كل المجتمع هو الخاسر، والأخلاق هي الخاسرة، والدين هو الخاسر.

من في الناس من أصحاب الجاه، ممن له كلمة يقول: سأزوج ابنتي بمائة ريال؟ في اليمن بعض القضاة من أصحاب الأسر الكبيرة كان يزوج قريباته وأقاربه، بريال واحد، ولقيت بعض هؤلاء وقال: أنا ممن تزوج بريال.

أراد هذا الرجل أن يكسر الحواجز، وأن يضع عرفًا جديدًا، فلماذا لا يوجد بعض الناس - عندنا - يفعلون هذا، وتزوج البنات، ويزوج الشباب؟

كثير من الشباب يمكث إلى ما بعد الثلاثين، ولم هذا؟ إنه يبلغ في الخامسة

---

(189) رواه البخاري، ومسلم، عن أنس رضي الله عنه عن النبي رضي الله عنه قال: «**يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا**».

عشرة، فلماذا يبقى خمسة عشر عامًا أو عشرين عامًا لا يتزوج؟ وماذا يفعل في هذه السنين؟

علينا أن نيسر ولا نعسر، علينا أن نضع من الأنظمة والتقاليد ما يتيح للشاب أن يحقق أمر الله تعالى ويتيح للجميع أن يكونوا الأسر المسلمة الصالحة، وأن نرى في كل يوم زواجًا وزواجًا وزواجًا، وأن نخرج من هذه الظاهرة الشاذة - التي لا يقرها الإسلام، ولا يقرها العقل، ولا تقرها المصلحة، ولا الاخلاق، ولا شيء أبدًا: عزوبة الرجال، وعنوسة النساء.

أسأل الله تعالى أن يفقهنا في ديننا، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يجعل يومنا خيرًا من أمسنا، ويجعل غدنا خيرًا من يومنا، وأن ينصرنا على عدوه وعدونا.

{رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ} [آل عمران: 147].

{رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [الحشر: 10].

وصل اللهم على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين.

{إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا} [الأحزاب: 56].

وأقم الصلاة.

* * *

صفات عباد الرحمن

9- التوبة النصوح

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

لازلنا مع «عباد الرحمن»، لازلنا في رحاب القرآن، لازلنا مع تلك الصفوة المختارة من عباد الله، الذين شرفهم الله تعالى بالإضافة إلى نفسه، والعبودية له: عباد الرحمن.

وصفهم الله بخير الأوصاف، في حالهم مع أنفسهم ومع الناس، في ليلهم ونهارهم، معه سبحانه ومع خلقه.

وصفهم بعمل الخيرات واجتناب السيئات، فإذا كان غيرهم يرتكب الموبقات: يدعون مع الله إلهًا آخر، أو يقتلون النفس التي حرم الله بغير حق، أو يتورطون في الزنى، فإنهم لا يفعلون شيئًا من ذلك، ومن فعل شيئًا من هذه الكبائر يلق أثامًا: {**وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا 68 يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا**} [الفرقان: 68، 69].

هذا هو الآثام والنكال الذي ينتظره، عذاب مضاعف يكرر عليه ويغلظ، وعذاب الآخرة أشد وأنكى وأخزى من عذاب الدنيا، إنه ليس عذاب يوم ولا يومين، ولا شهر ولا شهرين، ولا سنة ولا سنتين، إنه الخلود: {**وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا**}.

وهو مع العذاب المادي هناك إهانة نفسية معنوية، إنه يخلد في هذا العذاب حقيرًا مهانًا ذليلًا، لا وزن له ولا قيمة له، مهما كان مركزه في الدنيا، ومهما كانت مكانته عند الناس، فإنه عند الله مهان ذليل: {**وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا**}.

هذا شأن من يرتكبون تلك الموبقات، ويقترفون تلك المنكرات.

ولكن هل سد الباب عليهم؟ هل قطعت دونهم الأسباب، وغلقت في وجوههم الأبواب، فلا رحمة ينتظرونها ولا عفو يرتقبونه؟ لا، هنالك استثنى الله عز وجل فقال: {**إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا70 وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا**} [الفرقان: 70، 71].

هكذا فتح الله باب التوبة على مصراعيه، وهذا من رحمة الله تعالى بعباده.

عرف سبحانه ضعفهم، عرف تسلط الغرائز عليهم، عرف وسوسة الشيطان لهم، عرف أن الإنسان خُلق ضعيفًا، فكثيرًا ما يُغرى بالشرور، وكثيرًا ما يتورط في الآثام، وكثيرًا ما تزلّ أقدامه، فيطيع الشيطان، ويسير في ركابه، عرف الله ذلك من عباده ففتح لهم باب التوبة.

وهو سبحانه هو الذي خلقهم هكذا، لأنه سبحانه يريد أن يتوب على عباده، فاسمه «التواب»، وهو: {**... يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ**} [البقرة: 222]، واسمه «الغفار» فمن شأنه أن يغفر، واسمه «العفو» فمن شأنه أن يعفو.

ولهذا لم يخلق الله هذا النوع من خلقه ملائكة مطهرين، وإنما خلقهم بشرًا لهم دوافعهم وشهواتهم، وغضبهم وغرائزهم، حتى يذنبوا فيستغفروا، فيغفر الله تعالى لهم، وفي الحديث الصحيح: «**والذي نفسي بيده لو لم تُذنبوا**

لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم»(190).

إنه «الغفار»، إنه «العفو»، إنه «الرحيم»، إنه «التواب»، فلا يعظم عليه ذنب، مهما عظم ذنب، فإن مغفرة الله تعالى أعظم منه، ولهذا فُتح باب التوبة.

التوبة تجب الذنوب كلها، تغسل الإنسان من ذنبه، وتذهب به كما يذهب الماء بالوسخ، من تاب من الشرك قبل الله توبته: **{قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ ...}** [الأنفال: 38]. فالإسلام يجب ما قبله، والتوبة تجب ما قبلها.

اختلف بعض الصحابة في توبة القاتل، لأن هناك حقوقًا ثلاثة: حق يتعلق بالمقتول، وحق يتعلق بورثة وأولياء دمه، وحق يتعلق بالله.

قالوا: إذا تاب القاتل، وعفا الله تعالى عنه وأسقط حقه، وعفا الورثة عنه وأسقطوا حقوقهم بالصلح أو بالدية، فقد بقى حق المقتول.

ولكن الصحيح أنه إذا تاب توبة نصوحًا، وعفا عنه أولياء الدم، فإن الله أهل لأن يرضي عنه المقتول يوم القيامة.

فالتوبة تشمل كل الذنوب، وهنا بعد أن ذكر الله الشرك، والقتل، والزنى، قال: «إلا من تاب ...» فهو يشمل الذنوب الثلاثة.

ولكن: أي توبة؟ ما التوبة المقبولة؟

إنها التوبة «النصوح»، والنصح معناه: الخلوص من الغش، أي أنها ليست

---

(190) رواه مسلم وغيره، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» للقرضاوي (822/2 - 823 الحديث 1934).

توبة زائفة، ليست توبة مدخولة مغشوشة، ليست كتوبة الكذابين الذين يتوبون بألسنتهم وقلوبهم مصرة على المعصية، لا.

إن للتوبة مقومات وأركانًا لا بد أن تتوافر لها:

أول أركانها: الندم، كما سئل أنس وغيره من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: أقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**الندم توبة**»(191)؟ قال: نعم.

وهذا يعني أنه أعظم أركان التوبة، كما قال: «**الحج عرفة**»(192) أي أعظم أركان الحج: عرفة.

الندم: الأسى ... الحزن ... الحسرة التي تأكل القلب، يحترق الإنسان داخليًا إذا تذكر معصيته لله، لا يهنأ له بال، ولا يسعد له حال، ولا يطيب له نوم، لأن ذنبه - كلما تذكره - ينغص عليه نهاره ويؤرق عليه ليله.

إنه شعور بالتقصير أمام الله عز وجل، يستجمع الإنسان في ذاكرته إساءته إلى الله، وإحسان الله تعالى إليه، يتذكر نعم الله تعالى عليه، ويتذكر معصيته لله عز وجل، كما جاء في أحد الأحاديث القدسية: «**إني والجن والإنس في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر غيري، خيري إلى العباد نازل، وشرهم إلي صاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم، فيتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي**»(193).

---

(191) رواه أحمد بإسناد صححه الشيخ شاكر، كما رواه ابن ماجه، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (822/2) الحديث (1932).

(192) رواه أحمد، وأصحاب السنن، وابن حبان، والحاكم، والدارقطني، والبيهقي، كلهم من حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلمي «المقاصد الحسنة» للسخاوي برقم (394).

(193) رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»، والبيهقي في «شعب الإيمان»، وكذا

من يريد التوبة يستجمع هذا، يستحضر آلاء الله ونعمه عليه، ويستحضر ذنوبه ومعاصيه مع الله عز وجل، فينشأ من ذلك حالة «الندم»، حالة الأسى والأسف، التي يذوب بها القلب كما يذوب الملح في الماء.

وصف الله لنا نفسية التائبين في سورة «التوبة» حين قال: **{وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ}** [التوبة: 118].

انظروا: **{ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ}** الدنيا على سعتها ضاقت عليهم، وأنفسهم ضاقت عليهم، **{وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ}** هذا هو شعور التائب، هذا معنى «الندم»، وهذا أول عناصر التوبة ومقوماتها، إن النادم هنا يغسل ذنوبه بدموعه.

الركن الثاني للتوبة: العزم المصمم ألا يعود إلى الذنب: لا توبة إلا بهذا العزم، أما إذا كان يتوب وهو بين بين، وهو يحن إلى المعصية، ولا يزال في قلبه تعلق بها، ولا زال عقله يفكر فيها، فهذه ليست توبة.

لا بد أن يكون ساعة التوبة قاطع العزم كحد السيف، مصرًا على ألا يعود إليها، كما لا يعود اللبن إلى الضرع إذا خرج منه.

قد يضعف بعد ذلك، قد تخونه إرادته، قد يغلبه هواه، قد يصرعه شيطانه

الحاكم عن أبي الدرداء، كما في «فيض القدير» (469/4) برقم (6008)، و«كنز العمال» (3/16) برقم (43674)، وضعفه السيوطي في «الجامع الصغير» (4052)، الزيادة التي أوردها الشيخ: «**خيري إلى العباد نازل ...**» لم أعثر عليها.

ويهزمه، فالمعركة بين الخير والشر مستمرة، ولكن المهم ساعة التوبة يكون عازمًا عزمًا أكيدًا ألا يعود إلى لاذنب.

الركن الثالث: أن يقلع بالفعل عن ذنبه: التوبة رجوع عن المعصية إلى الطاعة، وعن السيئات إلى الحسنات، رجوع من طريق الشيطان إلى طريق الله، فلا بد أن يرجع ... أن يغير طريقه ... أن يغير مجراه ... أن يغير صحبته، يستبدل مكانًا بمكان، وأناسًا بأناس، وأصحابًا بأصحاب(194) « ... **وأتبع السيئة الحسنة تمحها ...»**(195).

إذا استجمعت هذه التوبة شرائطها، فلا بد أن تقبل حسب سنن الله عع، لأنه وعد بقبول التوبة: { ... **ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْۚ** «أي وفقهم للتوبة» **إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ**} [التوبة: 118].

سئلت رابعة العدوية: إذا تبت تاب الله علي؟ فقالت: يا أحمق، بل إذا تاب الله عليك تبت، أما قرأت قوله تعالى: {... **ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ** ...} أي إنه إذا وفقك للتوبة فهذا دليل على أنه قبلك، ما دام قد بعثك وحفزك على أن تتوب،

---

(194) كما أوصى الرجل العالم ذلك الرجل الذي جاءه يسأله عن التوبة، وقد قتل مائة نفس، فقال له: انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسًا يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء. انظر حديث أبي سعيد الخدري المتفق عليه، وقد أورده النووي في باب التوبة من كتابه الشهير «رياض الصالحين».

(195) هو جزء من حديث أبي ذر رضي الله عنه - الذي رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، ورواه الحاكم وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وهو من أحاديث «الأربعين النووية»، ونصه كاملًا: «**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**». «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (712/2) الحديث (1594).

فهذا دليل القبول من أول الأمر.

التوبة مطلوبة من كل مسلم، يقول القرآن: **{... وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ}** [النور: 31]، ويقول أيضًا: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا ...}** [التحريم: 8](196)، فالمؤمنون مخاطبون ومأمورون جميعًا بالتوبة إلى الله تعالى.

كل إنسان مطالب أن يتوب، مَنْ مِنَ الناس يرى نفسه معصومًا من الذنوب؟ كلنا مقصر في حق الله، كلنا مفرط في حقوق العباد، ولذلك ينبغي أن نكون دائمًا توابين.

النبي صلى الله عليه وسلم من حسن صلته بالله، ومع إنه كان لا يغفل عن ربه طرفة عين، وكانت تنام عيناه وقلبه لا ينام، وكان مع الله في غدواته وروحاته، وحركاته وسكناته كلها، ومع هذا كان يقول: **«يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة»**(197).

التوبة مطلوبة من عباد الرحمن، وخصوصًا إذا ارتكبوا موبقة من الموبقات، إذا ارتكبوا كبيرة من الكبائر، كهذه التي ذكرها القرآن(198)، أو أي كبيرة أخرى.

---

(196) وتمامها: **{عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ}**.

(197) روه مسلم عن الأغر بن يسار المزني رضي الله عنه «رياض الصالحين» للنووي، باب التوبة.

(198) أي في قوله تعالى في سورة الفرقان: **{وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ ...}** (68).

الصغائر أمرها هين، تكفرها الصلاة والصيام والصدقة، ولكن الخطورة لكل الخطورة في الكبائر، فهذه لا يكفرها إلا التوبة والتوبة النصوح، فلا بد منها **{إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ ...}** [الفرقان: 70].

لماذا عقب التوبة بالإيمان؟ لأن الكبائر تخدش الإيمان وتجرحه، بل تصيبه في الصميم، وقد ذكرنا الحديث الصحيح(199): «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**».

الإيمان إذن يُصاب بهذه الكبائر والموبقات.

لهذا كان على التائب أن يعمل على ترميمه بعد الإصابة، وعلى تجديده بعد أن يخلق بهذه المعاصي الكبيرة، ومن هنا كان معنى قوله: **{إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ ...}**: جدد إيمانه بهذه التوبة النصوح.

ثم لا بد - بعد التوبة والإيمان - من عمل صالح: **{إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ...}** [الفرقان: 70]، أي لا بد أن يبيض صفحته بالطاعات بعد أن سودها بالمعاصي، لا بد أن يعمل الصالحات ويكثر من الحسنات، ويحاول أن يعوض ما فات، لا بد من هذا، كما قال الله تعالى في الآية الأخرى: **{وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ}** [طه: 82].

إنه كان يعمل السيئات فعليه أن يعمل مقابلها حسنات، لقد غير طريقه فلا يجوز أن يبقى فارغًا، والنفس لا تبقى فارغة، من لم يشغل نفسه بالحق شغلته

---

(199) الذي رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، عن أبي هريرة رضي الله عنه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (651/2)، برقم (1399).

نفسه بالباطل، من لم يشغل نفسه بالطاعة شغلته نفسه بالمعصية، المرء لا يبقى في فراغ، لا بد من عمل.

فإذا كان قد ولى زمن السيئات فليستقبل زمن الصالحات، وليعمل عملًا صالحًا.

وأبواب العمل الصالح كثيرة ومفتوحة، مع الله ومع الناس، في الليل والنهار: **{فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ}** [الزلزلة: 7]، لا يضيع عند الله شيء، **{إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا}** [النساء: 40].

على التائب أن يملأ صحائفه حسنات ما استطاع، ويحاول - بقدر الإمكان - أن يجعل في مقابل السيئة حسنة من جنسها: إذا كان يغتاب المسلمين فليجعل من حسناته أن يدعو للمسلمين وأن يستغفر لهم، إذا كان من سيئاته من قبل إنه يؤذي الناس بيده أو بلسانه، فليكن من حسناته الجديدة أن يقدم النفع للناس ... أن يسدي الخير لهم ... أن يصنع المعروف معهم ... أن يميط الأذى من طريقهم ... أن يقدم لهم ما استطاع من خير.

فإن عجز فليدل على خير: «**والدال على الخير كفاعله**»(200)، و«**من دل**

---

(200) هو جزء من حديث رواه البيهقي في «الشعب» عن ابن عباس رضي الله عنهب، ونصه كاملًا: «**كل معروف صدقة، والدال على الخير كفاعله، والله يحب إغاثة اللهفان**»، وقد رمز له السيوطي بالضعف في «الجامع الصغير (94/2). قال العلامة المناوي: وفيه طلحة بن عمرو أورده الذهبي في «الضعفاء» وقال: قال أحمد: متروك، وقال الحافظ العراقي: رواه الطبراني في المستجاد من رواية الحجاج بن أرطأة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده والحجاج ضعيف «فيض القدير (33/5) برقم (6354). والحديث وإن كان ضعيفًا إلا أن معناه صحيح، ويشهد له حديث مسعود

على خير فله مثل أجر فاعله»[201].

فإن عجز فلينو الخير، ربما كانت نية المرء خيرًا من عمله.

هذا هو المطلوب من التائب: **{إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا}** [الفرقان: 70]، ما معنى هذه الكلمة القرآنية: **{يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ}**؟

للمفسرين فيها وجهان:

الوجه الأول: إن حياتهم قد تغيرت، وأعمالهم قد تبدلت، فهم قد تحولوا من حياة المعصية إلى حياة الطاعة، من الشرك إلى التوحيد، من الكفر إلى الإسلام، من الرياء إلى الإخلاص، من إيذاء الناس إلى نفع الناس، من إضاعة الصلوات واتباع الشهوات، إلى المحافظة على الصلوات وإلى اجتناب الشهوات، من كذا إلى كذا.

تبدلت سياتهم حسنات، لأن حياتهم الجديدة قد قلبت الموازين، وغيرت الطريق، اتجه الريح اتجاهًا جديدًا.

هذا تأويل.

والوجه الثاني: إن نفس السيئات تنقلب بالتوبة النصوح إلى حسنات، وذلك أن التائب الذي صدقت توبته، كلما تذكر ذنبه ندم وبكى واستغفر، وطلب من الله العفو، فهو دائمًا يتذكر ذنبه، ويعقبه بالاستغفار والرجعة إلى

التالي، الذي رواه مسلم وغيره.

(201) رواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، من حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (128/1) برقم (77).

الله، وبهذا تنقلب الذنوب نفسها إلى حسنات، وتصبح السيئات في ميزانه حسنات وفي هذا - أيضًا - وردت بعض الأحاديث الدالة على ذلك، ولا حرج على فضل الله عز وجل.

إن الله لا يريد من عباده أن يبعدو عنه، ولكن يريدهم أن يقتربوا منه، ويقول لهم - كما في الحديث القدسي:

« ...وإن تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»(202).

من أقبل على تائبًا تلقاه من بعيد، ومن أعرض عنه ناداه من قريب، كما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول: **{قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ}** [الزمر: 53].

ما أرقها ... ما أنداها ... ما ألطفها من عبارة.

إنهم العصاة، إنهم الظالمون المسرفون على أنفسهم، لم يحرمهم شرف العبودية له، أبقى عبوديتهم له، وناداهم بهذا النداء المؤنس المحبب: **« ... يا عبادي أنتم عبادي وإن أخطأتم وعصيتم»** الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعًا، إنه هو الغفور الرحيم.

---

(202) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأوله: «**يقول الله: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ...**»، ورواه أحمد بنحوه بإسناد صحيح، وزاد في آخره قال قتادة: «**والله أسرع بالمغفرة**» «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (437/1) برقم (821).

هذا نداء عام خالد إلى يوم القيامة، لكل العصاة والمسرفين على أنفسهم، كما جاء في الحديث أيضًا: «**قال الله: يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة**»(203).

المهم أن تستغفر الله، وترجع إليه، وتنيب إليه، وتقف على بابه، ولن يردك، فباب الله ليس عليه حاجب يصد الناس عنه، ولا بواب، ولا ناطور، ولا أحد، الباب مفتوح، كلما قلت: يا رب، قال الله لك: لبيك عبدي وسعديك.

المهم أن تسارع إلى التوبة ... أن تبادر ولا تسوف، فأكثر أهل النار: المسوفون، الذين يقولون: سوف نتوب، سوف نتدارك، و«سوف» جند من جنود إبليس.

وما يدريك أنك ستعيش إلى غد أو بعد غد؟ ما يدريك - وأنت في ريعان شبابك - إنك ستبقى إلى سن الكهولة؟ وما يدريك وأنت في سن الكهولة أن تبقى إلى سن الشيخوخة؟ وما يدريك أنك إذا بقيت ستجد العزم على التوبة؟ ربما كان الإسرار على المعصية يغلق قلبك بالقساوة، فلا تجد رغبة في التوبة، لأنه الإنسان كلما أذنب ذنبًا نكت في قلبه نكتة سوداء، فإذا تاب صقل

(203) رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه، وقال: حديث حسن غريب «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» الحديثان (904، 2111)، وهو الحديث الثاني والأربعون من أحاديث «الأربعين النووية»، وقال ابن رجب في شرحه «جامع العلوم والحكم»: وإسناده لا بأس به، و«العنان» هو السحاب، و«قراب الأرض» أي ما يقارب ملأها.

القلب منها، وأصبح أبيض صافيًا، فإذا لم يتب وفعل أخرى أصبحت نكتة سوداء بجانب نكتة سوداء ... حتى يسود القلب كله والعياذ بالله(204)، فذلك الران الذي ذكره الله تعالى في كتاب: **{كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ}** [المطففين: 14]، وهنا يخشى أن يسود القلب ويظلم، فلا يجد إرادة للتوبة، ولا يجد رغبة فيها.

هذا هو خطر التسويف.

ثم إن الموت يأتي بغتة، وخاصة في عصرنا، ما أكثر الذين يموتون في الحوادث، وما أكثر الذين يموتون بالسكتة أو بالذبحة، وما أكثر الذين يصبحون فلا يمسون، أو يمسون فلا يصبحون: «**إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ...**»(205).

تزود من التقوى فإنك لا تدري إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر.

التسويف هو الخطر، تب من قريب: **{إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا**

---

(204) يشهد لذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه وقال: حديث حسن صحيح، ورواه النسائي، وابن ماجه وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، ونصه: «**إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة، فإن هو نزع واستغفر صقلت، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي ذكر الله تعالى: {كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ}**». «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (470/1) الحديث (908).

(205) هو من كلام عبد الله بن عمر رضي الله عنهب، وقد رواه البخاري وغيره، وتتمته: «**وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك**»، انظر: «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (866/2) الحديث (2080).

حَكِيمٗا} [النساء: 17][206].

صحيح إن التوبة تقبل في أي حال، إذا تبت مختارًا قبل أن تبلغ الروح الحلقوم: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»[207]، ولكن من يضمن لك أن تتوب فيما بعد؟

حاول أن تبادر بالتوبة ولا تسوف، ولا تؤخر، ولا تستصغر ذنوبك، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه**»[208].

يا أيها المؤمنون: توبوا إلى الله جميعًا «**كل ابن آدم خطأ، وخير الخطائين التوابون**»[209].

---

(206) وقال الله عقبها: **{وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا}** [النساء: 18].

(207) رواه الترمذي عن ابن عمر وقال: حديث حسن، ورواه ابن ماجه، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، وأورده الهيثمي في «المجمع» جزءًا من حديث، وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن البيلماني وهو ثقة. ومعنى «يغرغر»: أي ما لم تبلغ روحه حلقومه، فيكون بمنزلة الشيء الذي يتغرغر به. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (821/2 - 822) الحديث (1930).

(208) رواه الإمام أحمد عن ابن مسعود، وكذا الطبراني والبيهقي، كلهم من رواية عمران القطان، وهو ممن اختلف في توثيقه وتضعيفه، وممن وثقه ومشاه أحمد، واحتج به ابن خزيمة وابن حبان والحاكم وغيرهم، وبقية رجال أحمد والطبراني رجال الصحيح، كما قال المنذري «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (671/2) الحديث (1464).

(209) من حديث أنس رضي الله عنه، رواه الترمذي وقال: حديث غريب، ورواه ابن ماجه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد، وانتصر له ابن القطان، وقال الذهبي: على لين، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع الصغير»«المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (820/2) الحديث (1927).

آدم نفسه أخطأ، وأكل من الشجرة، ولكنه محا هذه المخالفة بالتوبة، فغسل منها تمامًا، خلافًا لما يقوله دعاة النصرانية، الله تعالى يقول: **{... وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ 121 ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ}** [طه: 121، 122].

آدم أكل من الشجرة، ثم دعا هو وزوجه: **{قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ}** [الأعراف: 23]، **{فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ}**[البقرة: 37].

وإذا كان الأب قد أذنب وأخطأ **{... فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا}** [طه: 115][210]، كما قال القرآن، فلا غرو أن يخطئ أبناؤه، وأن يقعوا في المعصية، ولكن الذي أعطاه الله لآدم أعطاه لذريته: «التوبة».

يروى: «**إن الله عز وجل لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة، فقال: وعزتك لاخرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح، فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا حجبت عنه التوبة ما دام الروح فيه**»[211].

نستطيع أن نغلب الشيطان بالتوبة إذا صدقت ... إذا نصحت، فإذا تبنا إلى الله، تقبل الله تعالى منا.

ربما كان هناك بعض التائبين أفضل ممن نشأوا في الطاعة، لأنهم كلما تذكروا ذنوبهم بكوا على أنفسهم بكاءً مرًا، فعاشوا بين الرجاء والخوف: **{يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ}** [الزمر: 9]، يرجو عفو الله ويخشى عقابه،

---

(210) وأولها: {فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا}.

(211) أورده الغزالي في «الإحياء» بصيغة: يروى، كذا ولم يعزه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، والحديث أخرجه أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد، انظر: «الإحياء» مع تخريج أحاديثه للعراقي (14/4) ط. دار المعرفة - بيروت.

فهو بهذه النفسية ربما كان أفضل من كثير ممن نشأوا في الطاعة.

إذا تاب الإنسان توبة نصوحًا محا الله عنه ما مضى، وغفر له ما قد سلف: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**»(212).

هذه حقيقة، وقد جاء في الحديث: «**كان الكفل من بني إسرائيل، وكان لا يتورع من ذنب عمله، فأتته امرأة، فأعطاها ستين دينارًا على أن يطأها، فلما أرادها على نفسها ارتعدت، وبكت، فقال: ما يبكيك؟ قالت: لأن هذا عمل ما عملته، وما حملني عليه إلا الحاجة، فقال: تفعلين أنت هذا من مخافة الله؟ فأنا أحرى، اذهبي فلك ما أعطيتك، ووالله لا أعصيه بعدها أبدًا، فمات من ليلته، فأصبح مكتوبًا على بابه: إن الله قد غفر للكفل، فعجب الناس من ذلك**»(213).

الذي حدث أنه في لحظة صلح مع الله تاب إلى الله عز وجل، فمحا الله عنه ما كان منه، أقبل على الله وندم وتاب فمات مغفورًا له.

هذا هو سر التوبة، إنها إكسير الحياة، إنها «المحاءة» التي تمحو كل الذنوب إذا صحت ونصحت وصدقت {**... وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ**

---

(212) رواه ابن ماجه، والطبراني، عن ابن مسعود رضي الله عنه، ورواة الطبراني رواة الصحيح، وحسنه ابن حجر، وكذلك الألباني في «صحيح الجامع الصغير»، ورواه ابن أبي الدنيا، والبيهقي مرفوعًا أيضًا من حديث ابن عباس، وزاد: «**والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه**» قال المنذري: وقد روي بهذه الزيادة موقوفًا، ولعله أشبه. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (822/2) الحديث (1931).

(213) رواه الترمذي عن ابن عمير وقال: حديث حسن، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (660/2) برقم (1428).

لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ} [النور: 31]، **{... إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ}** [البقرة: 222].

اللهم تب علينا توبة نصحوًا، واغفر لنا ما مضى، وأصلح لنا ما بقى.

استغفروا الله إنه الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

إذا صدقت التوبة قبلت، ويفرح الله تعالى بها فرحًا عظيمًا، حتى جاء في الحديث الصحيح: «**لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ، وقد ذهبت راحلته، فطلبها، حتى إذا اشتد عليه الحر والعش ـ أو ما شاء الله تعالى ـ قال: ارجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ، فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه، فالله أشد فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته**»(214).

انظروا: كيف يفرح الله بتوبة عبده؟!

إن الله يحب من عباده أن يتوبوا، ويفرح بهم، ويرحب بهم، ويستقبلهم، فقد عادوا إليه بعد شرود.

---

(214) رواه البخاري ومسلم عن الحارث بن سويد عن عبد الله رضي الله عنهب «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (824/2) الحديث (1940). و«الدوية»: هي الفلاة القفر والمفازة.

ولكن هناك شرط مهم للتوبة:

التوبة إذا كانت تتعلق بالمعاصي التي بين الإنسان وربه، فالأمر فيها هين، ويقبلها الله ولا شك، ولكن المشكلة تنشأ إذا كان بينك وبين العباد حقوق، وبخاصة الحقوق المالية كالديون التي للناس عليك.

إذا كنت اغتصبت منهم مالًا، أو سرقت، أو ارتشيت، أو غششتهم في تجارة، أو فعلت شيئًا من ذلك، أو أكلت وديعة أو أمانة عندك، فعليك أن تردها، بل قال العلماء: عليك أن تردها وترد ربحها.

إذا كان عندك ألف جنيه أو ألف ريال، وبقيت عندك عشر سنين وربحت منها، فالمفروض أن تردها وترد ربحها إلى صحابها، لأنها لو كانت عنده لنمت.

جاء في الحديث الصحيح: «**يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين**»(215).

الشهيد في سبيل الله تغفر ذنوبه كلها، صغائرها وكبائرها، إلا الدين ... إلا حقوق العباد.

فمن تاب توبة نصوحًا: عليه أن يرد الحقوق إلى أهلها، فإن كانوا قد ماتوا يردها إلى ورثتهم، فإن كان الورثة قد ماتوا، رد إلى ورثة الورثة.

لا بد من الرد أو الاستحلال، بمعنى أن يطلب من أصحاب الحقوق أن يحلوه من تبعتها، كما جاء في الحديث الصحيح: «**من كانت عنده مظلمة**

---

(215) رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهب «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (398/1) الحديث (731).

لأخيه من عرض أو من شيء، فليتحلله منه «يعني يقول له: أحلني ... سامحني» **من قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»**(216).

العملة الوحيدة يوم القيامة: الحسنات والسيئات، لا درهم ولا دينار، ولا ريال ولا دولار، ولا شيء من هذا.

فالإنسان إما أن يرد الحق إلى أهله، وإما يتحلل ويستسمح أصحاب الحق، فإن سمحوا وإلا عليه أن يرد إليهم ما استطاع إن عرفهم، وإن لم يعرفهم - كأن يكون ظلم أناسًا كثيرين، أو ماتوا ولا ورثة لهم - يتصدق عنهم، والأولى أن يجعل صدقته جارية، يضعها في مسجد، أو في مشروع خيري، ليظل أجره لهم إلى ويوم القيامة، هكذا ينبغي للمسلم أن يفعل.

فإن عجز فلينو: كلما قدر على شيء، رد منه ما استطاع.

فإن مات وهو عاجز، فالله أهل أن يرضيه عنه خصماءه يوم القيامة.

الأمر شديد إذن، حقوق الله مبينة على المسامحة، وحقوق العباد مبنية على المشاحة، كل يقول: حقي حقي، نفسي نفسي.

فلابد من رعاية هذا الشرط لمن أراد التوبة «النصوح».

وأولى من هذا كله أن يبعد الإنسان عن الحرام، ويجنب نفسه حقوق الناس

---

(216) رواه البخاري، والترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (619/2) برقم (1304).

ما استطاع.

ابتعد عن أكل أموال الناس بالباطل، ابتعد عن الحرام، بل عن الشبهات « **... فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ...**»(217).

اللهم إنا نسألك أن تغننا بحلالك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك، وبفضلك عمن سواك.

اللهم تب علينا توبة نصوحًا، اللهم أعنا على شهوات أنفسنا، وأصلح فساد قلوبنا. اللهم اجعل يومنا خيرًا من أمسنا، واجعل غدنا خيرًا من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

{رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ} [الحشر: 10].

اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام حيثما كانوا، اللهم مكن للمسلمين في ديارهم، اللهم اجعل كلمة الإسلام هي العليا، واجعل كلمة أعداء الإسلام هي السفلى.

{رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ} [آل عمران: 147]، اللهم آمين.

---

(217) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه، وقد رواه البخاري، ومسلم، والترمذي وأبو داود باختصار، وابن ماجه، وهو من أحاديث «الأربعين النووية» «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (506/2) الحديث (966).

وصل اللهم على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه، **{إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا}** [الأحزاب: 56].

* * *

صفات عباد الرحمن

10- ترك شهادة الزور والإعراض عن اللغو

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

لازلنا نعيش معًا في رحاب القرآن، وفي صحبة عباد الرحمن، الذين كرمهم الله تعالى بذكرهم في كتابه، وشرفهم بالنسبة إليه، والإضافة إلى ذاته المقدسة: «عباد الرحمن».

ذكر الله أوصافهم في ليلهم ونهارهم، ذكر حالهم في أنفسهم، وحالهم مع ربهم، وحالهم مع الناس، حالهم في أموالهم، وحالهم في أخلاقهم.

ذكر أحوالهم كلها إيجابًا وسلبًا، فهم يفعلون الصالحات، ويجتنبون الموبقات: {**وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ ...**} [الفرقان: 68]، يحافظون على الكليات الخمس: الأديان، والأنفس، والعقول، والأعراض «أو الأنساب»، والأموال.

وصفهم الله بالمحافظة على هذا كله.

فإذا زلت أقدامهم يومًا، فارتكبوا منكرًا من المنكرات، أو اقترفوا موبقة من الموبقات، سرعان ما يرجعون إلى الله، سرعان ما يقرعون باب التوبة، سرعان ما يقولون ما قال أبوهم آدم وأمهم حواء: {**... رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ**} [الأعراف: 23].

ليس عجيبًا أن يخطئ ابن آدم إذا كان آدم نفسه قد أخطأ وأذنب، ولكن آدم محا خطيئته بالتوبة ... غسل معصيته بالرجعة إلى الله: **{... وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ 121 ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ}** [طه: 121، 122]، **{فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ}** [البقرة: 37].

ولذلك كان «عباد الرحمن» توابين أوابين: **{إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا 70 وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا}** [الفرقان: 70، 71].

لا يحتاجون إلى كاهن يقفون بين يديه يعترفون له بذنوبهم، أو يقرون له بما ارتكبوه في علانيتهم وسرهم، ما كلفهم الله هذا، حسبهم أن يتوبوا بينهم وبين ربهم، وقد فتح لهم باب التوبة على مصراعيه، ليس عليه حاجب، ولا بواب: «**إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسئ النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسئ الليل،حتى تطلع الشمس من مغربها**»[218]، ويدعو عباده أناء الليل وأناء النهار، وإن ظلموا وعصوا وأسرفوا على أنفسهم: **{... يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ}** [الزمر: 53].

هكذا وصف الله عباد الرحمن.

ثم وصفهم بوصف جديد، هو موضوع خطبتنا هذا اليوم، وصفهم الله تعالى بقوله: **{وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا}** [الفرقان:

---

(218) رواه مسلم والنسائي عن أبي موسى «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (819/2) برقم (1921).

.[72

ما معنى: «لا يشهدون الزور»؟

أي: لا يشهدون شهادة الزور، فهي هنا مأخوذة من الشهادة، لا يورطون أنفسهم في هذه الكبيرة، التي هي من أكبر الكبائر، كما روى الشيخان عن أبي بكرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**» - ثلاثًا - قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «**الإراك بالله، وعقوق الوالدين**» وكان متكئًا فجلس «دلالة على أهمية ما يقول» فقال: «**ألا وقول الزور، وشهادة الزور**» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[219]، إشفاقًا ليه صلى الله عليه وسلم، فإنه كان يكرر بعض الكلمات ثلاثًا لعظم خطرها، لينبه العقول والقلوب إليها، حتى تتفتح الأذهان والعقول، فإذا كان هناك من هو مشغول بأمر من أموره ولم يسمع الكلمة الأولى، كررها حتى تسمع وتعقل وتنقل، وحتى تغرس في القلوب غرسًا.

المسلم لا يقول زورًا، ولا يشهد زورًا، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**اللهم إني أعوذ بك أن أقول زورًا، أو أغشى فجورًا، أو أكون بك مغرورًا**».

وكان يقول[220]: «**عُدلت شهادة الزور بالإشراك بالله**» - ثلاث مرات -

---

(219) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» الحديثان (1357، 1491).

(220) في حديث خُريم بن فاتك رضي الله عنه، الذي رواه أبو داود واللفظ له، والترمذي، وابن ماجه، وأحمد، ورواه الطبراني في «الكبير» موقوفًا على ابن مسعود بإسناد حسن، كما قال المنذري «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (634/2 - 635 برقم

ثم قرأ: {فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ30 حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ} [الحج: 30، 31].

وإنما عُدلت شهادة الزور بالإشراك بالله عز وجل، لما وراءها من تضييع الحقوق، ومن تأريث نار الخصومات بين الناس، وراءها ما وراءها، من أن يأكل القوي الضعيف، من أن يشتري بعض الناس الضمائر بأموالهم حتى يأتوا ليشهدوا بالباطل، ويضيعوا الحق، لهذا كانت من أكبر الكبائر.

عباد الرحمن لا يفعلونها، عباد الرحمن إذا شهدوا شهدوا بالحق، ولو كان ذلك على أنفسهم، أو والديهم، أو أقرب الناس إليهم، لا يمنعهم - كذلك - بُعد البعيد ولا عداوة العدو أن يشهدوا بالحق له، الله تعالى يقول: {... وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ ...}[221] [المائدة: 8]، {... وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ ...} [الأنعام: 152].

إذا طُلب عبدٌ من عباد الرحمن للحق شهد به، وقا ما يعلم، لم يخن، ولم يخالف، ولم يزور، ولم يزد في الكلام، ولم ينقص منه.

إذا طُلبت منه الشهادة لا يأبى، كما قال الله تعالى: {... وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ...} [البقرة: 282]، بعض الناس لا يكذب في الشهادة، ولكنّه يكتمها، وربما كان في كتمانه إضاعة للحقوق، ربما كان في كتمانه انتصار للباطل، ربما كان في كتمانه ضياع الدين وضياع الدنيا معًا، ومن هنا قال الله تعالى: {وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ} [البقرة:

.(1359

(221) تتمتها: {وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ}.

283]، وهذا يدل على أن كتمان الشهادة من الكبائر، وصدق الله العظيم إذ يقول في آية أخرى: {... **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**} [البقرة: 140].

كم من حقوق ضيعت؟ وكم من حرمات انتهكت؟ وكم من أعراض أهينت؟ وكم من دماء أريقت؟ وكم من أرواح أزقهت؟ وكم من شعوب اضطهدت؟ وكم وكم ... من أجل أناس كتموا شهادة يجب أن يقولوها.

كم من أناس قيدوا ألسنتهم، فلم يقولوا الحق، والحق مطلوب منهم، لم يقولوا كلمة بألسنتهم، ولم يقولوا كلمة بأقلامهم، حينما طُلب إليهم أن يشهدوا وأن يقولوا.

شهادة الحق هي التي تُعلي كلمة الله في الأرض، والشاهدون بالحق هم الذين يقومون بالشهادة، لا يبالون بما يصيبهم في سبيل الله: {**وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ**} [المعارج: 33]، لا يخافون لومة لائم، يعلمون أن ما يخاف الناس عليه لا يخافون هم عليه، فالناس يخافون على أرزاقهم أن تُنقص، أو على أعمارهم أن تُقطع، والأرزاق مضمونة، والأعمار محدودة، لا يستطيع أحد أن يزيد في رزقك ولا أن ينقص منه ذرة، ولا يستطيع أحد أن يؤخر أجلك أو يقدمه لحظة: {... **فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**} [الأعراف: 34، النحل: 61].

عباد الرحمن إذا طلبوا للشهادة أدوها على وجهها، لم يغيروا، ولم يحرفوا، ولم يبدلوا، ولم يخونوا، ولم يكتموا.

هذا أحد التفسيرين للآية الكريمة.

والتفسير الثاني: «والذين لا يشهدون الزور» أي لا يحضرونه.

«يشهدون» هنا من الشهود، وليس من الشهادة، هم لا يحضرون الزور، ولا يجلسون مجالس الزور، ولا يذهبون إلى أماكن الزور، وفسر الزور هنا بما شئت.

وقد تنوعّت عبارات المفسرين في تفسير الزور هنا، وهي - كما قال الإمام ابن تيمية - من اختلاف التنوع وليس من اختلاف التضاد.

هناك من قال: الزور هو الشرك، وهناك من قال: الزور هو الكذب، وهناك من قال: الزور أعياد المشركين، وهناك من قال: الزور هو اللهو والغناء، وهناك من قال: الزور هو النّياحة، وهناك من قال: الزور هو شرب الخمر، وهناك من قال ومن قال ... وكلها يجمعها أن الزور هو الباطل والمعصية ... هو الميل عن الحق ... هو البعد عن الخير وعن الطاعة.

ومعنى هذا أن عباد الرحمن لا يحضرون هذه الأماكن، ينزّهون أنفسهم أن يكونوا من جلسائها، فإن مجالس الخير تؤثر في أصحابها، ومجالس السوء - كذلك - تؤثر في أصحابها، وكلنا يعرف الحديث الشريف عن حامل المسك ونافخ الكير، وجليس الخير وجليس السوء[222].

قال الحافظ ابن كثير في تفسير الآية: الأظهر من السياق أن المراد: لا

---

(222) ونص الحديث الذي رواه البخاري، ومسلم، عن أبي موسى رضي الله عنه: «**إنما مثل الجليس الصالح، والجليس السوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة**». «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (799/2 برقم 1872).

يشهدون الزور، أي لا يحضرونه، ولهذا قال: «**وإذا مروا باللهو مروا كرامًا**» أي لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مرورهم به، مروا ولم يتدنسوا منه بشيء[223].

فهؤلاء لا يجلسون مجالس السوء، لا يشاركون المشركين والكفار في أعيادهم، كالذين يحتفلون بأعياد غير المسلمين، وربما مرت عليهم أعياد المسلمين وهم لا يلقون لها بالًا.

هؤلاء لا يحضرون أعياد الكفار، ولا يحضرون مجالس الكفر، ولا مجالس الباطل، ولا مجالس الفجور، لأن الذي يجلس فيها يناله رذاذ من إثمها.

ومن هنا كانت فلسفة الإسلام: إنه إذا حرم شيئًا، حرم كل ما يؤدي إليه ويعين عليه، فلعن في الخمر عشرة[224]، ولعن في الربا آكله ومؤكله وكاتبه وشاهديه[225]، ولعن النائحة والمستمعة[226]، وذم المغتاب وسامع الغيبة.

---

(223) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (329/3) ط. الحلبي.

(224) روى أبو داود، والحاكم وصححه، من حديث ابن عمر: «**لعن الله الخمر، وشاربها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وآكل ثمنها**»، قال المناوي في «الفيض»: ورواه ابن ماجه عن أنس، قال المنذري: ورواته ثقات (268/5).

(225) عن جابر رضي الله عنه قال: «لعن النبي صلى الله عليه وسلم آكل الربا، ومؤكله، وكاتبه، وشاهديه، وقال: هم سواء» رواه مسلم وغيره «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (534/2 برقم 1056).

(226) روى أحمد وأبو داود عن أبي سعيد رضي الله عنه: «**لعن الله النائحة والمستمعة**» فيه محمد بن الحسن بن عطية العوفي عن أبيه عن جده وثلاثتهم ضعفاء، انظر: «فيض التقدير» للمناوي (272/5 برقم 7271).

وذلك أنك إذا جلست مجلس سوء، فإنّك تشجّع أصحابه. لولا الحضور ... لولا الجلوس من الناس، ما بقى هؤلاء في مجلسهم، ولكن استحسان الحاضرين والسامعين، وإنصاتهم لما يُقال - أو على الأقل سكوتهم عنه - يشجّع هؤلاء على منكرهم.

ولهذا قال الله تعالى: **{وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ}** [النساء: 140] بمجرد جلوسكم إليهم، واستماعكم لهم، ومشاركتكم إياهم، أصبحتم مثلهم.

من هنا لما جيء إلى الخليفة الراشد - خامس الراشدين - عمر بن عبد العزيز بجماعة كانوا يشربن الخمر، فأمر بحدّهم - إقامة الحد عليهم - فقيل له: يا أمير المؤمنين إن فيهم رجلًا ليس منهم - لم يشاركهم في الشرب - ولكنّه جلس إليهم وهو صائم، فقال: صائم، ويجلس مع شاربي الخمر، وفي مجلس خمر، به فابدأوا، إن الله تعالى يقول: **{... إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ}** وأمر أن يبدأ بجلده وضربه.

لا ينبغي للمؤمن أن يجلس في مكان المنكر، وقد جاء في الحديث: « **... ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر**»(227).

---

(227) رواه النسائي من حديث جابر مرفوعًا وإسناده جيد، ورواه الترمذي وقال: حسن غريب، والحاكم وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي «فيض التقدير» للمناوي (211/6 - 212 برقم 8984)، والحديث له عدة شواهد يقوى بها، ذكرها الهيثمي في «مجمع الزوائد» (277/1، 279)، وأوله «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل**

المؤمن ينزّه نفسه عن مجالس السوء، حتى لا يأخذه لهيب النار التي تأكل هؤلاء من بعد، سيشاركهم شاء أم أبى، فالأولى أن يُبعد نفسه عنهم، وبخاصة أن كثيرًا من المجالس لا تخلو من فاكهة المجالس: الغيبة، والنميمة، والحديث عن أعراض الناس، وكل هذا يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

كلمة واحدة يقولها الإنسان لو مُزجت بماء البحر لمزجته، يهوي بها في النار سبعين خريفًا - وهو لا يلقي لها بالًا - من سخط الله تعالى عليه.

من هنا كان من أوصاف عباد الرحمن: **{... وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا}** [الفرقان: 72]: إذا اتفق مرورهم على مجالس اللغو، نزّهوا أنفسهم عنه: «كرامًا» بمعنى أنهم يكرمون أنفسهم أن يُشاركوا في هذا الباطل، إن أنفسهم أعز عليهم من أن يشاركوا في باطل، وأعمارهم أغلى عندهم من أن يضيعوها في باطل وفي لغو.

الله تعالى وصف المؤمنين المفلحين، الذين كتب لهم الفردوس، هم فيها خالدون، فكان من أخص أوصافهم: **{وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ}** [المؤمنون: 3] رأس مالهم أوقاتهم، فكيف ينفقونها في اللغو؟ لا يقبلون أن يضيعوا أوقاتهم في مثل هذا، إن الوقت الذي يضيعونه في لغو، يمكن أن يسبحوا الله فيه، أو يكبروه، أو يهللوه، أو يذكروه ذكرًا كثيرًا.

كلمة واحدة من كلمات الخير تملأ صحائف حسنات الإنسان، وكلمة في مقابلها تسود صفحاته بالسيئات والعياذ بالله، وقد قال الإمام الغزالي: إنك تستطيع أن تبني بكلمة قصرًا في الجنة، ومن ضيّع قصرًا أو كنزًا من الكنوز

الحمام بغير إزار، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يُدخل حليلته الحمام».

ليأخذه مكانه حساة، فقد خسر خسرانًا مبينًا(228).

أي أن الإنسان إذا لم ينفق وقته في الطاعة - حتى لو لم ينفقه في معصية - كان خاسرًا، فما بالك إذا أنفقه في طريق المعصية؟! ما بالك إذا أنفقه في المكروهات التي تؤدي إلى المشتبهات؟! والمشتبهات التي تؤدي إلى صغائر المحرمات؟! والصغائر التي تؤدي إلى الكبائر؟! والكبائر بريد الكفر والعياذ بالله تعالى.

عباد الرحمن يُنزهون أنفسهم عن مثل هذا اللغو، حتى لو عرض لهم من عرض من الناس - يريد أن يجرهم إلى اللغو - لا يجارونه، ولا يقابلون اللغو بمثله، بل يعرضون عنه، ويوفرون أوقاتهم، ويدخرون طاقاتهم، ويوفرون جهودهم، لما هو خير وأبقى.

وصف الله جماعة من المؤمنين بقوله: **{وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ}** [القصص: 55].

فهذا تكميل لما بدأ الله به من أوصاف عباد الرحمن، حينما قال: **{... وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا}** [الفرقان: 63].

هؤلاء هم عباد الرحمن:

---

(228) ونص عبارته رحمه الله - كما في «الإحياء» - هي: «ولو هللت الله سبحانه وذكرته وسبحته لكان خيرًا لك، فكم من كلمة يُبنى بها قصر في الجنة؟ ومن قدر على أن يأخذ كنزًا من الكنوز، فأخذ مكانه مدرة لا ينتفع بها، كان خاسرًا خسرانًا مبينًا، وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى واشتغل بمباح لا يعنيه فإنه وإن لم يأثم فقد خسر حيث فاته الربح العظيم بذكر الله تعالى». انظر: الآفة الأولى ... الكلام فيما لا يعنيك «إحياء علوم الدين» (112/2) ط. دار المعرفة - بيروت.

« ... وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا».

« ... وإذا مروا باللغو مروا كرامًا».

إنهم مشغولون بآخرتهم عن دنياهم، مشغولون بإصلاح النفس عن مجاراة الناس، مشغولون بالحق عن الباطل، مشغولون بالجدّ عن الهزل، مشغولون بالبناء عن الهدم.

إنهم لا يقيمون معارك جانبية تافهة من أجل أمور لا تُسمن ولا تغني من جوع، إنهم مشغولون بمصايرهم، مشغولون بآخرتهم، مشغولون بهموم أمتّهم، مشغولون بآمال دينهم، مشغولون بمآسي المسلمين في كل مكان، و«**من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم ...**»(229).

فما لهم وللغو؟ وما لهم وللخصومات؟ وما لهم وللمعارك التافهة؟ إنهم في شغل عن ذلك كله بما هو أعظم وأكبر، ولهذا وصفوا بأنهم «**إذا مروا باللغو مروا كرامًا**».

قد يُشتمون، وقد يُسبّون، وقد يُساء إليهم، ولكنّهم متسامحون في حق أنفسهم.

لا يتسامحون في حق دينهم، يغارون على حرمات الله أن تُنتهك، يغضبون لله ولكتابه ولسنة رسوله، ولكن من عرض لهم في أنفسهم فهم

---

(229) رواه الطبراني من رواية عبد الله بن أبي جعفر - هو مختلفٌ فيه - عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وتتمتّه: «**ومن لم يُصبح ويمسي وناصحًا لله، ولرسوله، ولكتابه، ولإمامه، ولعامّة المسلمين، فليس منهم**». «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (514/2، الحديث 997).

يُعرضون عنه، يقولون: « ... **سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين**»، كما قال الشاعر الصالح «محمود الورّاق»:

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب وإن كثرت منه عليّ الجرائم
فما الناس إلا واحد من ثلاثة شريفٌ ومشروفٌ ومثلٌ مقاوم
فأما الذي فوقي فأعرف قدره واتبع فيه الحق والحقّ لازم
وأما الذي دوني فإن قال صنتُ إجابته عرضي وإن لام لائم
وأما الذي مثلي فإن زلّ أو هفا تفضلت، إن الفضل بالحلم

إي أنّه مع كل الناس: عفوٌ، صفوحٌ، متخلق بأخلاق الله تعالى .

هذا هو شأن عباد الرحمن، لا يشغلون أنفسهم بالخوض في الباطل، فإن أكثر الناس خطايا، أكثرهم خوضًا في الباطل كما قال ابن مسعود رضي الله عنه.

لا يتكلمون فيما لا يعنيهم، فـ «**من حُسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه**»[230]، يعمرون أوقاتهم بالخيرات وعمل الصالحات، يعلمون أن كلمة واحدة من كلمات الخير تملأ الصحائف وتملأ الميزان، كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**... والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن - أو تملأ - ما بين السماء والأرض**

---

(230) رواه الترمذي عن أبي هريرة وقال: حديث غريب. ورواه أحمد، والطبراني في كتبه الثلاثة، عن الحسين بن علي، وقال الهيثمي: ورجال أحمد والكبير ثقات. وصححه الشيخ شاكر في «المسند». «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (751/2 برقم 1741). وهو الحديث الثاني عشر من «الأربعين النووية».

...»[231].

كلمة واحدة يثقل بها الميزان يوم القيامة، وترجح بها كفة الحسنات على كفة السيئات، فما أحوج الإنسان إلى أن يُثقل ميزانه حتى يكون من أهل العيشة الراضية في جنة عالية وحتى لا يخفّ ميزانه، فتصبح أمه هاوية: **{وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ 10 نَارٌ حَامِيَةُۢ}** [القارعة: 10، 11].

كان عطاء بن أبي رباح، التابعي الفقيه الجليل، يقول: إن من كان قبلكم - يريد الصحابة رضي الله عنهت - كانوا يعدّون من اللغو كل ما عدا كتاب الله وسنة رسوله، أو أمرًا بمعروف، أو نهيًا عن منكر، أو ذكرًا لله تعالى، أو ما لا بدّ منه في معيشة الدنيا. وما عدا ذلك يعتبرونه من اللغو، لأنهم كانوا يعلمون أن عليهم حافظين كرامًا كاتبين **{... عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ 17 مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ}** [ق: 17، 18]. فكانوا يستحون أن تُنشر صحائفهم التي أملوها فلا يجدوا فيها إلا ما لا ينفع «لا في الدين ولا في الدنيا».

فيا أيها الإخوة المسلمون:

حاولوا أن تتخلقوا بأخلاق عباد الرحمن، أن تكونوا إيجابيين، أن تُنزّهوا أنفسكم عما يفعله اللّاهون العابثون من الناس.

---

(231) جزء من حديث رواه مسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، عن أبي مالك الأشعري وأوله: «**الطهور شطر الإيمان**» وآخره: «**والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**». «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (الحديثان 118، 860)، وهو الحديث الثالث والعشرون من «الأربعين النووية».

قولوا الحق، واشهدوا الحق، ولا تحضروا مجالس الزور أيًا كان اسمها وعنوانها، وإذا مررتم باللغو - أيًا كان مضمونه أو عنوانه - فمرّوا عليه مر الكرام.

مرّ ابن مسعود رضي الله عنه - بمجلس لهو فلم يقف عنده، وبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «**لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريمًا**»، ثم تلا هذه الآية {**... وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا**}(232) [الفرقان: 72].

نسأل الله عز وجل أن يفقهنا في ديننا، وأن يغفر لنا ويرحمنا، إنه هو الغفور الرحيم.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

جاءتني أعداد من الرسائل، تشكو من ظاهرة أعتقد أنها ظاهرة مرضية، ولا تليق بمجتمع مسلم.

تشكو هذه الرسائل من قسوة بعض الأزواج على زوجاتهم.

هذا الرجل الذي يُعامل امرأته في بيته كأنها متاع من متاع البيت، لا رأي لها، ولا تُستشار في أمر، لا يبشّ في وجهها، لا ترى بسمة على شفتيه، لا

---

(232) ذكره ابن كثير في تفسير الآية (72) من سورة الفرقان، نقلًا عن ابن أبي حاتم وغيره. انظر: «تفسير ابن كثير» (329/3) ط. الحلبي.

تسمع منه كلمة طيبة.

والعجيب في هذه الرسائل، أن بعضها تقول: إن زوجها رجل طيب ومتدين، حريص على دينه، يُصلّي الصلوات الخمس، ويصلي بعضها في المسجد، ويقرأ القرآن، ويدرس الحديث، ويقرأ الكتب الدينية، ولكنّه مع أهله خشن الطباع، قاسي القلب، فظّ غليظ، وهذا في الحقيقة مما يُعجب له أشد العجب.

إن المسلم قُدوته في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان خير الناس لأهله، كما قال: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**»(233).

كان ألطف الناس معشرًا، وأرقهم حاشية، وألينهم جانبًا مع أهله.

كان - رغم همومه الكثيرة: همّ الدعوة، وهمّ الدولة - يقيم دينًا جديدًا، وينشئ أمة جديدة، ويقيم دولة جديدة، ويحارب في جبهات شتّى: جبهة الوثنيين المشركين، وجبهة اليهود الغادرين وجبهة النصارى المتربصين، وجبهة المجوس المغرورين، وجبهة الطابور الخامس في الداخل «المنافقين»، جبهات عديدة كان يواجهها النبي صلى الله عليه وسلم، ومع هذا لم يكن يشغله ذلك عن أمر بيته وأهله.

كان يصلي حتى تتورم قدماه، كان يبكي حتى تبلل دموعه لحيته، ولكن لم

---

(233) رواه ابن حبان في «صحيحه» عن عائشة رضي الله عنها، ورواه ابن ماجه من حديث ابن عباس، والحاكم إلا أنه قال: «**خيركم خيركم للنساء**» وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (553/2 - 554 برقم 1110).

يشغله حق ربه عن حق أهله، كما لم يشغله حق دعوته ورسالته وأمته عن حق أهله وزوجاته. فكان يجد من قلبه الكبير ما يتسع لملاطفة هؤلاء الزوجات. وكان يمازحهن ... يطيب خاطرهن ... يسمع لهن الأحاديث كحديث أم زرع، وهن اثنتا عشرة زوجة، كل واحدة لها قصة، ويقول لعائشة في النهاية: «**كنت لك كأبي زرع لأم زرع، إلا أنه طلقها وإني لا أطلقك**»[234].

وكان يشاورهن في كثير من الأمور، ويسمع لرأيهن.

شاور أم سلمة في الحديبية وأخذ برأيها[235]، على حين يزعم بعض الناس أن هناك حديثًا يقول: «**شاورهن وخالفوهن**»[236]، وهذا ليس بحديث، وهو مخالف للقرآن الذي يقول: {**فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ ...**} [البقرة: 233].

المرأة ليست كمًّا مهملًا، ليست حجرًا في البيت، إنما هي إنسان، إنسان يشارك إنسانًا، ولذلك جاء في الحديث: «**آمروا النساء في بناتهن**»[237] أي:

---

(234) قطعة من حديث طويل أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي. وقوله: «**إلا أنه طلقها وإني لا أطلقك**» هو من رواية «الزبير ابن بكار» كما ذكر الحافظ في «الفتح»، ومثله في رواية للطبراني، وزاد النسائي في رواية له والطبراني: قالت عائشة: يا رسول الله بل أنت خير من أبي زرع. «شرح السنة» للبغوي بتحقيق الأرناؤوط (9/168 - 180 برقم 2340).

(235) وذلك حينما أشارت عليه أن يخرج إلى أصحابه فيتحلل من إحرامه أمامهم دون أن يكلمهم، وقد فعل ذلك، فكلهم تحلل كما تحلل، وقبل ذلك كان أمرهم بالتحلل من إحرامهم فعز عليهم ذلك ولم يفعلوا.

(236) قال السخاوي: لم أره مرفوعًا. وانظر تعليقه في «المقاصد الحسنة» (رقم 585).

(237) رواه أحمد، وأبو داوود، عن ابن عمر رضي الله عنهب. وقال المنذري: فيه رجل

إذا أردت أن تزوج ابنتك فخذ رأي أمها، لأنها أعرف بها، وأخبر بعواطفها، وأدرى بما تخبئه عنك من أسرارها، وأقرب إليها، فحاول أن تتعرف على رأي الفتاة من أمها.

المرأة ينبغي أن يُعرف حقّها، لا ينبغي للمسلم أن يُهمل امرأته، وأن يدخل ويخرج وكأنه ليس أحد في البيت، كما يفعل بعض الناس للأسف، لا يكان يرى امرأته، لا يكاد يأكل معها، يأتي متأخرًا في الليل، ويذهب مبكرًا في النهار، وإذا جاء يأكل أو يشرب ثم يخرج، هذه ليست الحياة الزوجية في الإسلام.

الحياة الزوجية سكون ومودة ورحمة: **{وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ...}** [الروم: 21]، **{... هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ...}** [البقرة: 187].

أنظروا: «هن لباس لكم وأنت لباس لهن» بكل ما يُوحي به معنى اللباس من القرب والالتصاق والستر والدفء والزينة.

هكذا ينبغي أن تكون المرأة مع زوجها، وهكذا ينبغي أن يكون الزوج مع امرأته.

هذا الذي نسمع عنه ليس من أخلاق الإسلام في شيء.

المرأة إنسان يجب أن يُرعى حقّه، يجب أن تُؤنس المرأة وتُلاطف، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يمازح نساءه، سابق عائشة مرتين: مرة سبقته وهي

مجهول. انظر: «الفتح الرباني مع شرحه بلوغ الأماني» (161/16)، و«عون المعبود شرح سنن أبي داود» (119/6 برقم 2081).

صغيرة السن، خفيفة البدن، فلما سمنت بعد ذلك سابقها فسبقها، فقال لها ممازحًا: «**هذه بتلك**»(238) أي: مرة بمرة «تعادل».

أنظروا إلى هذا القلب الكبير الذي لم تشغله هموم الدعوة والجهاد عن ملاطفة أهله، هكذا ينبغي أن يكون المؤمن مع أهله، ينبغي أن يكون لطيف المعشر، وأن يكون إنسانًا كريمًا.

فيا أيها الإخوة المسلمون ... يا أيها الأزواج الصالحون:

حاولوا أن تكونوا محمديين ... قرآنيين، مع أهليكم وأزواجكم.

اللهم إنا نسألك العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة.

اللهم فقّهنا في ديننا، وعلمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا.

اللهم إنا نسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا، وأهلينا وأموالنا، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا، ونعوذ بعظمتك أن نُغتال من تحتنا.

اللهم أكرمنا ولا تُهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا.

اللهم اجعل يومنا خيرًا من أمسنا، واجعل غدنا خيرًا من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

---

(238) رواه ابن ماجه في «سننه» (1979) عن عائشة، وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح على شرط البخاري، كما رواه النسائي في «عشرة النساء» رقم (56) (ص90).

اللهم أعنا على شهوات أنفسنا، وأصلح فساد قلوبنا.

اللهم انصر الإسلام وأعز المسلمين، اللهم اجعل كلمة الإسلام هي العليا، واجعل كلمة الذين كفروا هي السفلى.

اللهم عليك بأعدائك أعداء الإسلام حيثما كانوا، اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم، اللهم رد عنا كيدهم، وفل حدهم، وأذهب عن أرضك سلطانهم، ولا تدع لهم سبيلًا على أحد من عبادك المؤمنين.

{... رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ} [آل عمران: 147].

{... رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [الحشر: 10]، اللهم آمين.

وصل اللهم على عبدك ونبيك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه: **{إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا}** [الأحزاب: 56].

وأقم الصلاة.

* * *

صفات عباد الرحمن

11- التجاوب مع آيات الله

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

لا زلنا نعيش في رحاب القرآن، في صحبة عباد الرحمن، الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه، وأثنى عليهم، وشرفهم بالإضافة إلى ذاته المقدسة.

ووقفنا في أوصاف عباد الرحمن عند قوله تعالى: **{وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا}** [الفرقان: 73].

هذه صفة من صفات عباد الرحمن: التجاوب مع آيات الله، قلوبهم مفتوحة، وعيونهم وآذانهم مع هذه الآيات، لا يقعون عليها وقوع الصم ولا العميان، ولكن لهم آذان صاغية، وعيون راعية، وقلوب واعية.

ولكن ما هي آيات الله؟

آيات الله نوعان: آيات تكوينية، وآيات تنزيلية.

الآيات التكوينية: هي آيات الله في الكون، آيات الله في الأنفس والآفاق، آيات الله التي بثها في كل مكان لترشد الناس إليه، وتدلهم عليه، كما قال القائل:

فيا عجبا كيف يعصى الإله أو في كيف يجحده الجاحد؟
ولله في كل تحريكة وفي كل تسكينة شاهد

وفــي كــل شــيء لــه آيــة تــدل علــى أنــه الواحــد

آيات الله مبثوثة وعباد الرحمن وأهل الإيمان يتجاوبون معها، كما قال الله عز وجل: **{إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ190 ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ}** [آل عمران: 190، 191].

آيات الله الآفاقية والأنفسية ... آيات الله في النفس: {وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [الذاريات: 21]، وفي الآفاق ... في السماء والأرض **{وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ}** [الذاريات: 20]، **{أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ}** [الأعراف: 185]، **{قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ}** [يونس: 101].

الذين ينظرون إلى هذه الآيات بأعين عمي، وقلوب غلف، وآذان صم، لا ينتفعون منها بشيء، ختم على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة، فهم صم بكم عمي لا يرجعون، ولا يعقلون.

هذه آيات الله الكونية الآفاقية.

وهناك آيات الله التنزيلية، التي أنزلها الله على رسله: آيات الوحي، التي ختمها الله بالقرآن الكريم، وتجلى الله لعباده في كلماته، التي أنزلها على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فهو يتعرف إلى عباده بهذه الكلمات من النور، أو بهذا النور من الكلمات.

أنزل الله على عبده ورسوله محمد هذا القرآن، ليدل الناس عليه، ليفتح

قلوبهم به: {**ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ**} [الزمر: 23].

أنزل الله على هذا القرآن العظيم، فيه صفاته، وأفعاله، فيه أسماؤه الحسنى وصفاته العليا، فيه صفات المؤمنين وصفات الكافرين والمنافقين، فيه بيان مصاير هؤلاء وهؤلاء، فيه ذكر الآخرة والجنة والنار، فيه الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، فيه الأمر والنهي، والحكم والأمثال والقصص والمواعظ، وصدق الله العظيم حين يقول: {**... وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ**} [النحل: 89].

هذا القرآن آيات الله، أعجز بها البشر أن يأتوا بمثلها، أو أن يأتو بعشر سور من مثل هذا القرآن أو أن يأتوا بسورة مثله، ولكنهم غلبوا، وانقطعوا وحقت عليهم كلمة الله: {**قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا**} [الإسراء: 88].

كان القرآن هو الآية العظمى، والمعجزة الكبرى لمحمد صلى الله عليه وسلم، كانت آيات الأنبياء من قبل آيات حسية، كونية، ومن شأن الآيات الكونية والحسية، أن تنفذ وتنتهي بمجرد وقوعها، فلولا أن القرآن أخبرنا بأن موسى عليه السلام انقلبت العصا له حية، وأن عيسى عليه السلام أبرأ الأكمه والأبرص، ما عرفنا شيئًا عن ذلك، فهي أصبحت معجزة تاريخية.

أما القرآن فهو معجزة باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لأنه معجزة علمية أدبية عقلية، ولهذا لما طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم آية

من الآيات الكونية، قال لهم: {أَوَ لَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ} [العنكبوت: 51]، القرآن آية كافية، لكل من كان له عقل وكل من كان في صدره قلب: {أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ} [ق: 37](239).

فهذا القرآن هو معجزة رسول الله الدائمة، وآيته الباقية، ضمن الله كلماته الإعجاز، فهو يدخل إلى العقول والقلوب بغير استئذان، كتاب ميسر للذكر، يفهمه الخاص والعام، كل على قدر فهمه: {... فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا} [الرعد: 17]، {وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ} [القمر: 17].

سمعه المشركون فتأثروا به، وقال قائلهم: والله إن لهذا الكلام لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يُعلى، وإنه ليس من كلام الجن ولا من كلام البشر.

سمعه الجن فأثر فيهم، وقال: {... إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا 1 يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا} [الجن: 1، 2]، {وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ 29 قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ} [الأحقاف: 29، 30].

سمعه جماعة من النصارى فدمعت أعينهم، وخشعت قلوبهم، وآمنوا بالله ورسوله، هم الذين قال الله فيهم: {وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ 83

(239) وأولها: {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ ...}.

وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ} [المائدة: 83، 84].

هذا هو القرآن، يسمعه المؤمنون فتوجل القلوب، وتدمع العيون، وتخشع الأفئدة، كما وصف الله المؤمنين الصادقين بقوله: **{إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ}** [الأنفال: 2].

المؤمنون يسمعون القرآن فيزداد إيمانهم، والمنافقون والزائغون يسمعون القرآن فيزيدهم رجسًا على رجسهم والعياذ بالله: **{وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ 124 وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ}** [التوبة: 124، 125].

ولذلك كان بعض الصحابة يقول: ما من أحد يُجالس القرآن إلا وخرج بزيادة أو نقصان، فإن الله تعالى يقول: **{وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا}** [الإسراء: 82]، **{... قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ}** [فصلت: 44]. لا يسمعون ولا يعقلون، هذا شأن الناس مع القرآن.

فقس نفسك من أي الناس أنت؟ من أي الأصناف أنت مع القرآن؟ هل يزداد إيمانك؟ هل تزداد خشيتك؟ هل يتحرك قلبك؟ هل تدمع عينك؟ أم أنك تقرأ القرآن كما تقرأ كلام الناس، لا تتأثر ولا تنفعل؟

الله تعالى وصف أناسًا من أهل الكتاب بقوله: **{... إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗاۤ107 وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا108 وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا}** [الإسراء: 107 - 109].

كان ابن عباس يقول: إذا قرأتم سجدة «سبحان»(240)، فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا، فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه!

إن على الإنسان المؤمن أن يكون مع القرآن متفتح القلب، متفتح الأذن، متفتح العقل، ولا يقرأه قراءة المنافقين، أو يسمعه سماع المنافقين، الذين قال الله في شأنهم: **{وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ** «لم يفهمو ولم يعقلوا» **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ}** [محمد: 16].

هناك المنافقون، وهناك الكفار المحجوبون: **{وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا 45 وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا ...}** [الإسراء: 45، 46].

على المؤمن أن يفتح قلبه للقرآن، أن يهتك حجب الغفلة والشهوة والكبر عن قلبه، فهذه الحجب هي التي تمنع الفهم للقرآن، والتأثر به.

الغفلة: أخطر ما يحجب القلب عن الرب، كما قال تعالى: **{... وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا}** [الكهف: 28]، **{... أُوْلَٰٓئِكَ**

(240) أي آية السجدة التي في سورة «الإسراء»، وقد سميت سورة «الإسراء» سورة «سبحان» لأنها افتتحت بهذه الكلمة.

كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ} [الأعراف: 179]، الغافلون عن الله ... عن الآخرة ... عن المصير ... عن رسالة الإنسان في هذه الحياة.

الشهوة: **{فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا}** [مريم: 59]، ذكر الله هذا الصنف بعد صنف آخر أثنى عليه، بعد أن ذكر من ذكر من النبيين، قال: **{أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا}** [مريم: 58].

الكبر: كما قال الله تعالى: **{سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ** «يصرفهم الله عن فهم آياته والتأثر بها» **ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا ...}** [الأعراف: 146].

على المؤمن إذا أراد أن يقرأ القرآن أن يفتح عينه وأذنه وقلبه، أن يرتل القرآن ترتيلًا، أن يحاول التفهم والتدبر في هذا الكلام الإلهي، فإن الله أودع فيه أسراره وحكمه.

القرآن نزل ليُتدبر: **{كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ}** [ص: 29]، **{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ}** [محمد: 24]، **{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا}** [النساء: 82]، فلا بد من التدبر.

تدبر القرآن حتى تحاول أن تتأثر به، فبعد التدبر يكون التأثر.

تجاوب مع كلام ربك إليك، كما قال الله تعالى: **{لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ**

جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ} [الحشر: 21]، لو عقل الجبل لتصدع وخشع من هذا القرآن.

ولكن بعض القلوب أشد من الجبال والصخور والحجارة، كما وصف الله قلوب بني إسرائيل: **{ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ}** [البقرة: 74].

حاول أن تتدبر القرآن وتتأثر به، قال محمد إقبال رحمه الله : ما نفعتني وصية كما نفعتني وصية لأمي، قال لي وأنا صغير: يا بني اقرأ القرآن كأنما عليك أُنزل.

وقال بعض السلف: كُنت لا أجد للقرآن حلاوة، حتى من الله علي، فأصبحت أتلو القرآن كأني أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلوه على أصحابه، حتى رقّاني الله درجة، فأصبحت أقرأه كأني أسمعه من جبريل يلقيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم رقيت درجة أعلى وأرفع، فصرت أقرأه كأني أسمعه من المتكلم به عز وجل.

درجات بعضها فوق بعض.

حاول أن تقرأ القرآن قراءة من يشفع له القرآن يوم القيامة، في الحديث: **«اقرأوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه»**(241).

---

(241) رواه مسلم عن أبي أمامة الباهلي، وتمامه، «**اقرأوا الزهراوين: البقرة، وسورة آل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنما غمامتان ـ أو غيايتان ـ أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما، اقرأوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة**». «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (الحديثان: 780، 806).

بعض الناس يشفع لهم القرآن، ويشهد لهم القرآن، وبعض الناس يتلون القرآن والقرآن يلعنهم، هكذا قال بعض السلف[242]: «رب تال للقرآن والقرآن يلعنه»، لأنه يقرأ: {... أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ} [هود: 18] وهو من الظالمين ... {... أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ} [النور: 7] وهو من أهل الكذب ... «كبر مقتًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون» وهو من الذين يقولون ما لا يفعلون والعياذ بالله.

اقرأ القرآن قراءة المتدبر ... المتأثر ... الذي يقرأ للعمل لا لمجرد المتعة.

كان ابن مسعود يقول: أُنزل القرآن عليهم ليعملوا به، فاتخذوا دراسته عملًا، إن أحدكم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يُسقط منه حرفًا، وقد أسقط العمل به[243].

لا يكفي أن تقرأ القرآن، ولا أن تحفظ القرآن، وإنما المهم: أن تعمل بالقرآن، هكذا كان الصحابة، وهكذا كان السلف، كانوا يحفظون السورة لا يجاوزونها حتى يتقنوها علمًا وعملًا، وتطبيقًا على أنفسهم. قال الحسن: كان من قبلكم يعتبرون القرآن رسائل من ربهم إليهم، يقرأونها بالليل وينفذونها بالنهار.

ماذا تفعل حينما تأتيك رسالة من حبيب أو صديق؟ إنك تقرأها بعناية، وتحاول أن تعرف كل ما فيها حرفًا حرفًا، وأن تنفذ ما طلبه منك إن كان له

---

(242) هو الصحابي الجليل: أنس بن مالك، كما نقل عنه الغزالي في الإحياء (274/1) ط. دار المعرفة - بيروت.

(243) ذكره الغزالي في «الإحياء» (275/1) ط. دار المعرفة - بيروت.

أهمية عندك، فماذا تفعل بما يطلب الله تعالى منك؟

إننا في حاجة إلى أن نقرأ القرآن، قراءة المؤمنين الواعين الخاشعين، لا قراءة الغافلين، ولا قراءة المستكبرين، ولا قراءة الجاحدين، ولا قراءة الذين في قلوبهم مرض.

إننا في حاجة إلى أن نسمع القرآن، لنتخذ منه نبراسًا لحياتنا، لنغير به حياتنا كما غير الصحابة به حياتهم.

أجل، ما الذي غير حياة الصحابة؟ إنه القرآن، إنه الذي أحدث ذلك الزلزال النفسي والاجتماعي في الحياة العربية، وغير الأنفس تغييرًا كليًا.

جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسأله أن يُقرئه القرآن، فقرأ عليه بعض المُفصل - أواخر القرآن - حتى وصل إلى سورة الزلزلة، وفي آخر السورة قوله تعالى: **{فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ 7 وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ}** [الزلزلة: 7، 8]، فقال الرجل: حسبي يا رسول الله، لا أبالي أن أسمع غيره «الآيتان وضعتا له القاعدة والقانون: إن الجزاء من جنس العمل، وعلى قدر العمل، ولو كان مثقال الذرة، خيرًا أو شرًا». فعجب الصحابة من رجل لا يريد أن يستزيد من القرآن، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**انصرف الرجل وهو فقيه**» ما دام حسبه آية واحدة، وفي قصة مماثلة قال: «**أفلح الرويجل، أفلح الرويجل**»(244) ما دام قد فهم هذا.

---

(244) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث «الإحياء» (287/1): حديث: الرجل الذي جاء ليتعلم فانتهى إلى قوله تعالى: {**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ 7 وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ**} فقال يكفيني هذا وانصرف، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**انصرف الرجل وهو فقيه**». أخرجه أبو داود والنسائي في «الكبرى» وابن حبان والحاكم وصححه من حديث

كان الإمام الشافعي يقول: إن في القرآن سورة وجيزة، لو عمل بها الناس لكفتهم، وهي قوله تعالى: {**وَٱلۡعَصۡرِ 1 إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ 2 إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ**} [العصر: 1 - 3].

هل قرأنا القرآن - أيها الإخوة - كما ينبغي؟ هل استمعنا إليه كما ينبغي؟ هل قمنا بحقه كما ينبغي؟

نحن نحمد الله أن القرآن أصبح يتلى في الليل وفي النهار، ولكن من منا يسمع القرآن ليتدبر ويعمل به؟ من منا يتأثر بالقرآن إذا سمعه؟ يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**اتلوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا**»(245)، إذا لم يحضرك البكاء فتكلف البكاء ... تحزّن(246)، وإذا لم تجد البكاء فابك على نفسك أنّك لا تجد هذه العين الدامعة.

سأل عبد الله بن عروة بن الزبير جدّته أسماء بنت أبي بكر - ذات النطاقين - قال لها: يا جدة كيف كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا سمعوا القرآن أو قرأوه؟ قال: يا بني كانوا كما نعتهم الله عز وجل، تدمع الأعين،

عبد الله ابن عمرو، قال: «أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أقرئني يا رسول الله ...» الحديث، وفيه: فأقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا زلزلت حتى فرغ منها فقال الرجل: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهما أبدًا، ثم أدبر الرجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أفلح الرويجل أفلح الرويجل**».

(245) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث «الإحياء» (277/1): أخرج ابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص بإسناد جيّد.

(246) ووجه إحضار الحزن أن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود، ثم يتأمل تقصيره في أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكي، فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء فإن ذلك أعظم المصائب. من كلام الإمام الغزالي في «الإحياء» (277/1).

وتقشعر الجلود، وتخشع القلوب.

هكذا كانوا، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الناس إذا سمعوا القرآن، أما أن يقرأ القرآن لمجرد الطرب ... لمجرد إمتاع الأسماع، فليس هذا هو المطلوب.

أما أن يكون القرآن نسمعه ونحن لاهون، ونحن عنه غافلون، لا نقرأه لنعمل، ولا تقرأه لنحيى به أنفسنا ونحيي به مجتمعنا، فما هذا من شأن القرآن.

ليس هذا هو القرآن الذي أحدث التغيير والزلزلة في المجتمع الإنساني الأول.

ولهذا ليس عجبًا أن نجد إذاعات غير المسلمين - في بلاد الكفر - تذيع القرآن!

لا غرو أن تسمع القرآن من إذاعة لندن، ولا غرو أن تسمع القرآن من إذاعة إسرائيل، لأنهم مطمئنون أن القرآن لم يعد يحرك فينا ساكنًا أو ينبه منا غافلًا.

لو قرأن ا القرآن سمعناه كما كان الصحابة والسلف الأول، لغير ما بأنفسنا ... لأحدث فينا تلك الثورة الروحية العظيمة ... لجدد إيماننا من جديد ... لجعلنا خير أمة أخرجت للناس.

نحن في حاجة إلى أن نحدد موقفنا مع القرآن:

هل نحن متجاوبون مع كتاب الله؟

إن الله سيسألنا يوم القيامة عنه، وسيكون شاهدًا لنا أو علينا، نخشى أن يقول القرآن: يا رب هؤلاء أهملوني، حفظوا حروفي وضيعوا حدودي،

نخشى أن يقول الرسول: {... يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا} [الفرقان: 30]، لم يهجروا قراءته، ولكن هجروا تطبيقه والعمل به، كانوا يقرأونه على الأموات في المقابر، ولا يحكمونه في الأحياء في المحاكم.

أصبح كتاب الله مهجورًا، وأصبح العمل به مضيعًا، إن الله سائلنا عن هذا القرآن.

عباد الرحمن هم أولئك المتجاوبون مع آيات القرآن، مع آيات الله - هم قرآنيون يعيشون مع هذا القرآن، يطبقونه على أنفسهم، لهم في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، فقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه صلى الله عليه وسلم فقالت: **«كان خلقه القرآن»**(247)، من فتح المصحف عرف أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ... أنه كان صورة تطبيقية، كان مثالًا مجسمًا، كان قرآنا حيًا يسعى بين الناس على قدمين، كان مصحفًا مفسرًا، لا يفسر بمجرد الكلام بل بالعمل ... بالسلوك ... بالتطبيق ... بالتعامل مع ربه ... مع أهله ... مع أصحابه ... مع أعدائه.

ليكن كل مؤمن - يحاول أن يكون من عباد الرحمن - قبسًا من هذا النور المحمدي، ليكن له في رسول الله أسوة حسنة، وليكن خلق كل منا: القرآن.

نسأل الله عز وجل أن يوفقنا ويجعلنا من أهل القرآن، ويجعل القرآن شفيًا لنا يوم القيامة.

استغفروا الله يغفر لكم، وادعوه يستجب لكم، إنه هو الغفور الرحيم.

---

(247) رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود، عن عائشة رضي الله عنها. «فيض القدير» (170/5) برقم (6831).

الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة:

أرسلت إلى إحدى الأخوات ورقة تقول: في إحدى الجمعات الماضية، خرجت إحدى المصليات، وكانت تلبس لباسًا غير كامل الاحتشام، لا يتفق مع الأدب الإسلامي الذي فرضه الله تعالى على المرأة المسلمة.

وأنا استغرب هذا في الحقيقة، فالمسلمة التي تأتي إلى هذا المسجد، ولا شك أنها تريد وجه الله عز وجل وتريد أن تستمع وتنتفع، ولعلها - غالبًا - في فترة انتقال، لعل هناك نوعًا من المسلمات يريد أن يغير حياته، فهو في بداية الطريق.

ولذلك نرجو من الأخوات المؤمنات الملتزمات،ألا يسارعن بالإنكار على هذا النوع، حتى لا يهربن من مثل هذا الموقف، دعوهن، دعوا مثل هذه الأخت تحضر مرة ثم مرة، حتى يفتح الله قلبها، ويشرح صدرها، ويهديها إلى التي هي أقوم.

لا بد أن نأخذ الناس بالتدريج، لا بد أن نتعلم الحكمة والموعظة الحسنة، الناس جميعًا ليسوا في مرتبة واحدة، إن الله وصف الأمة المصطفاة التي تتلقى القرآن بقوله: **{ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَاۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ}** [فاطر: 32]، درجات ومراتب يجب أن نراعيها، فمن كان في أول الطريق فلنسامحه حتى يرقيه الله سبحانه وتعالى - بهداية منه - إلى مرتبة أعلى، ثم مرتبة أعلى.

هناك بعض المقصرين والمقصرات علينا أن نأخذهم بالرفق، و«**إن**

الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»(248)، و«**إن لله يحب الرفق في الأمر كله»**(249)، علينا أن نأخذهم بالرفق وننصحهم، ليرتقوا من منزلة إلى ما هي أعلى منها.

بعض الناس «ظالم لنفسه» كما أشارت الآية، أي أنه يقصر في بعض الواجبات، ويرتكب بعض المحرمات، ولكنه قد ينتقل إلى المرتبة الأعلى، وهي مرتبة «المقتصد»، وهو الذي يقف عند حدود أداء الواجبات وترك المحرمات، لا يزيد على الواجب شيئًا، ولا يزيد على ترك المحرم.

ولكنه قد يرتقي إلى مرتبة أعلى، فيصبح «سابقًا بالخيرات بإذن الله»، لا يكتفي بأداء الواجبات، بل يفعل السنن، ويفعل المستحبات، ولا يكتفي بالوقوف عند ترك المحرمات، بل يترك المشتبهات، ويترك المكروهات، بل يترك بعض الحلال حذرًا من الوقوع في الحرام، كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي: «**لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين، حتى يدع ما لا بأس به حذرًا مما به بأس»**(250).

إنها مراتب ودرجات، فلا تطالبوا الناس أن يكونوا كلهم في درجة واحدة، ولا تطالبوا المبتدئ بما يطالب به المتوسط، ولا تطالبوا المتوسط بما يطالب به المنتهي، **{وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ}**

---

(248) رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها «شرح السنة» للبغوي (75/13) الحديث (3493).

(249) أخرجه البخاري، ومسلم، عن عائشة رضي الله عنها «شرح السنة» للبغوي بتحقيق الشاويش والأرناؤوط (73/13).

(250) رواه الترمذي وقال: حسن غريب، ورواه ابن ماجه، والحاكم، عن عطية بن عروة السعدي، ورمز له السيوطي بالصحة. «فيض القدير» (443/6) برقم (9942).

[الأحقاف: 19].

نسأل الله أن يتوب علينا جميعًا، وأن يصلح فساد قلوبنا، وأن يعيننا على أنفسنا وعلى الشيطان.

اللهم اجعل يومنا خيرًا من أمسنا، واجعل غدنا خيرًا من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة. اللهم اغننا بحلالك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك، وبفضلك عمن سواك، اللهم انصر الإسلام وأعز المسلمين، اللهم اجعل كلمة الإسلام هي العليا، واجعل كلمة الذين كفروا هي السفلى، اللهم انصر إخواننا المجاهدين في كل مكان، اللهم واخذل أعداء الإسلام في كل مكان، اللهم أذل دولهم، وأذهب عن أرضك سلطانهم، ولا تدع لهم سبيلًا على أحد من عبادك المؤمنين.

{... رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ} [آل عمران: 147].

{... رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ} [الحشر: 10].

وصلوا على نبيكم صلى الله عليه وسلم، فإن الله يقول: **{إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا}** [الأحزاب: 56].

وأقم الصلاة.

* * *

صفات عباد الرحمن

12- سؤال الله صلاح الأزواج والذرية والإمامة في الخير

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

لازلنا في رحاب القرآن، نعيش في صحبة عباد الرحمن، هؤلاء الذين أكرمهم الله تعالى فذكرهم في كتابه، وعدد أوصافهم، وبين أحوالهم في نهارهم وليلهم، مع أنفسهم ومع ربهم ومع الناس، مع الناحية الإيجابية، ومع الناحية السلبية، مع الأوامر والنواهي، فكانت لهم تلك الأوصاف الطيبة، التي ذكرها الله تعالى في خواتيم سورة الفرقان.

وبقي من أوصاف عباد الرحمن وصف واحد، وهو قول الله تعالى : **{وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا}** [الفرقان: 74].

ما معنى هذا الوصف؟

إنهم يدعون الله تعالى ، ويتضرعون إليه، ويبتهلون إلى وجهه الكريم، يسألونه أن يهب لهم من أزواجهم وذرياتهم ما تقر به أعينهم، وتسر به قلوبهم، وتنشرح له صدورهم، وأن يجعلهم أئمة وقدوة للمتقين.

الدعاء يدل على وجهة الإنسان، من كانت وجهته الدنيا انحصر دعاؤه وطلبه في الدنيا، ومن كانت وجهته الآخرة فهمه في الآخرة.

ذكر الله لنا مواقف بعض الناس في موسم الحج، فقال تعالى: **{فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ** «ليس له في الآخرة من حظ ولا نصيب» **وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ}** [البقرة: 200، 201]، الأولون مذمومون، وهؤلاء ممدوحون، محمودون، لأنهم جمعوا بين الحسنتين: حسنة الدنيا وحسنة الاخرة.

ومن أراد أن يعرف طموحات المؤمنين وآمالهم، ومتعلقات قلوبهم، وإلى أين تتجه أمانيهم، فليتأمل أدعيتهم في القرآن نجد هذه الأدعية تمثل ما يطمحون إليه ... ما يحرصون عليه ... ما يضعونه نصب أعينهم.

فنجد الراسخين في العلم - كما ذكرهم الله في سورة آل عمران يقولون: **{رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ}** [آل عمران: 8].

نجد أولى الألباب - في خواتيم سورة آل عمران - يقولون: **{رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ 193 رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ}** [آل عمران: 193، 194].

نجد الفتية المؤمنين من أهل الكهف يقولون - حينما أووا إلى كهفهم: **{... رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا}** [الكهف: 10].

نجد إبراهيم الخليل يتجه إلى ربه ويقول: **{رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ 40 رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ}**

[إبراهيم: 40، 41]

هكذا نجد آمال المؤمنين في أدعيتهم.

الإنسان يدعو بما هو مشغول به، بما يهمه أمره، ولذلك لو تأملنا أدعية النبي صلى الله عليه وسلم، واستعاذاته - مما استعاذ الله تعالى منه - نعرف فيم يفكر، وإلام كان يطمح، وعلام كان يحرص.

لقد كان من دعائه صلى الله عليه وسلم: «**اللهم اصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، واصلح لي آخرتي التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر**»(251).

كان يدعو بأدعية جامعة، وكان يستعيذ بالله من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق، كان يستعيذ بالله من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء، كان يستعيذ بالله من الهم والحزن، ومن العجز والكسل، ومن الجبن والبخل، ومن غلبة الدين وقهر الرجال.

فمن هذا وذاك نعرف: كيف يفكر المسلم؟ وفيم يطمح؟ وإلام يقصد؟

وهذا هو شأن دعاء عباد الرحمن هنا، فقد عرفنا منه: فيم يفكرون؟ وإلام يرنون؟ وبماذا يدعون؟

لقد سجل القرآن من أوصافهم قبل ذلك: {**وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا**} [الفرقان: 65] فدل هذا الدعاء على اهتمامهم

---

(251) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه «فيض القدير» (137/2) برقم (1514).

بأمر آخرتهم ونجاتهم من عذاب الله.

وفي هذا الدعاء اهتموا بأمر حياتهم، ولكنهم لم يهتموا بشهواتهم أو متعهم في هذه الدنيا، إنما اهتموا بأمر أعظم وأغلى وابقى.

إن أهم ما دعوا الله سبحانه وتعالى به، وما حرص القرآن أن يسجله في أوصافهم، أنهم: {**... يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**} [الفرقان: 74] أي: أنهم ليسوا مشغولين بأنفسهم وحدها، إنهم حريصون على أن يمتد الخير والهدى فيمن حولهم، وأقرب الناس إليهم: أزواجهم وذرياتهم. فهم {**... يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ...**}.

يدعون الله أن يجعل لهم من أزواجهم: من نسائهم، ومن ذرياتهم: من أبنائهم وبناتهم وأحفادهم، ما تقر به أعينهم، وإنما تقر أعينهم بهم إذا وفقوا إلى طاعة الله وابتعدوا عن معصية الله، إذا ساروا في طريق الخير.

إنما تقر عين الإنسان المؤمن بامرأة صالحة تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، وتحفظه إذا غاب، وتعينه على طاعة الله، تحرضه على الإيمان بالله ... على تقوى الله، تحذره من المعصية، ولا تقول له: ألست كفلان وفلان الذين جمعوا الألوف والملايين؟ ما أخيبك من رجل! تعيره بالفقر فيركب مركب السوء فيهلك والعياذ بالله.

كانت المرأة من نساء السلف الصالح تقول لزوجها - إذا خرج إلى ا لكسب يضرب في الأرض ويبتغي من فضل الله - يا أبا فلان، إياك وكسب الحرام، فإنا نصبر على الجوع والطوى، ولا نصبر على حر النار وغضب الجبار.

هذه الكلمة من امرأة صالحة تجعل الرجل يتوقف مائة مرة ومرة حينما تراوده نفسه الأمارة بالسوء، أن يخوض في الحرام، ويرتكب الموبقات، ويقبل الرشوة، أو يأكل أموال الناس بالباطل، أو يحتكر أقوات الناس، أو يغلي على الناس أسعارهم، إلى آخر ما يفعله الناس ليكسبوا من أي طريق.

ما أحوج المؤمن إلى امرأة تقول له: قف عند حد الله ... تحرّ الحلال ... اجتنب الحرام ... بل اتق الشبهات: « **... فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ...»**(252)، «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»**(253).

المرأة التي تقر بها أعين عباد الرحمن هي المرأة الصالحة، التي قال عنها صلى الله عليه وسلم: «**الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة»**(254)، ليس مجرد المرأة الجميلة، أو المرأة الغنية، أو المرأة الحسيبة النسيبة، قد

---

(252) جزء من حديث النعمان بن بشير الذي رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، وأبو داود، وابن ماجه، وهو من أحاديث «الأربعين النووية». «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (506/2) برقم (966).

(253) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، ورواه أحمد وصحح شاكر إسناده، ورواه النسائي، وابن حبان في «صحيحه»، ورواه الحاكم بزيادة وصححه، ووافقه الذهبي، ورواه في موضع آخر وقال الذهبي: سنده قوي، وهو من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهب، ورواه الطبراني بنحوه من حديث واثلة بن الأسقع، وهذا الحديث هو الحادي عشر من «الأربعين النووية». «المنتبقى من كتاب الترغيب والترهيب» الحديثان (971، 1773).

(254) رواه مسلم، والنسائي، وابن ماجه بلفظ قريب، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهب. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (550/2) الحديث (1097).

يكون هذا مما يتزوج من أجله الناس، ولكن أهم من ذلك كله: المرأة المتدينة، التي تخاف الله، وتريد لزوجها أن يعيش في دائرة الحلال، ولأولادها أن يتربوا في عيشة من حلال.

هذه هي المرأة الصالحة، إنها كنز عظيم يحرص الناس عليه.

جاء في الحديث: «**ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عز وجل خيرًا له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله**»(255) ثم تلا: {**فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ...**} [النساء: 34] فهي عابدة لله قانتة ترعى حق الله، وهي تحفظ غيب زوجها: تحفظه في نفسه، وتحفظه في عرضه، وتحفظه في أسرارهن وتحفظه في ماله، وتحفظه في ولده، كما جاء في الحديث: «**خير نساء ركبن الإبل** «أي من نساء العرب» **صالح نساء قريش: احناه على ولد في صغره، وارعاه على زوج في ذات يده**»(256) أي تحرص على ماله، ومن حرصها عليه ألا يكسب هذا المال إلا من حلال، ولا ينمي إلا بطريق حلال.

---

(255) رواه ابن ماجه عن أبي أمامة، ورمز له السيوطي بعلامة الحسن، «الجامع الصغير» (142/2) قال المناوي: وليس كما قال فقد ضعفه المنذري بعلي بن زيد، وقال ابن حجر في «فتاويه»: سنده ضعيف لكن له شاهد يدل على إن له أصلًا. «فيض القدير» (419/5).

(256) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال المناوي في «الفيض»: وسببه أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب أمه هانئ فاتذرت بكبر سنها وأنها أم عيال فرفقت بالنبي صلى الله عليه وسلم أن لا يتأذى بمسنة ولا بمخالطة أولادها فذكره. «فيض القدير» (492/3) برقم (4090).

هذه الزوجة هي قرة العين لزوجها، وهي عنصر أساسي من عناصر السعادة في الحياة، كما قال صلى الله عليه وسلم: «**من سعادة ابن آدم: المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح**»(257). وعنه صلى الله عليه وسلم: «**أربع من أعطيهن فقد أعطي خير الدنيا والآخرة: قلبًا شاكرًا، ولسانًا ذاكرًا، وبدنًا على البلاء صابرًا، وزوجة لا تبغيه حوبًا في نفسها وماله**»(258).

هذا من خير الدنيا والآخرة، هذا خير ما يكنز الإنسان: المرأة التي تعينه على دينه وتكون عونًا معه على الشيطان، ولا تكون مع الشيطان عليه فيصبح معه شيطانان: شيطان من داخل نفسه، وشيطان من داخل بيته.

كانت المرأة من نساء السلف الصالح تحرض زوجها على الجهاد ... على البذل، ليخرج في سبيل الله، ليساهم في بناء الحضارة الإسلامية، وإقامة دولة الإسلام، وإعلاء كلمة الله في الأرض، ومقاومة الطواغيت الذين يتربصون السوء بالأمة الإسلامية.

كانت تحرضه على الجهاد، فإذا جاء المثبطون يقولون لها: كيف تركك هذا الرجل؟ ومن أين تأكلين؟ وكيف ترزقين لله؟ فتقول لهم - في إيمان الواثقة وثقة المؤمنة - : إن أبا فلان - تعني زوجها - منذ تزوجته عرفته أكالًا

---

(257) جزء من حديث سعد بن أبي وقاص، قال المنذري: رواه أحمد بإسناد صحيح، والطبراني والبزار، والحاكم وصححه، وابن حبان، وقال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح. انظر: «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (550/2) برقم (1099).

(258) قال المنذري: رواه الطبراني في «الكبير والأوسط»، وإسناد أحدهما جيد، وقال الهيثمي: رجال الأوسط رجال الصحيح. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (550/2) برقم (1098)، والحوب هو الإثم.

ومعرفته رزاقًا، فلئن ذهب الأكل لقد بقي الرزاق!

هذه هي المرأة التي تكون قرة عين، أما المرأة الأخرى فهي في فواقر الدهر، كما جاء في الحديث: «**ثلاثة من الفواقر** «أي من المصائب التي تكسر فقار الظهر»: **إمام إن أحسنت لم يشكر، وإن أسأت لم يغفر، وجار سوء إن رأي خيرًا دفنه وإن رأى سرًا أذاعه** «الخير يغطي عليه والشر يذيعه في كل مكان كأنه ميكرفون، لا يصبر على جاره ولا يراعي حقه»، **وامرأة إن حضرت آذتك، وإن غبت عنها خانتك**»(259). والعياذ بالله.

وكما جاء في الحديث الآخر: «**المرأة السوء، والمسكن السوء، والمركب السوء**»(260).

فهذه مصادر النكد في حياة الناس، في الداخل والخارج.

{... رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ...} [الفرقان: 74].

ومن أراد قرة العين فعليه - من أول الأمر - أن يختار ذات الدين، التي تقر عينه، وتشرح صدره، وتعينه في أمر دينه، كما جاء في الحديث الصحيح: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك**»(261).

---

(259) من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه، قال: قال المنذري: رواه الطبراني بإسناد لا بأس به، وقال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه محمد بن عصام بن يزيد، ذكره ابن أبي حاتم ولم يجرحه ولم يوثقه وبقية رجاله وثقوا. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (690/2، 691) برقم (1529).

(260) هو جزء من حديث سعد بن أبي وقاص السابق، انظر: تخريجه (ص 169).

(261) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، عن أبي هريرة رضي الله

أهم هذه الأربع التي يحرص الناس عليها: ذات الدين «**فاظفر بذات الدين**» لتكون عونًا لكن لتكون معك في معركة الحياة ولا تدعك أبدًا.

{... رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ...}.

وكما يدعو الرجال بهذا، تدعو النساء أيضًا. تدعو المرأة أن يهب الله لها زوجًا صالحًا، يأمرها بإقامة الصلاة والزكاة - كما كان يفعل إسماعيل عليه السلام **{وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا}** [مريم: 55] - يدعوها إلى الخير، ويحذرها من الشر، وليس ككثير من أزواج هذه الأيام، الذين لا يهمهم صلاة نسائهم ولا صيامهن، ولا يسألون: أقمن حدود الله أم ضيعنها؟ بل هناك من الأزواج من ضاع في طريق الشيطان، ويريد أن يضيع أهله معه.

ما أكثر ما تأتيني الرسائل، وما أكثر ما تأتيني المكالمات، تشكون من صنف من الناس ... من رجل يحرض زوجته على المعصية، يأمرها أن تقدم له الطعام في نهار رمضان، بل تقدم له الخمر في نهار رمضان.

ما أكثر الأزواج الذين تشكو منهم زوجاتهم، يشكين من أفعالهم ... من تركهم الصلوات، واتباعهم الشهوات، وارتكابهم الموبقات.

ففما تدعو به أمة الرحمن - أيضًا: أن يهب الله لها زوجًا يقر عينها، يعينها على الطاعة. فإن من أعظم الآفات: أن تبتلى المرأة المؤمنة بزوج لا يخشى

عنه، وقوله: «**تربت يداك**» كلمة معناها الحث والتحريض، وقيل: هي هنا دعاء له بكثرة المال، أي: اظفر بذات الدين، ولا تلتفت إلى المال، أكثر الله مالك. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (552/2، 553) الحديث (1106).

الله، لا ينحني ظهره لله راكعًا، لا يقيم فرائض الله، ولا يعظم شعائر الله.

ما أكثر ما نرى هذا في حياتنا!

{وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ ...}.

يدعون الله بصلاح الأزواج، وصلاح الذرية.

إذا كان الإنسان يريد الخير، فأقرب من يرجو له الخير: زوجته، وذريته: أبناؤه ... بناته ... أحفاده، يرجو لهم الهداية والخير.

سئل الحسن عن «قرة الأعين» في هذه الآية: أهي في الدنيا أم في الآخرة؟ فقال: لا والله، بل في الدنيا، وقال عكرمة في تفسير «قرة الأعين»: لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالًا، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين لله.

إن المؤمن لا تقر عينه بمجرد أن يكبر أولاده، ولا بمجرد أن يكسبوا الأموال ... أن يصبحوا من الأثرياء ... أن يكون في أرصدتهم الملايين، ثم يكون مصيرهم إلى النار وبئس القرار.

يقول الله تعالى: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ...}** [التحريم: 6](262)، على كل مؤمن أن يقي أهله النار كما يقي نفسه.

قوا زوجاتكم، قوا أبناءكم وبناتكم، احموهم من النار، أبعدوهم عن طريق النار.

اتطمئن يومًا، أو يثلج صدرك، إذا رأيت ولدك وفلذة كبدك في النار؟

---

(262) تتمتها **{عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ}**.

هبه أصبح من أصحاب الملايين أو البلايين، أو من الكبراء والسلاطين: ما قيمة هذا إذا انتهى مآله إلى جهنم والعياذ بالله؟

«كلكم راع ومسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، وكلكم راعٍ ومسؤول عن رعيته»(263).

الكل راع، عليه أن يرعى أمانة الله فيما استرعاه، و**«إن الله سائل كل راع عما استرعاه، حفظ أم ضيع، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته»**(264).

وأقرب ما يسأل الإنسان عنه: أهله ... أولاده ... زوجته ... ابنه ...ابنته. هؤلاء ماذا صنعت معهم؟ هل وقيتهم ا لنار؟ هل علمتهم الخير؟ هل دعوتهم إليه؟ هل حذرتهم من الشر، وبصرتهم بعواقبه وآفاته؟

{وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ} [طه: 132].

---

(263) رواه البخاري، ومسلم، عن ابن عمر رضي الله عنهب «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (553/2) الحديث (1108).

(264) رواه النسائي، وابن حبان، عن أنس رضي الله عنه، قال الأستاذ القرضاوي: وعزاه في «الجامع الصغير» إلى النسائي أيضًا، ويبدو أنه في «الكبرى» وإذا لم أجده في مظانه في «الصغرى». «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (562/2) برقم (1141)، وقال المناوي: ورواه عن أنس أيضًا البيهقي في «الشعب» وفيه معاذ بن هشام حديثه في «الستة» لكن أورده الذهبي في «الضعفاء» وقال: قال ابن معين: صدوقًا وليس بحجة، وقال غيره: له غرائب وتفردات. «فيض القدير» (237/2، 238) برقم (1745).

{... رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ ...}:

ومما يجعلهم قرة عين: أن يكونوا بررة، يعرفون حق آبائهم وأمهاتهم، كما يعرفون حق الله تعالى . فإن من مكدرات الحياة أن يجد الإنسان ابنًا عاقًّ، يتعب في تربيته، ويكدح في السعي عليه، حتى يصبح شابًا قويًا مفتول الذراعين، فإذا هو بعد ذلك يتنكر لأهله ... يتنكر لأبيه وأمه، وقد يتطاول عليهما بالقول أو الفعل، مع أن الله تعالى يقول: **{... فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا 23 وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا}** [الإسراء: 23، 24]. طالما شكا الناس قديمًا وحديثًا من عقوق الأولاد الذين لا يعترفون بالجميل لأهله، وكثيرًا ما يفعل الولد هذا طاعة امرأته، أو طاعة لشيطانه، أو طاعة لهواه، وهذا من أسباب البلاء، كما جاء في حديث الترمذي: «**إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء** - وذكر منها: **وأطاع الرجل زوجته، وعق أمه، وبر صديقه، وجفا أباه**»(265).

ليس هذا من شأن الإنسان المؤمن.

شكا أحد الشعراء قديمًا ابنًا عاقًّا له فقال:

غذوتك مولودًا وعلتك يافعا ... تعل بما أسدي إليك وتنهل
إذا ليلة نابتك بالشجو لم أبت ... لشكواك إلا ساهرًا أتململ
كأني أنا المطروق دونك بالذي ... طرقت به دوني فعيني تَهملِ
فلما بلغت السن والغاية التي ... إليها مدى ما كنت فيك أؤمل

---

(265) رواه الترمذي بسند ضعيف عن علي رضي الله عنه. انظره كاملًا في (ص: 100).

جعلت جزائي غلظة وفظاظة كأنك أنت المنعم المتفضل!

هذا لا يكون قرة عين أبدًا، إنما يكون نكدًا وغصة في حلق أبيه.

نكران الجميل شيء يؤذي النفس، ويجرح القلب، ولا سيما إذا جاء من أقرب الناس إليك، إذا طعنت من أحب الناس إليك، وأعزهم عليك: من ابنك، من بنتك، من زوجتك، من أقاربك.

ولهذا سأل عباد الرحمن ربهم أن يجعل لهم من أزواجهم وذرياتهم قرة أعين، ويؤدون حق الله، ويؤدون حق الأبوين: {**... رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**}.

هم - أيضًا - أرادوا أن يمتد الخير في الناس، وأن يكون لهم مكان في عالم الخير والهدى، وأن يكونوا أئمة للمتقين، وهذا طموح لا غبار عليه، لأنه ليس طموحًا يتعلق بالدنيا، ولا يتعلق بالدرهم والدينار، ولا بالمناصب، وإنما يريدون أن يكونوا قدوة لأهل الخير، يقتدي بهم الناس، ولا حرج من أن يسأل المؤمن ربه أن يكون إمامًا في الخير.

والإمامة نوعان: إمامة في الخير، وإمامة في الشر.

والأئمة نوعان: أئمة يدعون إلى الجنة، وأئمة يدعون إلى النار، والعياذ بالله.

وصف الله أئمة الخير بقوله في بعض رسله: {**وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ**} [الأنبياء: 73].

وقال في جماعة آخرين: {**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟**

بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ} [السجدة: 24]. فمن أراد الإمامة فعليه أمران: الصبر، واليقين، الصبر في مقاومة الشهوات، واليقين في مقاومة الشبهات، وبذلك يستقيم فكره، ويستقيم سلوكه.

هذا شأن أئمة الخير.

أما أئمة الشر فمثل: فرعون وهامان وقارون، ومن على شاكلتهم، الذين قال الله فيهم: **{وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ}** [القصص: 41]. **{وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً}**:

ولكن أي إمامة هذه؟ إنها إمامة في الشر ... في الطغيان.

{يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ}: ما أكثر الأئمة الذين يدعون إلى النار اليوم، يدعون بأقلامهم، يدعون بألسنتهم، يدعون بأفكارهم، يدعون بكتبهم ... بصحفهم ... بأقلامهم ومسلسلاتهم ... أئمة يدعون إلى النار من أجابهم إلى دعوتهم قذفوه فيها، كما جاء في حديث حذيفة رضي الله عنه: « **... دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها، قذفوه فيها**»[266].

احرص - أخي المسلم - على أن تكون من عباد الرحمن، الذين يتطلعون إلى هذه المقامات العلى: **{... رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا}**.

---

(266) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني ... الحديث، رواه البخاري في الفتن، ومسلم في الإمارة. «شرح السنة» للبغوي بتحقيق شعيب الأرناؤوط (14/15 - 15) برقم (4222).

اللهم اجعلنا من هؤلاء، اللهم اجعل لنا حظًا من هذه الإمامة، يا رب العالمين.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد:

أحب أن ألفت أنظار الإخوة المصلين إلى أن الظهر قد بكر الآن، فعلينا أن نبدأ مبكرين، ولا يتخلف المصلي حتى يؤذن الظهر ويصعد الخطيب على المنبر، فإنه بهذا يحرم أجرًا كثيرًا.

وقد جاء في الحديث الصحيح: «**إذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكة على باب المسجد يكتبون الأول فالأول، ومثل المهجر كمثل الذي يهدي بدنه، ثم كالذي يهدي بقرة، ثم كبشًا، ثم دجاجة، ثم بيضة، فإذا خرج الإمام طووا صحفهم يستمعون الذكر**»(267).

معنى هذا: أن «سجل الدوام» قد طوي، ومن أتى بعد ذلك يعتبر كأنه أتى متأخرًا عن الموعد، فيوجه إليه بعض اللوم، أو على الأقل يحرم حين ذلك من أجر التبكير.

---

(267) رواه البخاري، ومسلم، وابن ماجه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه ابن خزيمة في «صحيحه» بنحوه، و«المهجر»: هو المبكر الآتي في أول ساعة، وانظر تعليق الشيخ القرضاوي على الحديث في كتابه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» للمنذري (245/1 - 246) برقم (374).

فأرجو من الإخوة أن يراعوا هذا إن شاء الله.

اللهم اغفر للمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، الأحياء منهم والأموات، إنك سميع قريب مجيب الدعوات.

اللهم أكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا.

{... رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ} [البقرة: 201].

{رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ} [آل عمران: 8].

{... رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ} [آل عمران: 147].

{... رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا} [الفرقان: 74].

عباد الله: **{إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ}** [النحل: 90].

وصلوا على نبيكم: **{إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا}** [الأحزاب: 56].

وأقم الصلاة.

* * *

13- حقوق الإنسان في الإسلام

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

خلال الأسبوع المنصرم احتفلت الأمم المتحدة واحتفل العالم معها، باليوم العالمي لحقوق الإنسان، وذلك بمناسبة مرور أربعين عامًا على إعلان «الإعلان العالمي لحقوق الإنسان».

المسلمون أولى الناس بحقوق الإنسان:

ونحن المسلمون أول من يحتفل بحقوق الإنسان ويهتم بها، فالإسلام - قبل أن يعلن الغرب مواثيقه عن حقوق الإنسان، سواء من الأمم المتحدة أم من غيرها من الهيئات والثورات - قد قرر للإنسان حقوقه منذ أربعة عشر قرنًا أو تزيد.

الإسلام يوازن بين الحقوق والواجبات:

لم يكن الناس يعرفون أن لهم حقوقًا قبل الإسلام، كل ما يعرفونه: أن عليهم واجبات، ولا يدرون أن لهم حقوقًا، فجاء الإسلام وقرر أن للإنسان حقوقًا ترعى، كما أن عليه واجبات تؤدى، فكل واجب يقابله حق، كما أن كل حق يقابله واجب.

ولهذا قامت التكاليف في الإسلام على هذين الأمرين: الواجبات والحقوق، وهذا ما يخالف فيه الإسلام فلسفة الغرب الآن.

فالغرب ينادي دائمًا بالحقوق ولا يهتم كثيرًا بالواجبات، حقوق الإنسان ... حقوق الأطفال ... حقوق العمال ... حقوق المرأة، حقوق حقوق، وكأن الإنسان مطالب فقط بما له، وليس مطالبًا بما عليه.

إذا أديت الواجبات فقد رعيت الحقوق:

الإنسان في الشريعة الإسلامية مخلوق مكلف مطالب مسؤول، أكثر مما هو مطالب سائل، الإنسان في الغرب أبدًا يقول: ماذا لي؟ أما في الإسلام فإنه يجب أن يقول: ماذا علي؟

وإنما ترعى الحقوق حقًا، يوم تؤدى الواجبات، فحق كل إنسان هو واجب على غيره: حق الولد في الرعاية المادية والمعنوية والتربية الحسنة هو واجب على أبويه، وحق الأب في البر والإكرام والرعاية عند العجز أو الشيخوخة هو واجب على أولاده، وحق الفقير في كفايته من العيش هو واجب على الغني، كما قال الله تعالى: **{وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ 24 لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ}** [المعارج: 24، 25].

وحق المحكوم في العدل وتكافؤ الفرص واجب على الحاكم ... وهكذا.

هذه الحقوق إنما ترعى حينما تؤدى الواجبات، فهذه فلسفة الإسلام الذي يمزج بين الواجب والحق، بل يؤكد كل التأكيد، ويركز كل التركيز على أداء الواجب، فإنما تضيع الحقوق حينما تضيع الواجبات.

تقرير الحقوق لأهلها دون مطالبة منهم:

جاء الإسلام وقرر أن للناس حقوقًا، ولكل إنسان حقوقًا. قرر ذلك دون أن تقوم ثورة تطالب بحقوق الإنسان، دون أن تسير مظاهرة تنادي بحق الفقراء

في أموال الأغنياء، أو بحق الضعفاء على الأقوياء، أو بحق المرأة على الرجل، أو بحق المحكوم على الحاكم.

لم تحدث ثورة، ولم تحدث مطالبة، ولكن دون أن يطالب الناس فإن رب الناس ... ملك الناس ... إله الناس، هو الذي قرر لهم هذه الحقوق.

قررها من أول يوم، أول آيات نزلت في القرآن عنيت بالإنسان، ورفعت من شأن الإنسان: **{ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ 1 خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ 2 ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ 3 ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ 4 عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ}** [العلق: 1 - 5]، منذ هذه السطور الأولى في كتاب الله عز وجل ارتفع شأن الإنسان.

الإنسان في الإسلام له شأن أي شأن، وهذا أساس من أسس تثبيت حقوق الإنسان.

حقوق الإنسان في الإسلام تقوم على دعامتين أساسيتين:

1- عقيدة التوحيد:

الدعامة الأولى: هي عقيدة التوحيد، كلمة «لا إله إلا الله»، هذه الكلمة إيذان بعالم جديد، بميلاد للإنسان من العبودية، وخصوصًا من عبودية البشر للبشر، لم يعد هناك إنسان يستعبد إنسانًا، ولم يعد هناك حق لإنسان أن يؤله إنسانًا.

كيف تؤله من هو مثلك ... من خلق من تراب مثلك؟ ويعود إلى التراب مثلك؟ **{مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ ...}**(268) [طه: 55].

---

(268) وتتمها: **{وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ}**.

كيف تؤله إنسانًا أنت مثله؟ أو كيف تستعبد إنسانًا هو مثلك؟!

إنما هي الأخوة العامة، الناس جميعًا إخوة، أبناء أب واحد، وعبيد للرب واحد، وهذا ما أعلنه النبي صلى الله عليه وسلم على الملأ، على مرأى ومسمع من الجموع المحتشدة، التي تطهرت ولبست ملابس إحرامها لله، في تلك الساحة المقدسة في حجة الوداع.

أعلن النبي صلى الله عليه وسلم ميثاق حقوق الإنسان الأولى، حينما نادى في الشهر الحرام والبلد الحرام: أيها الناس: « **... فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ...**»(269): لا يحل لأحد أن يعتدي على دم أحد ... على حياة أحد ... على مال أحد. على عرض أحد. «**يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى ...**»(270) { **... إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ...**} [الحجرات: 13].

في حجة الوداع، وأمام هذه الجموع الهائلة، أبلغ النبي بلاغه الأخير للناس، قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى: إن الرب واحد، والأب واحد، وأن

---

(269) جزء من حديث أبي بكرة الذي أخرجه مسلم في «صحيحه» في باب: «تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال». انظر: «صحيح مسلم بشرح النووي» (170/11) ط. دار الفكر.

(270) رواه أحمد عن أبي نضرة قال: حدثني من سمع خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في وسط أيام التشريق، قال عنه الألباني في «غاية المرام»: هذا إسناد صحيح، وجهالة الصحابي لا تضر كما هو معلوم، ولذلك قال ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص 69): إسناده صحيح.

الدماء والأعراض والأموال مصونة، لا يجوز أن يُعتدى عليها، وأن الناس سواسية كأسنان المشط.

قُرّرت حقوق الإنسان بناءًا على أن الناس عبيد لربّ واحد.

عقيدة التوحيد إذن هي الأساس الأول لتقرير حقوق الإنسان، لم يعد هناك مجال لفرعون من الفراعنة، يقول للناس: أنا ربكم الأعلى، ولا لنمروذ من النماريذ يقول: أنا أحي وأميت، ويقتل رجلًا بغير حق ويقول: قد أمته، ويحكم على رجل بالإعدام ثم يعفو عنه ويقول: ها قد أحييته.

لم يعد هناك مجال لفرعون ونمروذ، إنما المجال الآن للراكعين الساجدين الموحّدين، الذين يعلنون في كل حين: أشهد أن لا إله إلا الله، الألوهية لله وحده.

هذه الحقيقة هي بداية تحرير للإنسان، من ظلمات القرون وظلم القرون.

كان النبي صلى الله عليه وسلم يختم رسائله إلى الملوك والأمراء - قيصر والنجاشي والمقوقس، وغيرهم من ملوك النصارى ورؤساؤهم - بهذه الآية: **{... يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ...}** [آل عمران: 64].

ليس هناك أحد يمكن أن يكون ربًّا لأحد، ولا لأحد أن يكون عبدًا لأحد، العبودية المدنية المعروفة ل تعني الخضوع المطلق، لا، العبودية الحقيقية إنما هي الله وحده.

هذا هو التوحيد الذي جاء به الإسلام.

2- تكريم الإنسان:

ثم كانت هناك الدعامة الثانية: وهي تكريم الإنسان.

الإسلام كرم الإنسان: **{وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ...}** [الإسراء: 70] من حيث هو آدمي، من حيث هو إنسان.

كرّمه بعدة أشياء:

أ- استخلفه في الأرض، جعله الله في الأرض خليفة، وهي منزلة رنت إليها الملائكة، واشرأبت إليها أعناقهم، وتمنّوا أن يكونوا هم أصحاب هذا المنصب، فقال لهم: **{... إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ 30 وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ...}** [البقرة: 30، 31]، وهيأه ليقوم بهذا الدور: الخلافة في الأرض.

ب- كرم الله الإنسان بأن صوره فأحسن صورته: **{لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ}** [التين: 4]، **{... وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ ...}** [التغابن: 3]، **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ 6 ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ 7 فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ}** [الانفطار: 6، 8].

جـ- ثم زاد على ذلك بشيء أكبر وأعظم وأعمق، هو أنه ميز الإنسان بذلك العنصر الروحي، الذي جعله مخلوقًا متفردًا متميزًا على غيره.

الإنسان ليس هو هذا الغلاف الطيني، ليس هو هذا الهيكل من العظام والدماء واللحم والأعصاب والخلايا والأجهزة، هذه يشترك فيها مع الحيوان، إنما هو ذلك السر المخبوء داخل هذا الغلاف، الذي أشار إليه قوله تعالى: **{فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ}** [الحجر: 29، ص: 72].

نفخة الروح هي التي جعلت الإنسان إنسانًا، واستحق بها، أن تسجد له

الملائكة.

هذا هو العنصر الروحي.

الإنسان حيوان عند الغربيين:

ولذلك ليس الإنسان حيوانًا كما يقول الغربيون من قديم، اليونانيون من قديم قالوا: الإنسان حيوان ناطق، أي: مفكر، والاجتماعيون المحدثون يقولون عنه: حيوان اجتماعي، والمركسيون يقولون: هو حيوان منتج، والتطوريون يقولون: حيوان متطور.

على أي حال هو حيوان عند هؤلاء وأولئك، وإن كان حيوانًا موصوفًا بصفة من الصفات.

الإنسان مخلوق متفرد، ليس حيوانًا ولا إلهًا:

ولكن الإنسان في الإسلام ليس حيوانًا، كما أنه ليس إلهًا.

هناك من ألّه الإنسان، وهناك من هبط به إلى درك الحيوانية.

الإنسان ليس حيوانًا، وإن اشترك مع بعض الحيوانات في الصفات، كما أن الحيوان يشترك مع النبات في بعض الصفات، ولكننا لا نعرف الحيوان فنقول: هو نبات متطور، لا، فالحيوان غير النبات، والإنسان غير الحيوان، والنبات غير الجماد، وإن كان الجميع يشترك في صفات بعضها تتميز عن بعض.

الإنسان مخلوق متفرد:

ومن الأشياء التي ميز الله بها الإنسان وكرمه: أنه سخر له ما في السموات

وما في الأرض جميعًا منه.

سخر له كل ما في الوجود: العالم العلوي، والعالم السفلي، والشمس والقمر والنجوم، والبحار والأنهار، والجبال والأشجار، كل هذا الكون مسخر لخدمة الإنسان ... لمنفعة الإنسان: **{وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ 33 وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ...}** [إبراهيم: 33، 34].

الكون مسخر للإنسان، وهذا يفيد فائدتين:

الفائدة الأولى: إن الطاقات الكونية كلها مبذولة للإنسان، يستطيع أن يسخّرها لخدمته: الطاقة الشمسية ... الطاقة الترابية ... المائية ... المعدنية ... الهوائية ... الضوئية، كلها مسخرة للإنسان.

الفائدة الثانية: أن هذا الكون المسخر للإنسان، لا يجوز أن يعبده الإنسان، كما فعلت شعوب وأمم قديمًا وحديثًا، تعبد قوى من الطبيعة هي مسخرة لها، قلبوا الحقائق، الإنسان المخدوم أصبح خادمًا، والمتبوع أصبح تابعًا، والسيد أصبح عبدًا، الذي سُخرت له هذه الأشياء أصبح يعبد هذه الأشياء!

الإنسان - بهذا المفهوم الإسلامي - أصبح جديرًا أن تكون له حقوق، وأن تكون له مكانة، وأن تكون له كرامة تُرعى، فلا يجوز لأحد مهما يكن قدره، أن يهين هذا الإنسان، أو يستعبد هذا الإنسان.

حقوق الإنسان منذ المرحلة الجنينية:

الإسلام جاء ليحترم الإنسان، وليكرم الإنسان، من حيث هو إنسان، منذ يولد وإلى أن يموت، بل قبل أن يولد له حقوق تُرى وهو جنين في بطن أمه.

من أجل ذلك حرّم الإسلام الاعتداء على الجنين، حتى الأم التي تحمل هذا الجنين ليس لها أن تتصرف في جنينها بالإجهاض ونحوه، كما ينادي بذلك كثير من الغربيين المعاصرين وتلاميذهم في ديارنا.

لم يُجز الإسلام للأب - بحال من الأحوال - أن يقتل ابنه أو ابنته من إملاق، أو خية إملاق، كما كان يفعل العرب في الجاهلية، وخصوصًا مع البنات، فقد كانوا يتخلصون منهم بالوأد «دسّها حية في التراب» ألا ساء ما يحكمون! **{وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ 8 بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ}** [التكوير: 8، 9].

ولم يُجز الإسلام للأم أن تجهض جنينها ولو جاء من حرام.

المرأة الغامدية المعروفة التي جاءت تطلب من النبي التطهير بإقامة الحد عليها، بعد أن ارتكبت الفاحشة، وتقول يا رسول الله طهرني، أقم علي حد الله، فأنا حُبلى من الزنى، فلم يرض النبي صلى الله عليه وسلم أن يقيم عليها الحد وقال: «**فاذهبي حتى تلدي**» أي أنه إن كان لنا سبيل عليك، فليس لنا سبيل على ما في بطنك، ما ذنب هذا الكائن الحي؟ إنه مخلوق محترم، لم يجن ولم يذنب، ولا يحمل وزر غيره.

ثم تذهب وتأتي به بعد الولادة فيقول: «**اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه**»[271].

هذا هو الإسلام، يرعى الإنسان منذ هو جنين في بطن أمه، كما يرعاه بعد موته، حيث يوجب غسله وتكفينه والصلاة عليه، ودفنه، وتنفيذ وصاياه، وقضاء ديونه قبل توزيع تركته، وحرم التمثيل بجثته «تشويهها» ولو في

---

(271) جزء من حديث رواه مسلم في «صحيحه»، باب: «حد الزنا».

الحرب، كما حرم كسر عظمه[272]، وأمر ألا يذكر الموتى إلا بخير، فقد أفضوا إلى ما قدّموا[273].

رعاية الإنسان من حيث هو إنسان:

الإسلام يرعى الإنسان من حيث هو إنسان، في أيّ أرض كان، فلا اعتبار بالأقاليم، من أي لون كان، أبيض أو أسود، فالقيمة للإنسان من داخله وليست بلون جلده ووجهه.

يرعى الإنسان بأي لغة يتكلم: **{وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ}** [الروم: 22].

يرعى الإنسان من أي طبقة كان، من طبقة الأغنياء أم من طبقة الفقراء، من طبقة الخاصة أم من طبقة العامة.

بل ليس في الإسلام طبقات، كما كان الناس في أوربا قديمًا - هناك طبقة النبلاء، وطبقة الفرسان، وطبقة رجال الدين ... إلخ، طبقات تُورث، ولكل

(272) رُوي عن عائشة رضي الله عنها قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**كسر عظم الميت ككسره حيًا**» رواه أبو داود، وابن ماجه، وابن حبان في «صحيحه»، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع الصغير»، وانظر تعليق الشيخ عليه في كتابه: «المنتقى» (919/2 برقم 2235).

(273) روى البخاري وأحمد من حديث عائشة: «**لا تسبوا الأموات، فإنهم قد أفضوا إلى ما قدّموا**»، وروى النسائي من حديث عائشة أيضًا: «**لا تذكروا هلكاكم إلا بالخير، إن يكونوا من أهل الجنة تأثموا وإن يكونوا من أهل النار فحسبهم ما هم فيه**» رمز له السيوطي بالحسن، وقال الحافظ العراقي: إسناده جيد «فيض القدير» للعلامة المناوي (الحديثان: 9765، 9782)، والمراد بالأموات: المسلمون منهم، فيحرم سبهم، إلا لمصلحة شرعية، كسب أهل البدع والفسقة والظلمة للتحذير من الاقتداء بهم، وكجرح الرواة وبيان حالاتهم.

منها حقوق تظل ثابتة لا تتغير - وكما كان الناس في فارس، وفي الهند قديمًا وإلى اليوم، ليس في الإسلام شيء من ذلك.

الناس سواسية، من حيث الكرامة الإنسانية الكل سواء، حتى اختلاف الدين لا يؤثر في الكرامة الإنسانية العامة، وقد روى البخاري عن سهل بن حُنيف وقيس ابن سعد: أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّت به جنازة فقام، فقيل له: إنها جنازة يهودي «أرادوا أن يعرفوه أنه ليس بمسلم» فقال: «**أليست نفسًا؟**»(274). بلى، ولكل نفس في الإسلام حرمة ومكان.

من هنا رعى الإسلام كرامة الإنسان حيًا وميتًا:

رعى الإنسان حيًا: بحفظ ماله، وحفظ دمه، وحفظ عرضه، لا يجوز أن يُهان في حضرته، أو يتكلم عنه بسوء في غيبته.

ورعاه ميتًا فقال: «**لا تذكروا هلكاكم إلا بخير**»(275)، «**لا تسبوا الأموات، فإنهم أفضلوا إلى ما قدموا**»(276).

---

(274) رواه البخاري في كتاب: «الجنائز» باب: «من قام لجنازة يهودي»، ومسلم في كتاب: «الجنائز» باب: «القيام للجنازة».

(275) رواه النسائي عن عائشة رضي الله عنها، ورمز له السيوطي بالحسن «الجامع الصغير» (200/2)، وجود الحافظ العراقي إسناده، وتتمته: «**إن يكونوا من أهل الجنة تأثموا، وإن يكونوا من أهل الناس فحسبهم ما هم فيه**». ويُستثنى من النهي ما تمس الحاجة إلى ذكره، كجرحهم في شهادتهم وروايتهم، أو تحذير من بدعتهم وفساد طويتهم، كما أوضح العلامة المناوي «فيض القدير» (396/6 برقم 9765).

(276) رواه البخاري في كتاب الجنائز، وابن حبان في «صحيحه» من حديث عائشة رضي الله عنها. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (903/2 برقم 2195).

حقوق الإنسان في الإسلام: فرائض وضروريات:

جاء الإسلام يحافظ على حقوق الإنسان كلها، حقوقه المادية والمعنوية الدينية والدنيوية، العقلية والجسمية، واعتبر هذه الحقوق من الضروريات الخمس أو الست التي جاءت الشريعة للمحافظة عليها، وهي: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال، والعرض.

إن ما يعدّه الغرب حقوقًا يعده الإسلام واجبات وفرائض، وهذا أوثق وأوكد، فحق الإنسان يمكنه أن يتنازل عنه، أما واجبه المفروض عليه من ربه، فيلزمه أن يراعيه ويقوم عليه ولا يفرط فيه.

إذا كان التعلم حقًا للإنسان في الغرب، فهو واجب على الإنسان المسلم، الذي يعلمه الإسلام أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.

وإذا كان نقد المخطئ أو المنحرف حقًا للإنسان في الغرب، فهو واجد على الإنسان المسلم، فهو يدخل في فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتواصي بالحق، كما يدخل في باب النصيحة التي جعلها الرسول الكريم الدين كله، لأئمة المسلمين وعامتهم.

وإذا كانت مقاومة الظلم حقًا للإنسان في الغرب، فهي واجب على الإنسان المسلم وعلى المجتمع المسلم: **«إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده»**(277).

---

(277) رواه أبو داود، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه، والنسائي، وابن حبان في «صحيحه»، ورواه أحمد أيضًا في «مسنده» من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (643/2 برقم 1375).

وإذا كان لجوء المضطهد المظلوم من بلده إلى بلد آخر يأمن فيه حقًا للإنسان في الغرب، فهو واجب على الإنسان المسلم إذا استطاع إليه سبيلًا، اسمع قول الله تعالى: {**إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا 97 إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا 98 فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا**} [النساء: 97 - 99].

يوجب الإسلام على المسلم أن يدافع عن حقه، ولا يرضى بهوان نفسه، ولا يفرط في كرامته وكرامة أهله، ولا يستلم للظلم إلا من عجز وضعف، فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، وفي الحديث: «**لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه، قالوا: يا رسول الله، وكيف يذل نفسه؟ قال: يتعرض للبلاء بما لا يطيق**»(278).

بهذا ارتقى الإسلام بحقوق الإنسان وحمل الفرد والمجتمع المحافظة عليها، والمحاماة عنها، وحمل الأمة المسلمة عبء الدفاع عن المستضعفين المضيعة حقوقهم، ولو كان ذلك بإعلان الحرب، وشن القتال، يقول تعالى: {**وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا**

---

(278) أخرجه الترمذي وصححه، وابن ماجه، من حديث حذيفة، وقال البغوي: هذا حديث حسن غريب، وفي سنده: علي بن زيد وهو ضعيف، والحسن مدلس وقد عنعن، لكن له شاهد يتقوى به من حديث ابن عمر أخرجه الطبراني في «الكبير»، ورجاله ثقات «شرح السنة» للبغوي بتحقيق الأرناؤوط (179/13 برقم 3601)، «الإحياء» بتخريج العراقي (46/1).

﴿وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: 75].

بين النظرية والتطبيق:

هذا ما جاء به الإسلام، وطبقه المسلمون تطبيقًا عمليًا، ولم يكن مجرد فلسفة مجردة، أو أفكار نظرية، أو أحلام طوباوية، كجمهورية أفلاطون ومدينة الفارابي!

في المسجد نجد الكل سواسية، في الحج الجميع سواسية، أذاب الإسلام بشعائره كل الفوارق التي تميز الناس بعضهم من بعض.

الراشدون من حكام المسلمين لم يفرقوا بين أحد وأحد، فالنبي صلى الله عليه وسلم وضع لهم القاعدة: « **... وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»(279).

عمر والأمير الغسّاني:

هذا عمر بن الخطاب يسوي بين أمير وسوقة، حينما وطئ الأعرابي ثوب ذلك الأمير الغساني - جبلة بن الأيهم - وهو يطوف بالكعبة، وقد أسلم حديثًا، فلما داس على طرف ردائه التفت إليه ذلك الأمير - وكان لا يزال به شيء

---

(279) متفق على صحته من حديث عائشة رضي الله عنها، ونصه كاملًا: أن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكلمه أسامة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أتشفع في حد من حدود الله**» ثم قام، فاختطب، ثم قال: «**إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**». «شرح السنة» للبغوي (328/10 برقم 2603).

من كبر الجاهلية - فلطمه على وجهه، فذهب الرجل إلى الخليفة عمر يشكر ذلك الأمير، فقال عمر: لطمة بلطمة، أو يعفو ويصفح.

قال: يا أمير المؤمنين: أتسوي بيني وبينه وأنا ملك وهو سوقة؟! فقال له: إن الإسلام قد سوى بينكما، إما أن يلطمك كما لطمته، وإما أن ترضيه، قال: سأحاول أن أرضيه.

ولكن الرجل بيت في نفسه أمرًا وفر بليل، وخرج من المدينة إلى بلاد أخرى مرتدًا، والعياذ بالله، آثر أن يبقى على عنجهيته، وإن عاد إلى الكفر، ولم يقبل أن يقتص منه، ولم يبال عمر رضي الله عنه به.

بعض الناس يقول: ألم يكن من الأولى أن يتساهل عمر في هذه القضية ونكسب هذا الأمير؟ لا، خسارة شخص ولا خسارة مبدأ، ليذهب إلى الجحيم، يعوض الله الإسلام غيره آلافًا وآلافًا، ولكن مبدأ المساواة - وأن لكل إنسان أن يطالب بحقه إذا ظُلم - أعظم من ذلك الأمير الذي ارتد وكفر.

متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟

وكلنا يعرف تلك القصة، قصة عمر مع عمرو بن العاص وابنه الذي ضرب ذلك القبطي المصري بغير حق، وذهب الرجل وابنه من مصر إلى المدينة - كم عانى وكم تعب حتى وصل إلى هناك؟! - وشكا عمرو وابنه إلى عمر.

وأحضر عمر عمرو وابنه، وقال للرجل: اضرب ابن الأكرمين - لأن ابن عمرو بن العاص كان يقول لابن القبطي وهو يضربه: أنا ابن الأكرمين! - ثم قال له: أدرها على صلعة عمرو، فما ضربك ابنه إلا بسلطانه، فقال: يا أمير

المؤمنين: إنما اضرب من ضربني، ثم التفت عمر إلى عمرو وقال له كلمته التاريخية التي تحفظها ويحفظها التاريخ: متى استعبدتم الناس يا عمرو، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!

كلمة عمر - التي قالها على البديهة - أصبحت تفتتح بها مواثيق وإعلانات حقوق الإنسان اليوم: إن الناس يولدون أحرارًا متساويين(280).

العبرة الكبيرة هنا: ما الذي جعل هذا القبطي يجوب الفيافي والقفار، راكبًا جمله أو دابته حتى يصل إلى المدينة؟ لقد كان هو ومواطنوه والآلاف من أمثاله في مصر - في عهد الرومان المسيحيين أمثالهم - يُضربون ويُهانون ويُحبسون ويُقتلون وتراق الدماء أنهارًا، في عصور سُميت: عصور الشهداء، ولم يكن يرفع أحد رأسه.

ما الذي حرك هذا الرجل حتى قطع هذه المسافة الطويلة؟.

لا شيء إلا اعتقاده أن هذا دين جديد، جاء ينصف الناس، ويقيم عدل الله بينهم، ولا يقيم فوارق بين العباد، اعتقاده هذا هوّن عليه المتاعب وبُعد الشقة، فلم يعبأ بالمعاناة ووعثاء السفر، وفراق الأهل والوطن، من أجل أن يأخذ حقه.

هذا ما جاء به الإسلام، وهو غرة في جبين الإنسانية.

---

(280) جاء في المادة (1) من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان: «يولد جميع الناس أحرارًا متساوين في الكرامة والحقوق، وقد وُهبوا عقلًا وضميرًا، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضًا بروح الإخاء» نقلًا عن كتاب «حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة» للشيخ محمد الغزالي رحمه الله .

الحضارة الغربية وحقوق الإنسان:

الحضارة الغربية اليوم تُعلن حقوق الإنسان، وهي - حقيقة - تُعني بحقوق الإنسان في ديارها، الإنسان هناك محترم أي احترام له حقوق، له كرامة، كل إنسان يعرف حقوقه التي ينص عليها الدستور، ويحافظ عليه القانون، وتقوم على رعايتها السلطة.

في داخل بلادهم كل الحقوق مرعية - فيما عدا قضية التمييز العنصري، واحتقار الملونين - ولكنهم إذا خرجوا من تلك البلاد لا يراعون لأحد حقًا.

في هذه الأربعين سنة التي مضت على إعلان حقوق الإنسان، كم انتهكت حرمات، كم سُفكت دماء؟ كم انتهبت أموال؟ كم شرد أناس من أوطانهم وخصوصًا في أوطاننا نحن المسلمين؟ ما أكثر الذين أوذوا وشردوا، شُرد شعب بكامله من أرضه في فلسطين، شردت شعوب إسلامية من أوطانها.

هناك من المسلمين ملايين وعشرات الملايين مشردين في أنحاء العالم ... من بورما، من أريتريا، من الصومال ... من أقطار شتى يحكمها طغاة مستبدون ظالمون.

الغرب وراه هذه المظالم كلها:

أليس هؤلاء هم الذين يؤيدون غارات ما يسمى «إسرائيل» على لبنان إلى العهد الأخير؟ ومظالم تلك الدولة المغتصبة مع أطفال الحجارة، مع أولئك الأشبال الأطهار؟

أليس هؤلاء وراء كل مظلمة؟

نحن المسلمين أصبحت دماؤنا أرخص الدماء في الأرض، وأصبحت

أرضونا نهبًا لكل طامع.

حقوقنا أين هي؟

الإنسان في عصر حقوق الإنسان أصبح في كثير من البلاد مضيعًا.

لقد أعلنت منظمة العفو الدولية أن حوالي ثلث العالم يعيشون مضطهدين من حكومات ظالمة لا ترعى حقوقهم، وهذه مصيبة كبرى.

أناس يُحكمون بغير إرادتهم، أناس سُلطوا على أناس لا يستطيعون التخلص منهم، هذه هي مصيبة العالم الذي يدّعي حقوق الإنسان.

كم في السجود من أبرياء؟ كم هناك من أناس تمزق أجسادهم السياط؟ كم هناك من أناس يُعانون من مظالم الفراعنة الجدد، في عصر يُحتفل فيه بحقوق الإنسان؟

ونحن المسلمين كم نعاني ونعاني من جراء هذه المظالم؟ ولا يمكن أن ننال حقوقنا إلا أن ننتزعها من براثن الوحوش، من أيدي أولئك المغتصبين.

لا يستطيع أحد أن ينال حقه إلا بالكفاح، إلا بالجهاد، فما أُخذ بالقوة لا يُسترد إلا بالقوة، ولا يفلّ الحديد إلا بالحديد.

في عصر حقوق الإنسان نبكي نحن المسلمين على ديار وأوطان هنا وهناك مضيعة، وعلى إخوة لنا يفترشون الغبراء ويلتحفون السماء، كما كانوا يعلموننا قديمًا في علم الإنشاء.

نبكي على إخوة لنا هنا وهناك، يطالبون بحقهم ولا يجدون نصيرًا.

لو أن إنسانًا غربيًا أصاب ظفره شيء، أو اختطف، أو سُرق، لقامت الدنيا

ولم تقعد، ولكن الملايين منا نحن العرب والمسلمين يُعانون ولا يكاد يلتفت إليهم أحد.

أهذا هو عالم حقوق الإنسان؟

أين حقوق الإنسان أيها الناس في عصر يأكل الأقوياء فيه الضعفاء ... غابة يفترس القوي فيها الضعيف ... بحر يأكل السمك الكبير فيه السمك الصغير؟

لا مكان إلا لمن يأخذ حقه بيده، فلنقوّ أنفسنا، ولنعد العدة، ولنحرص على أن نكون نحن المسلمين في ديارنا مثلًا للحقوق التي يجب أو تُرعى.

كم في ديار المسلمين من حقوق تُهضم بأيدي المسلمين؟!

لا يجوز أن نعيب على الغرب أنه يضيع حقوقنا، ونحن في ديارنا مضيعو الحقوق، أكلها مواطنون لنا، كل إنسان يقول: نفسي ... نفسي، يقول: لي ... لي، ولا يقول - يومًا ما - : عليّ.

هذه هي الآفة، وهذه هي الكارثة، ولا نجاة لنا إلا بالعودة إلى الإسلام، التزام بالحقوق، والتزام بالواجبات، كما شرعها الله، وكما جاء بها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

{رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ} [آل عمران: 147].

ادعوا الله تعالى يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة:

فلنذكر ضعف الإنسان:

إذا كنا تحدثنا عن حقوق الإنسان، فينبغي أيضًا أن نذكر هذه الأيام ضعف الإنسان ... الإنسان الذي طغى في هذا العصر، وظن أنه يسطر على شيء **{... حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ}** [يونس: 24]، ثم تأتي الأحداث وراء الأحداث، لتعلم الإنسان أنه مخلوق ضعيف: **{... وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا}** [النساء: 28].

أيها الإنسان ما أنت؟ أنت حفنة من التراب، تتغذى مما يخرج من التراب، ثم توارى أخيرًا في التراب، ترابٌ يمشي على تراب.

أيها الإنسان المتأله ما أنت؟ لو أن السماء تمسك أمطارها عنك هل تستطيع أن تفعل شيئًا؟ ماذا تستطيع إذا لم تنزل عليك قطرات الماء؟ كان الناس قديمًا يقولون: النيل عندنا في مصر يغنينا عن أمطار السماء، فلما شحّت الأمطار في أفريقيا لم يستطع الناس أن يفعلوا شيئًا، ثم لما زادت الأمطار أصبح الناس يشكون الفيضان، الفيضان يغرق ويدمر في السودان ... في باكستان ... في بنغلادش.

ماذا تصنع أنت أيها الإنسان؟

ثم انظر أخيرًا إلى ضعف الإنسان في الاتحاد السوفيتي الذي يملك القدرات العلمية، والإمكانات التكنولوجية، والصواريخ والأقمار الصناعية، والسفن الفضائية، رغم هذا كله، ماذا صنع السوفييت أما هزة أرضية ...

زلزلة استمرت ثواني معدودات؟! فإذا بها تجعل عالي المدن سافلها! ثمان وأربعون قرية دمرت على من فيها!

أين العلم؟ أين الصواريخ؟ أين الأقمار؟ أين سفن الفضاء؟ أين المخزونات النووية؟ أين ... أين؟

الإنسان ضعيف أمام هذا كله.

اعتبر أيها الإنسان، واذكر بهذا أن هناك زلزة أكبر من هذه الزلزلة: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ 1 يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ}** [الحج: 1، 2].

اللهم نبهنا من سكرتنا، وأيقظنا من غفلتنا، وتب علينا توبة نصوحًا.

اللهم أعنّا على شهوات أنفسنا، وأصلح فساد قلوبنا.

اللهم ارع أوطاننا وديارنا.

اللهم ردّنا إلى الإسلام ردًّا جميلًا.

اللهم إنا نسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا، وأهلينا وأموالنا.

اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا، ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا.

اللهم اجعل يومنا خيرًا من أمسنا، واجعل غدنا خيرًا من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

اللهم انصر إخواننا المجهدين في سبيلك في فلسطين، وفي أفغانستان، وفي

أريتريا، وفي الفلبين، وفي كل مكان من أرض الإسلام.

اللهم أيد إخواننا المضطهدين والممتحنين، اللهم أفكك بقوتك أسرهم، وأجبر برحمتك كسرهم، وتول بعنايتك أمرهم.

اللهم عليك بأعدائك أعداء الإسلام، اللهم رد عنا كيدهم، وفل حدهم، وأدل دولتهم، وأذهب عن أرضك سلطانهم، ولا تدع لهم سبيلًا على أحد من عبادك المؤمنين.

{... رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ} [آل عمران: 147].

عباد الله: **{إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا}** [الأحزاب: 56].

* * *

14 - معركة الحجاب في فرنسا

الخطبة الأولى:

أما بعد أيها الإخوة المسلمون:

في الأسبوع الماضي سافرت إلى فرنسا ... إلى باريس، لأحضر وأشارك في حوار بين المسلمين والفرنسيين، أو بين مجموعة من الإسلاميين ومجموعة من المستشرقين معظمهم من الفرنسيين(281).

الحوار فريضة إسلامية:

ونحن نرحب بالحوار ... بالحوار مع المخالفين، أيًا كان هؤلاء المخالفون، وخصوصًا أهل الكتاب منهم، فنحن تجمعنا معهم عدة روابط: أنهم يؤمنون بالله في الجملة، ويؤمنون بالنبوات ورسالات السماء، ويؤمنون بالآخرة، ويؤمنون بوجوب عبادة الله، ويؤمنون بالقيم الروحية، والأخلاقية، فهناك قواسم مشتركة تجمع بيننا وبينهم.

ونحن المسلمين مطالبون بأن ندعو إلى ديننا، وأن نحاور الآخرين بالتي هي أحسن كما قال الله تعالى : **{ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ...}** [النحل: 125]، فالحوار مع الآخر فريضة إسلامية، دعا إليها القرآن الكريم.

---

(281) كان ذلك في أكتوبر 1994م، وكان لمشاركة الشيخ القرضاوي في هذا الحوار أثر إيجابي بارز، فقد استطاع - بحمد الله - أن يقنع الحاضرين بمفاهيم الإسلام الراقية في العديد من الجوانب.

حوار بالتي هي أحسن:

والقرآن هنا يطالب أن يكون الجدال والحوار بأحسن الأساليب، وأرق الوسائل وألطفها، فإذا كانت هناك وسيلتان أو طريقتان للحوار، إحداهما حسنة والأخرى أحسن منها، فنحن المسلمين مأمورون أن نتبع التي هي أحسن.

في الموعظة اكتفى القرآن بأن تكون موعظة حسنة: **{ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ ...}**، ولكنه في الجدال والحوار لم يكتف إلا بالتي هي أحسن: **{... وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ...}**، لماذا؟ لأن الموعظة تكون مع الموافقين، والحوار والجدال يكون مع المخالفين، ويكفي الموافق أن تعظه موعظة حسنة، ولكن المخالف لا بد أن تسلك إليه أحسن السبل، حتى تصل إلى قلبه، وتدخل إلى عقله، وتحاول إقناعه واستمالته إلى صفك، وإلى صراطك المستقيم.

نماذج قرآنية من أساليب الحوار:

ومن هنا نجد القرآن الكريم يقول - في حوار المشركين - على لسان النبي صلى الله عليه وسلم: **{... وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ}** [سبأ: 24]، أحد الفريقين لا بد أن يكون على هدى والآخر في ضلال مبين، وهو متأكد ومستيقن أنه على الهدى وأنهم على الضلال، ولكنه حين يجادل الآخرين لا يقول لهم مباشرة: أنتم على الضلال، إنما يخاطبهم بهذه الصيغة: **{... وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ}**.

ويقول في هذا السياق: **{قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ}**

[سبأ: 25]، كان مقتضى المقابلة في السياق أن يقول: قل لا تُسألون عما أجرمنا ولا نُسأل عما تجرمون، ولكن القرآن لم يشأ أن يصفهم بالإجرام، يريد أن يصل إلى قلوبهم فلم ينسب إليهم الإجرام، قال عن المسلمين: لا تُسألون عما أجرمنا، ولكنه لم يقل: ولا نُسأل عما تجرمون، وإنما قال: **{وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ}**.

حوار أهل الكتاب:

القرآن يأمر بحوار أهل الكتاب بالتي هي أحسن: **{وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ}** [العنكبوت: 46]، أي اذكروا عند الجدال بالتي هي أحسن نقاط الاتفاق ... المواضع التي تتفقون فيها بعضكم مع بعض، ولا تذكروا نقاط التباين والتمايز والاختلاف، ليقترب بعضكم من بعض: **{وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ}** [العنكبوت: 46].

على هذا الأساس رحبت بالحوار مع غير المسلمين، ومع هؤلاء النصارى والمستشرقين.

وفي كتبي دعوتُ إلى الحوار مع كل المخالفين: المخالفين في الدين، والمخالفين في الفكر، والمخالفين في السياسة، لسنا مُغلقين، نحن منفتحون على غيرنا، وليس عندنا ما نخافه أو نخاف عليه أحدًا.

ذهبت إلى باريس، وبدأنا الحوار، ولكن كان هناك موضوع حيّ وساخن، فرض نفسه على ساحة الحوار، وأخذ منّا معظم الوقت، ولا بدّ أن أشرككم

في هذا الأمر.

الحجاب على رأس موضوعات الحوار:

كان هذا الموضوع الحار الساخن هو موضوع «الحجاب» ... حجاب الطالبات في مدارس فرنسا، هذا الموضوع الذي تتحدث عنه فرنسا كلها، ويتابعه الإعلام: مرئية ومسموعة ومقروءة.

هؤلاء التلميذات ... الطالبات اللائي يردن أن يلتزمن بتعاليم دينهن، وأحكام شرعهن، وفرض ربهن، في غطاء الرأس(282).

الحجاب مفروض في محكم القرآن:

يُراد بالحجاب: الخمار ... تغطية الرأس، وهذا أمر فرضه الله تعالى في محكم القرآن، حيث يقول عز وجل في سورة «النور»: **{وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ** «وما ظهر منها على ما رأى ابن عباس وغيره من الصحابة والتابعين: الوجه والكفان، أو الكحل والخاتم، فما عدا ذلك ينبغي أن يُستر ويُغطى» **وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ...}** [النور: 31].

الخمار هو غطاء الرأس، فلا بد للمسلمة أن تغطى بخمارها على جيبها، أي على فتحة الصدر ... وفتحة الجيب ... القميص، فقد كان نساء الجاهلية يبدين هذا النحر وهذا الصدر لتظهر فيه القلائد والزينة وغير ذلك.

فجاء الإسلام يأمر بضرب الخمار على الجيوب: **{... وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ**

(282) كلمة «الحجاب» أصبحت تستعمل الآن هذا الاستعمال، وإن كان استعمالها اللغوي غير ذلك.

عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ ...} [النور: 31]، إلخ، وذلك في الزينة الباطنة، **{وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ}** [النور: 31]، جاء هذا في سورة «النور».

وجاء في سورة «الأحزاب»: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا}** [الأحزاب: 56]، لتعرف المسلمة الجادة من اللعوب العابثة، لتعرف المسلمة العفيفة المحصنة من تلك التي تحاول إغراء الرجال ولفت الأنظار والانتباه إليها.

هذا أمر الله تعالى في كتابه للمؤمنات، فلا عجب أن تلتزم أولئكم الطالبات المسلمات المؤمنات في فرنسا بهذا الأمر، وأن يذهبن إلى المدارس بهذا الخمار أو بهذا الحجاب.

موقف المتعصبين من مديري المدارس في فرنسا:

ولكن - للأسف - جُنّ جنون هؤلاء من مديري مدارس البنات المتعصبين، وقامت قيامتهم ولم تقعد، وحاولوا منع هؤلاء الطالبات المسلمات، وأرادوا أن يفرضوا عليهن أن يتخلين عن الحجاب، ولماذا؟ قالوا: لأن الحجاب رمز ديني، ونحن لا نسمح بالرموز الدينية، ولا نريد هذه الرموز الدينية المعبرة عن شخصيات دينية مختلفة!!

هل الحجاب رمز ديني كالصليب؟

قلت لهم: هذا ليس بصحيح، الحجاب ليس رمزًا دينيًا، الرمز ما ليس له

وظيفة إلا أنه شعار وإعلان مثل: الصليب على صدر النصراني، ونجمة داود السداسية على صدر اليهودي، والطاقية المعروفية على رأس اليهودي، هذه هي الرموز الدينية لأنه لا وظيفة لها إلا الإعلان.

ولكن هذا الحجاب له وظيفة، وهو وظيفة الستر والحشمة، وهذا أمر من الله للمسلمة، فكيف تفرضون على المسلمة أن تتخلى عن فرض من فروض دينها؟ أين الحرية الشخصية؟ وأين حرية التدين التي توفرها دساتيركم، والتي يحميها ميثاق حقوق الإنسان، وتحميها مواثيق الأمم المتحدة؟؟!

أنتم بلاد الثورة التي نادت بالحرية كما تزعمون، وتقولون عن فرنسا: أم الحريات! أين هي الحرية إذا لم يكن للمسلمة الحق في حريتها الشخصية: أن تلبس ما تشاء؟ وحريتها الدينية: أن تلبس ما يطلبه منها دينها؟! كما أن هناك من النساء ومن البنات من يلبسن القصير والميني والميكرو ومثل هذه الأشياء، ولا تعترضون عليهنّ، لماذا تعترضون على الفتاة المسلمة؟!

أين حرية التدين إذا لم تمارس المسلمة حقها؟! وهو واجب عليها في دينها، وليس مرد حق لها.

التسامح الإسلامي بلغ القمة:

لا ترتقون إلى المستوى الذي ارتقى إليه الإسلام؟

الإسلام بلغ الغاية، وبلغ الذروة في التسامح مع المخالفين.

هناك درجة دنيا في التسامح: أن تتسامح مع الإنسان المخالف لك فيما يوجبه دينه عليه، لا تفرض عليه أمرًا يحرمه دينه، ولا تلزمه بأمر يتخلى به عن واجب من واجبات دينه، هذه هي الدرجة الأولى في التسامح.

ولكن هناك درجة أرقى وأعلى، وهي: أن تتسامح مع مخالفك فيما هو مباح له في دينه، وليس واجبًا، وليس فرضًا.

وهذا ما صنعه المسلمون في أمور مباحة أو يعتقد أهل الكتاب من النصارى أنها مباحة في دينهم، مع أن الإسلام يحرمها أشد التحريم، وذلك مثل أكل الخنزير وشرب الخمر، فقد أجاز المسلمون جميعًا لأهل الكتاب أن يأكلوا الخنزير، وأجاز جمهورهم أن يشربوا الخمر، ما داموا لا يروجون هذه الأشياء بين المسلمين، والكلمة المأثورة عن الصحابة في ذلك: اتركوهم وما يدينون.

شيء مباح لا يوجبه الدين عليهم - فلم يوجب الدين على المسيحي أن يأكل الخنزير ولا أن يشرب الخمر ولكن أباح له ذلك[283] - وهو محرم في الإسلام، ومع هذا تسامح المسلمون في هذا وقالوا: لا نضيق عليهم في أمر أباحه لهم دينهم. فكيف تريدون أنتم من المسلمين أن يتخلوا عن فرض رباني، وواجب شرعي، وحكم ديني من أحكام الإسلام؟! أين التسامح الذي تدعون؟!

أين أنتم من الحضارة الإسلامية؟

لماذا لا تقلدون الحضارة الإسلامية؟ تلك الحضارة التي وسعت الأديان، ووسعت الثقافات، وشاركت فيها عناصر شتى، منهم يهود، ومنهم نصارى، ومنهم سريان، ومنهم عروق وأديان مختلفة، ولم تفرض على غير المسلمين ولا على غير المسلمات ما لا يفرض عليهم دينهم.

---

(283) بل إن بعض النصارى ينازع في إباحة شرب الخمر في دينهم، ولهم في ذلك وجهة نظر يدللون على صحتها.

كان غير المسلمات يعشن في المجتمع الإسلامي حاسرات الرؤوس، لم يفرض عليهن الإسلام أن يغطين رؤوسهن لماذا لا تفعلون مثلما فعلت الحضارة الإسلامية؟ لماذا لا تقبلون التنوع والتعدد، والتنوع إثراء للحضارة، وهذا أمر مطلوب؟

كيف تلزمون المسلمة بضد ما ألزمها الله تعالى به؟!

أين الحرية؟

أين الحقوق؟

أين الحرمات؟

أين كرامة الأفراد؟

بلاد المسلمين التي تمنع الحجاب:

هذا ما قلناه للقوم، وحاولوا أن يتملصوا من هذا الأمر، وقال بعضهم فيما قال: إن الحجاب ليس واجبًا دينيًا، وليس فرضًا شرعيًا، بدليل أن هناك بلادًا إسلامية تمنع الحجاب! وضربوا مثلًا لذلك بـ «تركيا» و«تونس».

فقلت لهم: إن هذه ليست بلادًا إسلامية، هذه بلاد علمانية، العلمانية هي الحاكمة فيها، والمسلمون لم يسلموا في تركيا إلا بعد أن ضحوا بالآلاف ومئات الآلاف، قاوموا هذه العلمانية التي فرضت على المجتمع، علمانية التشريع، وعلمانية التعليم، وعلمانية الثقافة، وعلمانية الإعلام، وعلمانية التقاليد، كلها فرضت بالحديد والنار.

«خلع الحجاب» فرضه أتاتورك وحزبه فرضًا، وأصبح مفروضًا على

المسلمة لعقود من السنين تحت نير العلمانية المتجبرة: ألا تتحجب، ولكن هذا ليس من الإسلام في شيء.

وتونس، تبيح الزنى وتحرم تعدد الزوجات، وتعتبر الحجاب جريمة، لا تجيز للمسلمة دخول المدرسة أو الجامعة أو تولي أي وظيفة حكومية، بل تمنع المحجبة من العلاج في أي مستشفى حكومي، حتى الحامل لا تدخل مستشفى الولادة إلا بعد أن تجبر على خلع الحجاب!

هذه البلاد التي تمنع الحجاب تخالف أمر الله، وتحاد الله ورسوله، جهارًا نهارًا، عيانًا بيانًا، صراحة لا شك في ذلك، ولم يعرف هذا قبل عصر العلمانية في زمننا.

البلاد الإسلامية أنواع:

هناك بلاد تلزم الطالبة المسلمة الحجاب، وذلك مثل السعودية، ومثل قطر في مدارسها، ومثل السودان، ومثل إيران.

وهناك بلاد تدع هذا الأمر حرية شخصية، من أردات أن تتحجب فلتتحجب كما في مصر، وعندما أراد وزير التعليم في مصر أن يصدر قرارًا فيه مساس بهذه الحرية، هاج الناس وثارت الدنيا، وقامت ولم تقعد، حتى اضطر الوزير أن يتنازل عن قراره ويقول: لا تمنع محجبة من الدخول إلى مدرسة، وهذا هو معنى العلمانية.

وهذا ما قلناه لهم: إن العلمانية هي التي تدع الناس أحرارًا في مسائل الدين.

والنوع الثالث من البلاد الإسلامية هو الذي يحارب الحجاب، وأنا أقول:

بلاد إسلامية، أي أن شعوبها إسلامية، وإن لم تكن أنظمتها إسلامية.

هذه البلاد هي التي تمنع الحجاب وتعتبره جريمة، ولا تسمح للطالبة في المدرسة أو في الجامعة أو في أي وظيفة من وظائف الحكومة أن ترتدي الحجاب وتلبس الخمار!

يسمح للمتبرجة أن تلبس ما تشاء، يسمح للكاسيات العاريات المائلات المميلات أن يدخلن المدارس والجامعات، وأن يوظفن في سائر وظائف الدولة، إلا المسلمة الملتزمة بالحجاب!

بل يوجبون على المرأة إذا أرادت أن تدخل مستشفى للعلاج أو للولادة، أن تخلع الحجاب قبل أن تعمل العملية الجراحية أو نحو ذلك!

الأصل في العلمانية الحياد مع الدين:

وهذا عجب، فالأصل في العلمانية أنها تقف موقفًا محايدًا من الدين. هذه هي العلمانية الليبرالية كما يسمونها، لا تؤيد الدين ولا ترفضه، لا تواليه ولا تعاديه، تدع الناس أحرارًا، هي لا تدرس لهم الدين ولا تعلمهم الدين، ولا تقف من الدين موقفًا إيجابيًا، لا موقف التأييد ولا موقف الرفض.

العلمانية المعادية للدين:

هناك علمانية أخرى: العلمانية الماركسية الشيوعية، هي التي تقف موقفًا مضادًا من الدين، مناقضًا للدين، معاديًا للدين، لأن الدين في نظرها أفيون الشعوب ومخدر الجماهير، والأصل أنها ضد الدين.

ولكن أنتم يا دعاة العمانية الليبرالية لماذا تعادون الدين وتعادون أحكامه الملزمة في الشؤون الشخصية؟! دعوا الناس أحرارًا في حياتهم الشخصية،

ولا تتدخلوا فيها رغم أنوفهم.

هذه المسلمة التي اختارت الحجاب طوعًا وبإرادتها، لماذا تُقسر قسرًا، وتُقهر قهرًا، على أن تخلع حجابها؟! ليس هذا من العلمانية التي نعرفها عنكم يا آل فرنسا.

هل الحجاب أمر جديد على الحياة الإسلامية؟

قالوا أيضًا: هذا الحجاب أمر جديد على المسلمات، جاء به الأصليون المسلمون! وخلال السنوات وعشرات السنوات الماضية، لم يكن هناك هذا الحجاب، وكانت المسلمة كغيرها من النساء، تخرج متبرجة لابسة الملابس الإفرنجية وملابس الحضارة الحديثة، لا تميز مسلمة من غير المسلمة.

قلت لهم: هذا صحيح، ولكن هذا كان بتأثير الاستعمار الغربي على الحياة الإسلامية.

ظلت المسلمة ثلاثة عشر قرنًا، لم يعرف خلال هذه القرون أن مسلمة واحدة خلعت غطاء رأسها، هذا ما لم يحدث طوال التاريخ.

بل كانت المرأة المسلمة لو حدث منها حركة اضطرارية سقط بها حجابها أو طار منها، تعتبر نفسها كأنها عارية، وتحاول أن تغطي رأسها بأي شيء.

هذا ما كان عليه المسلمات خلال القرون، حتى دخل الاستعمار الغربي بلاد المسلمين، وبدأ يغير الشخصية الإسلامية، ويغير معالم الأمة ومعالم هويتها، ويفرض سلوكه بمؤثرات شتى، فبدأ تقليد الخواجات والأجانب، الطبقة العليا من القوم بدأن يقلدن نساء الخواجات، ثم الطبقة التي بعدهن ثم التي بعدهن، حتى أصبح هذا في وقت من الأوقات أمرًا شائعًا.

كنا في وقت من الأوقات ... في الستينات من هذا القرن، يمر الإنسان في العواصم الكبرى في البلاد العربية والإسلامية، فلا يكاد يجد امرأة محجبة، تجدها عجوزًا أكل الدهر عليها وشرب، ومع هذا تلبس ما يسمى: «الجبونيز» أو «الميني» أو «المكرو» أو هذه الأشياء، هذا بتأثير الاستعمار، وبتأثير سلطان الحضارة الغربية المادية الإباحية.

عودة المسلمات إلى الحجاب حركة نسائية تحررية:

الآن بعد الصحوة الإسلامية المعاصرة، بعد أن امتد هذا البعث الإسلامي شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا، بعد أن اكتشف المسلمون واكتشفت المسلمات ذواتهم وذواتهنّ، وعرفوا من هم، بدأت المسلمة تعود إلى رشدها، وترجع إلى ربها، وتلتزم الحجاب طواعية، هي حركة نسائية إسلامية طوعية اختيارية إيرادية تحررية، فكثيرًا ما التزمت الفتيات هذا الأمر برغم آبائهن وبرغم أزواجهن.

أجل هي حركة تحررية، استردت المسلمة شخصيتها الحقيقية، واستعادت الثقة بنفسها، وتمردت على التقليد الأعمى للحضارة الغربية، والمرأة الغربية.

كانت المسلمة قبل ذلك تقلد المرأة الغربية، وتمشي وراءها، وتتبع سننها، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، كما ذكر لنا النبي صلى الله عليه وسلم: «**حتى لو دخلوا جحر ضبّ تبعتموهم**»(284) أي أصبح جحر الضب «مُودة» ينبغي أن

---

(284) ونصه كاملًا: «**لتتبعن سنن من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضبّ تبعتموهم**»، قلنا يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن؟!**» متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري «شرح السنة» للبغوي (392/14 برقم 4196)، وروى الحاكم عن ابن عباس: «**لتركبن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو**

يسلكها الجميع، وتظهر «مودة» اسمها: مودة جحر الضب!

ولكن المسلمين خرجوا من حجر الضب، خرجوا من قوقعة التقليد إلى باحة الحرية، تحرروا من الاتباع، وبدأت المسلمة تعود إلى دينها.

دعوى أن مفكرين مسلمين أنكروا الحجاب:

وقال هؤلاء فيما قالوا: إن هناك من مفكري المسلمين وعلمائهم من يقول: إن الحجاب ليس من الإسلام!!

قلت لهم: من هؤلاء الذين يزعمون أنهم مفكرون؟ هناك قوم دخلاء على العالم الإسلامي وعلى الفكر الإسلامي، يراد تلميعهم، ويراد إعطاؤهم ألقابًا جديدة: المفكر الإسلامي - العالم الإسلامي، وهو لا يفقه من الإسلام شيئًا، ما درس القرآن، ولا درس السنة، ولا درس الأصول، ولا درس العربية، ولا غاص في بطون الكتب الإسلامية، ومع هذا يدعى له لأنه مفكر، ويأتي أحدهم ليقول: إن هذا كان في أيام البعثة، أراد القرآن أن يعالج وضعًا معينًا، وقد زال هذا الوضع!!

كأن القرآن إنما أنزل لبضع سنوات، ثم يجب أن يشطب وينسخ ولا يعمل به بعد ذلك.

هذا القرآن ... كتاب الله، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كتاب

أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتم، وحتى لو أن أحدهم جامع امرأته بالطريق لفعلتموه» ورمز له السيوطي بالصحة «الجامع الصغير» (122/2 - 123)، قال العلامة المناوي: رواه الحاكم في الإيمان عن ابن عباس وقال: على شرط مسلم، وأقره الذهبي، ورواه عنه أيضًا البزّار، قال الهيثمي: ورجاله ثقات «فيض القدير» (261/5 - 262 برقم 7224).

محفوظ: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ} [الحجر: 9]، يخاطب الأمة في عصر النبوة، وفي عصر الصحابة، وفي سائر العصور، وإلى أن تقوم الساعة.

والأمة ملزمة بأحكام ربها، لا يغنيها عن ذلك شيء: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ} [الأحزاب: 36][285]، {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ} [النور: 51].

ولقد وجدنا من هؤلاء العصريين من ينكر تحريم الخمر، وهي من قطعيات الدين، ومما علم منه بالضرورة، ومن ينكر تحريم الربا، وهو مما أجمعت عليه الأمة بكل مذاهبها وطوائفها.

فليقل هؤلاء الشاردون المحرفون ما شاؤوا، فالقرآن والسنة وإجماع الأمة طوال قرونها حجة عليهم، ولا تجمع هذه الأمة على ضلالة.

الحكام الذين أنكروا وجوب الحجاب:

وقالوا فيما قالوا: إن هناك من حكام المسلمين من قال: إن الحجاب ليس بواجب!!

قلنا لهم: حكام المسلمين هؤلاء ليسوا حجة على الإسلام، بل الإسلام حجة على الحكام وعلى المحكومين، الإسلام هو القرآن والسنة، الإسلام هو إجماع الأمة وخاصة في خير قرونها، أما هؤلاء المبتدعون، المتنكرون للشريعة، المقلدون للخواجات، فلا عبرة بهم ولا وزن لهم.

---

(285) وتتمتها: {وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا}.

ما قيمة حاكم يقول: الحجاب هو أمر يتبع التقاليد، يتبع العرف، وأنا بناتي يسبحن في الحمامات مع الرجال، ويلعبن الرياضة في المتنزهات، وفي الأندية أمام أعين الرجال؟! ما قيمة هذا الحاكم؟ مهما يكن أمره فإن الإسلام حجة عليه، الإسلام يعلو ولا يعلى.

لهذا سقطت كل تلك الشبهات التي أثارها هؤلاء وبقي الحجاب فرضًا دينيًا، وواجبًا شرعيًا، يجب أن تمكن منه المسلمة.

موقف مخجل للمسؤولين المسلمين:

ومن المؤسف أن أحدًا من المسؤولين في بلاد الإسلام، لم يثر هذا الأمر مع هؤلاء، لم تحتج دولة إسلامية، لم يثر هذا الموضوع، حتى إن وزير الخارجية الفرنسي زار عددًا من البلدان العربية ولم أر صحفيًا أحرجه وسأله: ما هذه الضجة التي تقيمونها على حجاب الطالبات المسلمات في فرنسا؟

لم نر أحدًا اهتم بهذا الأمر، كأن المسلمين أصبحوا جماعة مفككة، لا يهتم بعضهم بأمر بعض، و**«من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، ومن لم يصبح، ويمسي ناصحًا لله، ولرسوله، ولكتابه، ولإمامه، ولعامة المسلمين، فليس منهم»**[286].

---

(286) رواه الطبراني عن حذيفة بن اليمان، من رواية عبد الله بن أبي جعفر الرازي وهو مختلف فيه، فقد ضعفه بعضهم ووثقه آخرون، ويشهد للحديث أحاديث أخرى «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (514/2) برقم (997).

إنها عقدة من رواسب الحروب الصليبية:

قلنا لهؤلاء: هب أن هذا رمز كما تدعون - وهو ليس برمز وإنما له وظيفة ووظيفته الستر والحشمة - أتمنعون من يضع الصليب على صدره؟ أتمنعون اليهودي الذي يضع الطاقية على رأسه؟ أتمنعون السيخي الذي يلبس عمامته ولا يخلعها؟ حتى أنهم عندما يصرحون لمن يركبون الدراجات النارية يلزمونه أن يكون معه خوذة وهذا السيخي لا يمكن أن تدخل الخوذة مع العمامة في رأسه، ومع هذا يسمحون له، لأن هذا أمر من أمور دينه، لماذا تتسامحون مع كل أهل الأديان إلا المسلمين إذن؟!

قلنا لهم: الأمر إذن فيه شيء، إذا سمحتم لنا أن نقول بصراحة وحرية: هذا راسب من رواسب الحروب الصليبية، هي عقدة قديمة مع الإسلام والمسلمين يجب أن تتحرروا منها.

لا ينبغي - إذا كنا نريد أن نتحاور بحق - أن نتحاور ونفوسنا مليئة بالعقد، يجب أن نحل هذه العقد وأن نتعامل معًا ونتحاور معًا ندًا لندٍّ.

نحن أبناء اليوم لا بقايا الأمس، دعونا من الحروب الصليبية وما حدث فيها، ولنبدأ صفحة جديدة.

أما إذا أصررتم على أن تعاملوا المسلمين بهذه الروح، فلن يفلح حوار، ولن يفلح لقاء.

لماذا الخوف من الإسلام؟

لماذا تخافون الإسلام؟ ما هذه المقولات التي تظهر ما بين الحين والحين تحمل التخويف من الإسلام ... التخويف مما سموه: الخطر الأخضر؟

لقد زال الخطر الأحمر بزوال الاتحاد السوفيتي ... دولة الشر كما سماها «ريجن»، وزال الأصفر الصيني بتقارب الصين مع الغرب، قالوا: وبقي خطر واحد، هو المخوف وهو المرعب وهو المهدد، وهو خطر الإسلام!

وعلى هذا وقفوا جميعًا مع الصرب ضد المسلمين في البوسنة والهرسك، وقف معهم الكاثوليك الفرنسيون، ووقف معهم البروتستانت البريطانيون، ووقف معهم الأرثوذكس الروس واليونان، وقفوا جميعًا لتأييد هؤلاء الذين يقولون عن أنفسهم: نحن فرسان الصليب، نحن ندفع عن أوربا خطر الإسلام الزاحف إليها، نحن نقدم خدمة للغرب كله فيجب أن يساعدنا الغرب.

وقد ساعدهم الغرب بالفعل.

هذا هو للأسف ما يجري.

إن الإسلام يفتح ذراعه للجميع، وهو ليس خطرًا إلا على المادية والإلحاد، وعلى الإباحية والفساد.

ليس الإسلام خطرًا، ولكنه رحمة الله للعالمين: **{وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ}** [الأنبياء: 107].

ولن ينقذ البشرية المعذبة ... الحائرة ... القلقة ذلك القلق المرضي، لن ينقذها مما تعاني من أزمات وويلات، إلا هذا الإسلام، يوم يحمله مسلمون ... صادقون ... واعون ... صدقوا الله ما عاهدوه عليه: **{... فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا}** [الأحزاب: 23][287].

---

(287) وأولها: **{مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ}**.

أسأل الله تعالى أن يجعل يوم المسلمين خيرًا من أمسهم، وأن يجعل غدهم خيرًا من يومهم، وأن يغفر لنا ما مضى، ويصلح لنا ما بقي، إنه سميع قريب.

أقول قولي هذا - أيها الإخوة والأخوات - وأستغفر الله تعالى لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

جنون إسرائيل بعد الضربات الفدائية:

جن جنون إسرائيل، بعد أن ضربت تلك الضربات الفدائية القوية في عقر دارها ... في تل أبيب، وفي القدس التي تحكمها، ضربات الشباب الذين باعوا أنفسهم لله، وضحوا بها رخيصة ليؤدبوا إسرائيل.

وهي الآن تحاول الانتقام.

دمرت بيت الشاب الفدائي المؤمن الذي ضحى بنفسه لله عز وجل، وتريد الآن أن تحاصر وتعلن الحرب، سرية وعلنية، واتخذت من الخطوات ما تريد به القضاء على الحركة الإسلامية ... حركة المقاومة الإسلامية «حماس».

تريد إسرائيل أن تحتل الأرض، وتنتهك العرض، وتشرد الأهل، ولا يقف أحد ضدها.

ماذا أخذ الفلسطينيون منها إلى الآن؟ كلامًا ووعودًا، ولم يحصلوا منها على شيء ذي بال للأسف.

ولهذا لا بد أن تظل المقاومة حية وقائمة، لا بد أن يظل الجهاد، ولا يمكن أن تسترد الحقوق إلا بالجهاد.

فلسطين كلها أرض إسلامية، واغتصاب اليهود لها لا يعطيهم الحق ولا المشروعية في البقاء فيها، هم أخذوها بالقوة فيجب أن يطردوا منها بالقوة.

قد يفعل الساسة ما يفعلون، ويرضخون لما يرضخون، ولكن أحكام الشرع باقية أرض الإسلام يجب أن تظل أرضًا للإسلام.

أرض الإسراء والمعراج، أرض النبوات، والأرض التي بارك الله فيها للعالمين، ووصفها القرآن بالبركة في ستة مواضع، هذه الأرض يجب أن تظل إسلامية.

قالوا: الأرض مقابل السلام!

أي أرض وأي سلام؟!

أرضنا مقابل سلامهم! يجب أن نسلمهم أرضنا، أو نسمح لهم بالبقاء في أرضنا، أو نسمح لهم بمشروعية امتلاك أرضنا، في مقابل أن يعيشوا في سلام!

أي صفقة هذه؟!

ومع هذا فما سلموا الأرض إلى اليوم، يريدون سلامًا بلا مقابل.

ولهذا ينبغي أن يظل الجهاد، وأن تظل المقاومة.

وما دام هناك شباب باعوا أنفسهم لله، ووضعوا رؤوسهم على أكفهم، وأرواحهم في أيديهم، وقالوا: يا رياح الحنة هبي، ويا خيل الله اركبي. ما دام

هذا الشباب المؤمن الذي لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه، هؤلاء الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وقد باعوا وأرادوا أن يسلموا حتى يستحقوا الثمن، ما دام هؤلاء الشباب باقين ماضين في طريقهم، فنحن بخير إن شاء الله.

وليفعل اليهود، ولتفعل إسرائيل ما تشاء، ولتهدد ما تهدد، فإنها لن تقف ذلك الفدائي الذي لا يبالي ما يصيبه في سبيل الله:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا ... على أي جنب كان في الله

اللهم انصر الإسلام وأعز المسلمين.

اللهم اجعل كلمة الإسلام هي العليا، واجعل كلمة أعداء الإسلام هي السفلى.

اللهم انصر إخواننا المجاهدين في سبيلك في فلسطين، وفي لبنان، وفي كشمير، وفي البوسنة والهرسك، وفي كل مكان من أرض الإسلام.

اللهم عليك باليهود الغادرين، اللهم عليك بالصربيين الحاقدين، اللهم عليك بالوثنيين المتعصبين، اللهم عليك بأعدائك أعداء الدين، اللهم رد عنا كيدهم، وفل حدهم، وأدل دولتهم، وأذهب عن أرضك سلطانهم، ولا تدع لهم سبيلًا على أحد من عبادك المؤمنين، اللهم أنزل عليهم بأسك الذي لا يرد عن القوم المجرمين، اللهم خذهم ومن ناصرهم أخذ عزيز مقتدر.

اللهم أيد إخواننا المضطهدين في سبيلك، اللهم أمدهم بملأ من جندك، وأيدهم بروح من عندك، واحرسهم بعينك التي لا تنام، واكلأهم في كنفك الذي لا يضام.

{... رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ} [آل عمران: 147].

{... رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ} [الحشر: 10].

اللهم اجعل هذا البلد آمنًا مطمئنًا، سخاء رخاء وسائر بلاد الإسلام.

اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخاف ولا يرحمنا، ولا تهلكنا بما فعل السفهاء منا. اللهم آمين.

عباد الله، يقول الله تعالى : {إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا} [الأحزاب: 56].

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

{... وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ} [العنكبوت: 45].

* * *

15 - منع كتاب «الحلال والحرام» في فرنسا(288)

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

طلب إلي بعض الإخوة أن أحدثكم في قصة كتابي «الحلال والحرام في الإسلام»، ومنعه من وزارة الداخلية الفرنسية، وأسباب هذا المنع، وقد نشر ذلك في عامة الصحف ووسائل الإعلام.

تساؤلات من أنحاء العالم حول منع الكتاب:

والحقيقة أني طوال هذا الأسبوع كنت في شغل شاغل حول هذا الأمر، منذ مساء الجمعة الماضية، والاتصالات الهاتفية والاتصالات برسائل «الفاكس» من العالم العربي ومن العالم الأوربي، ومن أمريكا ومن غيرها، تسأل عن سر هذا المنع، ما الذي في الكتاب حتى يمنع؟

الكتاب كتاب للتعليم لا للمواجهة:

قلت لهم: في الحقيقة إنني في غاية الاستغراب والدهشة، لا أجد في الكتاب شيئًا يمكن أن يكون سببًا للمنع، هذا كتاب تعليمي، وليس كتاب مواجهة،

---

(288) في يوم الجمعة 1415/12/5هـ - 1995/5/5م فوجئ المسلمون والعالم الإسلامي بقرار وزير الداخلية الفرنسي «شارل باسكوا» بمصادرة كتاب «الحلال والحرام في الإسلام» للشيخ القرضاوي، واعتبر القرار الذي نشر في الجريدة الرسمية الفرنسية إن «تداول هذا الكتاب في فرنسا من شأنه أن يتسبب في أخطار للأمن العام، نظرًا إلى نبرته المعادية للغرب وأفكاره المخالفة للقوانين والقيم الأساسية التي تقوم عليها الجمهورية الفرنسية»!!

كتاب يعلم المسلمين ما ينبغي أن يكون عليه سلوك المسلم في حياته الفردية، وفي حياته الأسرية، وفي حياته العامة، في كل ما يتعلق بفكرة «الحلال والحرام» في هذه الأمور، وهي فكرة أساسية في كل دين.

الكتاب متهم من المتشددين بالتساهل والتيسير:

لا يتعرض الكتاب للمواجهة ولا يدعو إلى عنف، وليست لهجته لهجة تشنج، بل لهجة تسامح وتيسير، والذين انتقدوا هذا الكتاب من المسلمين إنما انتقدوه لأنه كتاب ميسر، وكتاب متسامح أكثر من اللازم، حتى قال بعض الإخوة المتشددين على سبيل النكتة: هذا كتاب «الحلال في الإسلام»، إشارة إلى أنه كتاب يضيق دائرة المحرمات.

ولما سئلت - في دولة البحرين - منذ عدة سنوات: ما لك تميل إلى تضييق المحرمات؟ قلت لهم: لست أنا الذي يميل إلى تضييق المحرمات، الإسلام هو الذي ضيق في المحرمات، المحرمات محدودة، وكل ما عدا ذلك مباح، فالأصل في الأشياء الإباحة، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئًا**» ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم قول الله تعالى: **{وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا}** [مريم: 64]، هذا هو الحديث الذي رواه أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم(289).

الكتاب متهم بالتساهل والتيسير والتسامح، فكيف يمنع مثل هذا الكتاب؟!

---

(289) رواه الحاكم وصححه وأخرجه البزار «الحلال والحرام في الإسلام» (ص 23) ط. المكتب الإسلامي.

الكتاب ليس ابن اليوم:

ثم إن هذا الكتاب ليس ابن اليوم ولا وليد الأمس إن لـه نحو ست وثلاثين سنة يوزع وينشر في آفاق العالم الإسلامي كله.

نشر باللغة العربية في مصر ... في لبنان ... في سوريا ... في الجزائر ... في المغرب ... في الكويت ... حتى في أمريكا.

أعتقد أنه نشر بالعربية ما لا يقل عن خمسين مرة، بعضها بإذن المؤلف، وبعضها من غير إذنه.

ترجمة الكتاب إلى لغات العالم المختلفة:

ثم ترجم إلى لغات عدة، لا أكاد أعرف لغة ذات قيمة إلا وترجم إليها الكتاب، أحيانًا بإذن المؤلف، وأحيانًا بغير إذنه.

كنت منذ سنوات في اجتماع منظمة الدعوة الإسلامية في «أوغندا» وفي عاصمتها «كمبالا»، وبعد صلاة الجمعة قدمت لألقى كلمة في الناس، وقال مقدمي: إن هذا هو فلان صاحب كتاب «الحلال والحرام» الذي قرأتموه بلغتكم السواحلية، وسألت الأخ بعد ذلك: هل ترجم الكتاب إلى السواحلية؟ قال: نعم، ومن سنوات عدة، وطبع عدة طبعات.

ومنذ سنوات كنت في الجامعة الإسلامية العالمية في إسلام آباد في باكستان، والتقيت بالطلبة الصينيين والطالبات الصينيات - حوالي خمسين طالبًا جاءوا من الصين ليدرسوا في هذه الجامعة - وبعد أن فرغت من المحاضرة والأسئلة، وإذا بعدد من الطلاب جاءوا بكتاب «الحلال والحرام» يريدون مني التوقيع عليه، قالوا: هذا كتاب ترجم إلى لغتنا الصينية، وما

عرفت هذا من قبل.

الكتاب - والحمد لله - انتشر في الآفاق، بالعربية وبغير العربية، باللغات الإسلامية وباللغات الأجنبية.

أصل تكليفي بتصنيف هذا الكتاب:

وأصل هذا الكتاب - في الواقع - كان تأليفه بتكليف من مشيخة الأزهر، في عهد شيخها الأكبر وشيخنا الشيخ محمود شلتوت رحمه الله ، وبتكليف مباشر من المدير العام لإدارة الثقافة الإسلامية الأستاذ الدكتور محمد البهي رحمه الله ، وكان ذلك بناء على طلبات من الجاليات الإسلامية والأقليات الإسلامية في الأقطار المختلفة، في أوربا وأمريكا واستراليا وغيرها.

طلبات عدة جاءت تطلب من الأزهر ومن وزارة الأوقاف في مصر: الكتابة في عدة موضوعات ... ثلاثين موضوعًا، من هذه الموضوعات: ما يحل للمسلم وما يحرم عليه، وكلفت بالكتابة في هذا الموضوع.

كان الأصل في الكتاب أن يؤلف ليترجم إلى اللغات الأخرى، ليقرأه المسلمون باللغات الأخرى، وتقرأه الجاليات المختلفة في البلدان المختلفة.

والحمد لله ألفت الكتاب منذ سنة (1959م)، وأثنت عليه اللجنة المختصة، وأقرته مشيخة الأزهر، وكتب فيه المفكر الإسلامي المعروف الأستاذ محمد المبارك تقريرًا قال فيه: إن هذا الكتاب هو خير كتاب في موضوعه فيما أعلم.

كتاب أقر من أكبر هيئة علمية إسلامية في العالم، وهي «الأزهر الشريف»، ماذا بعد ذلك؟!

ثم تلقاه العالم الإسلامي كله بقبول حسن، واثنى عليه كبار العلماء، قال الفقيه الكبير الأستاذ مصطفى الزرقا: إن اقتناء هذا الكتاب واجب على كل أسرة مسلمة، وقرره الأستاذ الكبير الشيخ على الطنطاوي في تدريس مادة الثقافة الإسلامية، حينما كان يقوم بتدريسها في كلية الشريعة وكلية التربية بمكة المكرمة. وكتب إلي الأستاذ أبو الأعلى المودودي حين وصلته نسخة من الكتاب يقول: إني أعتز بهذا الكتاب واعتبره إضافة جليلة إلى مكتبتي، وخرج أحاديثه المحدث المعروف الشيخ ناصر الدين الألباني(290).

وقدمت طالبة - في أوائل الستينيات - من جامعة البنجاب بلاهور في باكستان: دراسة حوله، حصلت بها على الماجستير، وكذلك طالب في جامعة كراتشي.

العالم الإسلامي تلقى الكتاب كله بالقبول، ولم أر أحدًا قال: إن الكتاب يحمل دعوة إلى العنف أو أي شيء من هذا.

فالغريب أن يصدر من وزارة الداخلية الفرنسية، هذا القرار الذين يمنع تداول الكتاب وبيعه ونشره، باللغتين العربية والفرنسية(291).

---

(290) في كتابه «غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام»، وهو نوع من التكريم للكتاب وصاحبه، فعلماء الحديث من قديم لا يخرجون أحاديث الكتب المغمورة أو التافهة، إنما يخرجون الكتب التي لها قيمة ووزن علمي وشهرة عند أهل العلم وجماهير الناس.

(291) علمًا بأن الكتاب كان يوزع في فرنسا منذ عام (1990م) بالتعاون بين داري النشر: «عكاظ» في باريس، و«ريحان» في المغرب، فما سر هذا التوقيت؟!

أسباب المنع عند الداخلية الفرنسية وتفنيدها:

لماذا؟ وهذا أعجب.

التعليل والحيثيات التي استند إليها هذا القرار المتعسف: إن هذا الكتاب فيه لهجة تحمل عداء واضحًا للغرب، وأنه مخالف ومعارض للقيم والقوانين الأساسية التي تقوم عليها الجمهورية الفرنسية!!

هل في الكتاب لهجة معادية للغرب؟

حينما سئلت عن هذا، قلت: إن هذا كلام غير صحيح بالمرة، لا يحمل الكتاب أي لهجة أو أي نبرة عدائية لا للغرب ولا للشرق.

من قرأ الكتاب من أوله إلى آخره لا يلحظ فيه هذه اللهجة، لأنه - كما قلت - كتاب يعلم المسلمين ما ينبغي أن يعرفوه من أمور الحلال والحرام، ليس فيه أي نبرة عدائية إطلاقًا.

بالعكس، الكتاب في فصله الأخير يتحدث - بإجمال عن «علاقة المسلم بغير المسلم»، وهي علاقة تقوم على آيتين من كتاب الله - كما حدد ذلك الكتاب - في سورة «الممتحنة» تعتبران دستورًا للعلاقات مع غير المسلمين يقول الله تعالى: **{لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ 8 إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ}** [الممتحنة: 8، 9].

هنا انقسم غير المسلمين إلى هذين النوعين:

نوع لم يقاتل المسلمين في الدين ولم يخرجوهم من ديارهم، وليس بيننا

وبينهم عداوة، فهؤلاء لا ينهى الإسلام «أن تبروهم وتقسطوا إليهم».

العلاقة بيننا وبينهم قائمة على القسط والبر، القسط: العدل، والبر: الإحسان، البر كلمة أعظم من العدل وأوسع، العدل: أن تعطي الإنسان حقه، والبر: أن تتفضل فتعطيه فوق الحق، وأن تتنازل عن حقك أحيانًا.

هذا هو البر، وهي الكلمة التي يعبر بها المسلمون عن أقدس الحقوق البشرية وهو: حق الوالدين، حين يقولون: بر الوالدين.

فالإسلام جاء يحث على أن نعامل غير المسلمين الذين لم يقاتلوننا ولم يخرجونا من ديارنا، بأن نبرهم ونقسط إليهم، فإن الله يحب المقسطين.

منزلة أهل الكتاب في الإسلام:

هذا في شأن غير المسلمين عامة، لأن هذه الآيات نزلت في شأن المشركين الوثنيين، أما أهل الكتاب فلهم منزلة خاصة في الإسلام.

أباح الإسلام للمسلمين أن يأكلوا ذبائحهم، وأن يتزوجوا من نسائهم، كما صرحت بذلك آية من كتاب الله من سورة «المائدة»، وهي من أواخر ما نزل من القرآن: {**... وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ ...**} [المائدة: 5].

أباح الإسلام للمسلم أن يتزوج من الكتابية، أي: أن تكون ربة بيته، وشريكة حياته، وأم أولاده، وأن يكون أصهاره من أهل الكتاب، وأن يكون أجداد أولاده وجداتهم وأخوالهم وخالاتهم وأولاد أخوالهم وأولاد خالتهم من هؤلاء الكتابيين، لأن الله ربط بين الناس بلحمتين: لحمة النسب ولحمة المصاهرة كما قال تعالى: {**وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗا**

...} [الفرقان: 54].

فما دام قد أجاز التزوج من هؤلاء فمعناه: أباح مخالطتهم، وأباح أن يكونوا أقرباءه، وأن تقوم بينهم المودة والرحمة.

أي سماحة أعظم من هذه السماحة؟!

لا يمكن أن يرقى دين في السماحة إلى هذا الحد.

وأكثر من ذلك أن «النصارى» لهم وضعية خاصة، لهم منزلة أخص في أهل الكتاب قال الله تعالى: **{... وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ...}** [المائدة: 82].

بل الإسلام يوصي بالرحمة بالحيوان:

هذا ما ذكره الكتاب في الفصل الأخير وقال[292]: وكيف يبيح الإسلام للمسلم أن يسيء إلى غير المسلم أو يؤذيه، وهو يوصي بالرحمة بكل ذي روح، وينهى عن القسوة على الحيوان الأعجم.

لقد سبق الإسلام جمعيات الرفق بالحيوان بثلاثة عشر قرنًا، فجعل الإحسان إليه من شعب الإيمان، وإيذاءه والقسوة عليه من موجبات النار.

ويحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه عن رجل وجد كلبًا يلهث من العطش، فنزل بئرًا فملأ منها ماء، فسقى الكلب حتى روي، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: **«فشكر الله له فغفر له»** فقال الصحابة: يا رسول الله،

---

(292) انظر: (ص 310، 311) من كتاب «الحلال والحرام في الإسلام» ط. المكتب الإسلامي

إن لنا في البهائم أجرا؟ قال: «**في كل كبد رطبة أجر**»(293).

وإلى جوار هذه الصورة المضيئة التي توجب مغفرة الله ورضوانه يرسم النبي صورة أخرى توجب مقت الله وعذابه فيقول: «**دخلت امرأة النار في هرة حبستها، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض**»(294).

فإذا كان الإسلام رحمة عامة للحيوانات والبهائم فكيف لا يكون رحمة للإنسان؟

هذا ما جاء به الكتاب.

فكيف يقال: إنه يحمل لهجة واضحة عدائية للغرب؟!

وأنا قلت لمندوب القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية حينما سألني عن هذا: أنا أتحدى الوزير الفرنسي أن يأتي لي بشيء يدل على أن الكتاب يحمل لهجة عدائية للغرب ... في أي فصل من الكتاب؟ وفي أي صفحة منه؟ وفي أي سطر؟ ليدلني على هذا.

الكتاب لا يحمل أي شيء من هذا الذي قاله.

---

(293) رواه مالك، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، وابن حبان في «صحيحه» بلفظ قريب، من حديث أبي هريرة، وانظر تعليق الشيخ القرضاوي عليه في «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (300/1) برقم (495).

(294) رواه البخاري، وللحديث روايات أخرى انظرها في «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (628/2) برقم (1333)، والمراد بخشاش الأرض: حشرات الأرض ونحوها.

هل في الكتاب خطر على القيم والقوانين الأساسية لفرنسا:

كيف يقول: إن الكتاب يشكل خطرًا على الأمن العام في فرنسا، لأنه يحمل لهجة معادية للغرب بوضوح، ولأنه يعارض القيم والقوانين الأساسية في فرنسا؟!

قلت لهم: ما القيم التي يعاديها الكتاب وتقوم عليها فرنسا؟ قال لي مندوب الإذاعة البريطانية: إنهم يقولون: إن الكتاب يدعو المرأة إلى طاعة زوجها، وهذا تفريق بين الجنسين، والدستور الفرنسي يسوي بينهما.

وعرفت من الإخوة في فرنسا أنهم قالوا: إن الكتاب يقول إنه يجوز للزوج أن يضرب امرأته الناشز، صحيح إن الكتاب قال إنه يضربها ضربًا خفيفًا غير مبرح ولا يكون في الوجه ... إلخ، ولكن أجاز الضرب، وهذا معارض للقوانين الفرنسية.

قلت له: هذا ليس رأي الكتاب، وليس رأي المؤلف، هذا هو الإسلام، هذا ما جاء في القرآن، القرآن يقول: {**... وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًا ...**} [النساء: 34] هذا في حالة النشوز، وليس في الحالة العادية.

والقرآن لم يأمر بالضرب ابتداء وإنما قال: «فعظوهن». وينبغي للرجل - عند حالة النشوز - أن يبدأ بالوعظ ... بالكلمة المؤثرة ... بالإرشاد الحكيم ... بتخويف امرأته من الناحية الدينية ومن الناحية الدنيوية، وينبغي أن يستمر في ذلك فترة من الزمن.

فإذا لم يجد هذا انتقل إلى المرحلة الثانية وهي: الهجر في المضجع ... في

السرير، لا يعتزل عنها في حجرة أخرى، بل في نفس المضجع، لعله يوقظ فيها غريزة الأنثى، فتراجع نفسها، وتتخلى عن نشوزها.

ثم إذا لم تجد هذه الوسيلة ولا تلك، يلجأ إلى هذه الوسيلة الأخيرة: الضرب، لجوء المضطر.

وقلت في الكتاب: إن هذا قد يصلح لبعض النساء، وفي بعض الأحوال، وبقدر معين، وليس أمرًا عامًا، لأنه قد يفسد في بعض النساء، بعض النساء لا تحتمل الضرب، ولا تقبله، ولكن بعض النساء ربما تتلذذ بالضرب.

والزوج الحكيم هو الذي يعرف متى يستخدم هذا الأمر، إن اضطر إليه، وأجبر عليه.

والنبي صلى الله عليه وسلم حينما علق على هذا الأمر قال: «**أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته أول النهار ويجامعها آخره**»[295] يعني: حسن العشرة لا يليق منه أن يضرب الرجل امرأته.

وقال عليه الصلاة والسلام عن الذين يضربون النساء: «**ولا تجدون أولئك خياركم**»[296]، خيار الناس لا يضربون نساءهم.

---

(295) انظر: البخاري - «كتاب النكاح»، باب: ما يكره من ضرب النساء، وقد روى في ذلك حديث عبد الله بن زمعة، وقد رواه مسلم وأحمد وأصحاب السنن بألفاظ مختلفة، ذكرها الحافظ ابن حجر في «الفتح» (303/9) حديث (5204). وانظر «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان» (4190/9).

(296) رواه أبو داود (2146)، وابن ماجه (1985)، والدارمي (147/2)، والنسائي في «الكبرى»، وابن حبان في «صحيحه» (الإحسان: 4189/9)، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي (188/2، 191) كلهم عن ابن أبي ذباب، وله شاهد من حديث ابن عباس

ولذلك نجد النبي عليه الصلاة والسلام لم يضرب في حياته امرأة ولا خادمًا ولا دابة ولا شيئًا ما.

وإذا اضطر الإنسان للضرب، فليس معنى هذا أن يأتي بسوط أو بخشبة ويضرب بها امرأته، إنما هو من نوع ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم لخادم عنده اغضبته في أمر من الأمور، فأمسك بالسواك وقال لها: «**لولا مخافة القود** «أي القصاص» **يوم القيامة لأوجعتك بهذا السواك**»(297).

فهذا ما جاء به الكتاب، ولم يفتح الكتاب الباب ليقول للرجال: اضربوا نساءكم.

عند ابن حبان (4186)، وآخر مرسل عند البيهقي (304/7) من حديث أم كلثوم بنت أبي بكر، ونص الحديث كما عند ابن حبان: «**لا تضربوا إماء الله**» قال: فذئر النساء «أي نشزن» وساء أخلاقهن على أزواجهن، فقال عمر بن الخطاب: ذئر النساء وساءت أخلاقهن على أزواجهن، منذ نهيت عن ضربهن، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**فاضربوا**» فضرب الناس نساءهم تلك الليلة، فأتى نساء كثير يشتكين الضرب، فقال النبي حين أصبح: «**لقد طاف بآل محمد الليلة سبعون امرأة كلهن يشتكين الضرب، وأيم الله لا تجدون أولئك خياركم**»، وأما حديث ابن عباس الذي أشرنا إليه، فنصه: إن الرجال استأذنوا رسول الله في ضرب النساء، فأذن لهم، فضربوهن، فبات فسمع صوتًا عاليًا، فقال: ما هذا؟ قالوا: أذنت للرجال في ضرب النساء، فضربوهن، فنهاهم، وقال: «**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي**».

(297) رواه الطبراني في «الكبير»، وأبو نعيم في «الحلية»، والحاكم في «المستدرك»، وأبو يعلى في «مسنده»، عن أم سلمة رضي الله عنها، ورمز له السيوطي بالحسن «الجامع الصغير» (133/2)، قال المنذري: رواه أبو يعلى بأسانيد أحدها جيد «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (931/2) برقم (2261)، وقال الهيثمي: أسانيده عند أبي يعلى والطبراني جيدة «فيض القدير» (344/5) برقم (7525).

حدود طاعة المرأة للرجل:

أما مسألة إن المرأة تطيع الرجل، فهذا مبني على قوله تعالى: **{ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ...}** [النساء: 34]، الرجال هم المسؤولون.

أي شركة لا بد أن يكون لها مدير، لا بد أن يكون لها رئيس، لا يمكن أن يكون لها رئيسان متكافئان في السلطات، المركب التي فيها رئيسان - كما يقولون - تغرق، لا بد من رئاسة مسؤولة، فمن أحق بالرئاسة: الرجل أو المرأة؟

القرآن قال: **{ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ ...}** [النساء: 34]، ومن لطائف التعبير القرآني أنه لم يقل: الرجال قوامون على النساء بما فضل الله الرجال على النساء، لا، ولكنه قال: «بما فضل الله بعضهم على بعض» أي أن النساء مفضلات في بعض الجوانب، والرجال مفضلون في بعض الجوانب.

المرأة مفضلة بما لديها من جهاز عاطفي هيأه الله فيها لتكون أمًا، والرجل عنده الجهاز العقلي أقوى، فهو أبصر بالعواقب ويمكن أن يتحكم في عواطفه أكثر من المرأة، ثم هو الذي ينفق على تأسيس الأسرة، يدفع مهرًا ويؤسس بيتًا، فإذا انهدمت الأسرة انهدمت على أم رأسه.

من أجل هذا جعل الله الرجال قوامين على النساء.

وهذا لا ينفي المساواة، لأن أصل المساواة ثابت بالكتاب والسنة:

القرآن الكريم قال: **{فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ ...}** [آل عمران: 195]، أي أن المرأة من الرجل والرجل من المرأة، كل صنف يكمل الآخر، ليس أحدهما خصمًا لصاحبه، ولا عدوًا له.

والمرأة مكلفة مثل الرجل تمامًا، فالتكاليف القرآنية للجميع ... حينما يقول: «يا أيها الذين آمنوا» موجهة إلى الرجال وإلى النساء جميعًا، حتى التكاليف الاجتماعية يقول القرآن الكريم: **{وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ ...}** [التوبة: 71]، المرأة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر مثل الرجل.

فليست المرأة دون الرجل في الإنسانية، ولا في الواجبات الاجتماعية والواجبات الدينية، هي مكلفة مثل الرجل، وتجازي بالجنة مثل الرجل، أو بالنار مثل الرجل، المسؤولية واحدة، والجزاء واحد، هذا هو ما جاء به الإسلام.

والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**إنما النساء شقائق الرجال**»(298).

عبد الله بن عباس رضي الله عنهب وقف أمام المرآة يومًا يجمل من نفسه، ويأخذ من لحيته، ويرجل من شعره، فقال له نافع مولى ابن عمر: ما هذا يا

---

(298) رواه عن عائشة: أحمد (256/6) وأبو داود (236)، والترمذي (113)، والدارمي (195/1)، كما رواه أحمد عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن جدته أم سليم (377/6) ونسبه أيضًا إلى البزار عن أنس في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (2333).

ابن عم رسول الله، أتقف أمام المرأة تجمل في نفسك، وإليك يضرب الناس أكباد الإبل من شرق وغرب ليستفتوك في دين الله؟! قال: وماذا في هذا يا نافع؟ إني أتزين لامرأتي، كما تتزين لي امرأتي، وإني أجد هذا في كتاب الله، قال له: أين هذا في كتاب الله؟ قال: في قول الله تعالى: **{... وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَة ...}** [البقرة: 228].

{وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ}: أي كما أن على المرأة أن تتجمل لزوجها، على الرجل أن يتزين لزوجته ويتجمل لها.

{وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَة}: بعض المفسرين يقول: هي درجة القوامة والمسؤولية، وبعض المفسرين - كالإمام الطبري - يقول: «وللرجال عليهن درجة» أي في رعاية حقوق النساء، أن الرجل عليه أكثر من المرأة، مما ينبغي أن يراعى في حفظ الحقوق، وفي رعاية الأمور(299).

(299) قال الإمام الطبري بعد أن عدد أقوال أهل التأويل في هذه المسألة: وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية ما قاله ابن عباس، وهو أن الدرجة التي ذكر الله تعالى ذكره في هذا الموضع: الصفح من الرجل لامرأته عن بعض الواجب عليها، وإغضاؤه لها عنه، وأداء كل الواجب لها عليه، وذلك أن الله تعالى ذكره قال: «وللرجال عليهن درجة» عقيب قوله: «ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف» فأخبر تعالى ذكره أن على الرجل من ترك ضرارها في مراجعته إياها في أقرائها الثلاثة وفي غير ذلك من أمورها وحقوقها، مثل الذي له عليها من ترك ضراره في كتمانها إياه ما خلق الله في أرحامهن وغير ذلك من حقوقه، ثم ندب الرجال إلى الأخذ عليهن بالفضل إذا تركن أداء بعض ما أوجب الله لهم عليهن فقال تعالى ذكره: «وللرجال عليهم درجة» بتفضلهم عليهن، وصفحهم لهن عن بعض الواجب لهم عليهن، وهذا هو المعنى الذي قصده ابن عباس بقوله: ما أحب أن استنظف جميع حقي عليها، لأن الله تعالى ذكره يقول: «وللرجال عليهن درجة»، ومعنى الدرجة: الرتبة والمنزلة، وهذا القول من الله تعالى ذكره وإن كان ظاهره ظاهر الخبر، فمعناه معنى ندب الرجل إلى الأخذ على النساء بالفضل يكون لهم عليهن فضل درجة.

هذا ما جاء به الإسلام، وهذا ما كان وجهة الكتاب فيه، فكيف يقال إن الكتاب يعارض القيم والقوانين التي تقوم عليها الجمهورية الفرنسية ويشكل خطرًا على الأمن العام؟!

استياء المسلمين والأحرار في فرنسا:

الواقع أن المسلمين استاؤوا في فرنسا، واتحاد المنظمات الإسلامية قاد حملة طيبة، وكتب مذكرة إلى وزارة الداخلية، وتجاوب الإعلام الفرنسي بحق في هذه القضية، حتى كتب أحد الكتاب الفرنسيين في جريدة «ليموند» يدافع عن الكتاب، وينوه بما فيه من سماحة، واتحاد الناشرين الفرنسيين قال: إننا سنطبع الكتاب بالفرنسية ونوزعه رغم أنف وزارة الداخلية، وتجاوب الكثيرون وقالوا: إن الكتاب يحمل روح الاعتدال، وليس فيه روح العنف بالمرة، ولا يشكل أي خطر كما تدعي وزارة الداخلية.

كان الرأي العام في غالبه ضد هذا القرار المتعسف الظالم، ولذلك سرعان ما تراجع الوزير، وبعث مستشاره إلى عميد مسجد «باريس» يطلب إليه أن يلتمس الإفراج عن هذا الكتاب والرجوع عن هذا القرار، حفظًا لماء الوجه.

وفعلًا كتب عميد مسجد «باريس» كتابًا يلتمس فيه هذا الأمر وذهب الوزير في يوم الثلاثاء الماضي إلى المسجد وأعلن أنه سيلغي هذا القرار، وأنه كان خطأ إداريًا سخيفًا!!

بل هو خطأ سياسي وثقافي وحضاري:

وهو في الواقع خطأ إداري، وخطأ ثقافي، وخطأ سياسي، وما كان ينبغي

«جامع البيان» (455/2) ط. البابي الحلبي.

لبلد - مثل فرنسا - يزعم أنه بلد الحريات وأبو الحريات ... إلخ، أن يقع في مثل هذه الغلطة الواضحة الفاضحة، ويمنع كتابًا في بلد يدعي أن فيه حرية الرأي وحرية النشر وحرية التعبير ... إلخ.

حينما أرسل إلي بالأمس هذا الكلام، قالوا: ما تعليقك على هذا؟ قلت: والله أنا أرحب بهذا، الرجوع إلى الحق فضيلة، وقد قال سيدنا عمر رضي الله عنه في رسالته الشهيرة في القضاء: لا يمنعنك قضاء قضيته بالأمس وهديت إلى رشدك فيه اليوم، أن تراجع فيه نفسك، فإن الحق قديم، وإن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل، فإذا كان الوزير رجع إلى الحق فنحن نرحب بهذا ونحييه على هذا.

ولكني - كما قلت لجريدة الشرق - أريد خطوة أخرى تكمل هذه الخطوة، وتكتب في سجل هذا الوزير، وهي الرجوع عن القرار المتعسف في مسألة الحجاب، فقد منعوا الطالبات المسلمات من ارتداء الحجاب في مدارس فرنسا!

والحجاب فرض ديني على المسلمة، الله تعالى يقول: **{... وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ...}** [النور: 31]، فالمسلمة ملتزمة بأن تغطي رأسها، وتغطي نحرها وذراعيها وساقيها، هذا فرض من الله تعالى ، وليست المسلمة حرة فيه.

فينبغي أن تترك للمسلمة حرية ممارسة دينها، ولا تجبر على أمر يخالف شرع ربها، فهذا ينافي الحرية الدينية، وينافي الحرية الشخصية.

وهذا ما قلته لهم حينما اشتركت في المؤتمر الذي كان بين المسلمين وغير

المسلمين في شهر أكتوبر من العام الماضي.

العبرة من هذا الدرس:

هذه - أيها الإخوة - هي قصة هذا الكتاب، وقصة وزارة الداخلية الفرنسية. والعبرة من هذا: أننا نحن المسلمين ينبغي لنا أن نتمسك بحقنا ولا نفرط فيه، صحيح أنه - للأسف - لم تقم أي جهة من الجهات المسؤولة - لا منظمة المؤتمر الإسلامي، ولا جامعة الدول العربية، فيما عدا المنظمة الإسلامية للثقافة والتربية والعلوم لم يقم أحد من هؤلاء - بأي خطوة، وهذا يدلنا - للأسف - على أن مؤسساتنا متخلفة ولا تحس بالأمور، ولكن إخوتنا في فرنسا قاموا بما ينبغي عليهم.

نحن أصحاب الحق، نحن ندعو إلى الدين الحق، وما دمنا ندعو بالحكمة والموعظة الحسنة ونحاور بالتي هي أحسن، فلا يمكن أن نتخلى عن موقفنا.

نحن أصحاب الرسالة الخالدة، الرسالة التي وضع الله فيها الهداية للبشرية، الهداية التي تتضمن كلمات الله الأخيرة للبشر: **{... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ}** [النحل: 89].

نتمسك بحقنا ولا نفرط فيه أبدًا، وندعو إلى ديننا، والحمد لله هذه الدعوة تلقى صدى واسعًا.

كان من أسباب منع الكتاب أنهم قالوا: إن الكتاب يلقي رواجًا وانتشارًا واسعًا بين المسلمين[300]!!

(300) والغريب العجيب أن يصرح بذلك مستشار وزير الداخلية للشعائر التعبدية «أندري داميان» حيث قال: «نحن اخترنا هذا الكتاب لأنه لقى نجاحًا كبيرًا فهو إجراء

هل هذا سبب؟!

الكتاب يلقى رواجًا لأنه يحمل كلمة الإسلام الصادقة، فلا بد أن يلقى رواجًا بين المسلمين، وبين غير المسلمين كثير من غير المسلمين - والحمد لله - قرأ الكتاب وهداهم الله بسببه.

كلمة الحق لا بد أن تستمر، ولا بد أن نستمسك بها، والله غالب على أمره، والله تعالى يقول: **{بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ...}** [الأنبياء: 18] وصدق الله العظيم.

أقول قولي هذا، واستغفر الله تعالى لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

فضل عشر ذي الحجة:

نحن الآن في عشر ذي الحجة، أفضل أيام العام التي جاء فيها حديث ابن عباس في البخاري: «**ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله عز وجل من هذه الأيام** » يعني أيام العشر(301).

بيداغوجي»!! وهنا بيت القصيد، فالكتاب أصبح ممنوعًا في جميع الأراضي الفرنسية لمجرد كونه وجد إقبالًا كبيرًا لدى المسلمين الفرنسيين، وهذا - في حد ذاته - يسبب مصدر إحراج للإدارة الفرنسية التي تتابع باهتمام وقلق شديدين تنامي الوعي الإسلامي بين الجاليات الإسلامية في فرنسا، بالإضافة إلى تزايد عدد معتنقي الدين الإسلامي من الفرنسيين أنفسهم.

(301) رواه البخاري، والترمذي، وأبو داود، وابن ماجه، والطبراني في «الكبير» بإسناد

يستحب فيها الصيام، ويستحب فيها الذكر، ويستحب فيها الصدقة، ويستحب فيها صلة الرحم، ويستحب فيها كل عمل خير، وهو يضاعف أجره عند الله تعالى .

ومن أعظم هذه الأيام أجرًا يوم التاسع منها، وصيامه - كما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم - يكفر ذنوب سنتين، قال: «**صيام يوم عرفة إني أحتسب لي الله أن يكفر السنة التي بعده، والسنة التي قبله**»(302). فصيام هذا اليوم ينبغي أن نحرص عليه.

ومن فجر يوم عرفة يبدأ التكبير عقب الصلوات، إلى عصر آخر أيام التشريق (23 صلاة).

وفي هذه الأيام ينبغي للمسلم القادر أن يحرص على الأضحية، ضحوا فإنها «**سنة أبيكم إبراهيم**»(303)، إنها تذكرنا بما حدث بين إبراهيم

جيد، وأبو داود الطيالسي في «مسنده»، وتتمته: قالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «**ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء**». انظر: «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (351/1 - 352) برقم (610)، «شرح السنة» للبغوي (45/4) برقم (1125).

(302) رواه مسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، والترمذي واللفظ له، من حديث أبي قتادة «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (316/1) برقم (525).

(303) عن زيد بن أرقم قال: قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، ما هذه الأضاحي؟ قال: «**سنة أبيكم إبراهيم**»، قالوا: فما لنا فيها يا رسول الله؟ قال: «**بكل شعرة حسنة**»، قالوا: فالصوف يا رسول الله؟ قال: «**بكل شعرة من الصوف حسنة**». الحديث عند ابن ماجه (3127)، والحاكم (389/2) وصححه، وقال الذهبي: قال أبو حاتم: عائذ الله منكر الحديث. وفي «الزوائد»: في إسناده أبو داود، واسمه نفيع بن الحارث، وهو متروك، واتهم بوضع الحديث.

وإسماعيل من ذلك الموقف الخالد، الذي أسلم الوالد فيه ولده، وأسلم الولد فيه رقبته لله عز وجل، ففداه الله بذبح عظيم[304]، وكانت سنة الأضاحي تذكيرًا بهذا الموقف الإنساني الخالد.

الأضحية مشروعة بالكتاب والسنة والإجماع، ويستطيع المسلم أن يضحي بنفسه، أو يوكل من يضحي عنه، ومن أجل ذلك قامت جمعية قطر الخيرية، وقامت المصارف الإسلامية، وقامت الجهات المختلفة للتبرع بثمن الأضحية في بلد آخر.

فتستطيع إن كنت تريد أن تجمع الحسنتين: أن تضحي هنا وتضحي في بلد آخر، أو كنت لا تريد أن تضحي هنا ما دام الناس يجدون اللحم، وتكون أضحيتك في البوسنة والهرسك ... في فلسطين ... في الفلبين ... في البنغلادش ... في الصومال ... في السودان ... في أي بلد آخر من بلاد المسلمين الفقيرة.

والأضحية هناك أرخص من هنا، تستطيع بثمن الأضحية الواحدة هنا أن تضحي بثلاث في البلاد الأخرى، وهم أشد حاجة، ووكيلك هناك يذبح باسمك، فكأنك حاضر، الوكيل يقوم مقام الأصيل.

فعلينا أن ننتهز هذه الفرصة، ونعطي إخواننا بعض ما تجود به أنفسنا، فالمسلمون بعضهم أولياء بعض، والمؤمنون إخوة، والمسلم أخو المسلم، لا

---

(304) قال تعالى: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ 102 فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ 103 وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ 104 قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ 105 إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ 106 وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ 107 وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْـَٔاخِرِينَ 108 سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ} [الصافات: 102 - 109].

يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله، ولا يتركه.

هذه مناسبة العيد، وهي مناسبة عظيمة وكريمة، لا ينبغي أن يأتي العيد على إخواننا المسلمين وهم لا يجدون ما يقوتهم، فنوسع عليهم كما وسع الله علينا، شكرًا لنعمة الله عع: **{هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ}** [الرحمن: 60]، **{وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ ...}** [إبراهيم: 7].

أسأل الله تعالى أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يفقهنا في ديننا، وأن يجعل لنا من أمرنا رشدا، وأن ينصر الإنسان ويعز المسلمين.

اللهم اجعل كلمة الإسلام هي العليا، واجعل كلمة أعداء السلام هي السفلى.

اللهم انصر إخواننا المجاهدين في سبيلك في فلسطين ولبنان، وفي البوسنة والشيشان، وفي كشمير والسودان، وفي كل مكان يقاتل فيه أبناء الإسلام.

اللهم خذ بأيدي إخواننا المضطهدين والممتحنين، اللهم افكك بقوتك أسرهم، واجبر برحمتك كسرهم، وتول بعنايتك أمرهم.

اللهم اجعل هذا العيد بشير خير ونصر لأمة الإسلام، واجعله نذير وبال وحسرة على أعداء الإسلام حيثما كانوا.

{رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ} [آل عمران: 147].

اللهم ولي أمورنا خيارنا، ولا تول أمورنا شرارنا، وارفع مقتك وغضبك عنا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا، واجعل هذا البلد آمنًا مطمئنًا سخاء رخاء وسائر بلاد المسلمين.

عباد الله: يقول الله تعالى : **{إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا}** [الأحزاب: 56].

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

{... وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ} [العنكبوت: 45].

* * *

16 - مؤتمر السكان بالقاهرة[305]

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

في هذه الأيام ينعقد في القاهرة ... قاهرة الأزهر ... قاهرة الدعوة إلى الإسلام ... القبلة الثقافية للمسلمين في أنحاء الأرض، يشاء الله أن ينعقد فيها مؤتمر يسمى: مؤتمر السكان والتنمية، تعقده الأمم المتحدة في مصر.

ليته لم ينعقد بمصر:

وكما قلت في مصر: كنا نربأ بمصر - بلد الأزهر وعاصمة العروبة وقلب الإسلام الخافق - أن تستضيف مثل هذا المؤتمر، حتى لا يسير في جنباتها أولئك الشواذ: دعاة الشذوذ الجنسي، الذين يتزوجون من جنسهم: الرجال بالرجال والنساء بالنساء!

هذه الجمعيات الشاذة ما كان القاهرة أن تستقبلها، كان عليها أن تغلب القيم الدينية والاعتبارات الأخلاقية على القيم الاقتصادية والاعتبارات السياحية.

ولدينا العبرة من السيرة النبوية، بل من القرآن الكريم ذاته.

حينما أرسل النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب ليلحق بأبي بكر في موسم الحج من العام التاسع للهجرة، ليعلن في الناس مبادئ أساسية منها:

---

(305) انعقد في الفتر من 5 إلى 13 من سبتمبر 1994م، تحت رعاية هيئة الأمم المتحدة، وبمشاركة أكثر من عشرين ألفًا من أعضاء الوفود يمثلون (191) دولة من أعضاء المنظمة الدولية.

إنه لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، وكان في إعلان هذه المبادئ خسارة مادية واقتصادية على أهل مكة، قالوا: كنا نستفيد من هؤلاء كثيرًا.

ولكن القرآن نزل يحسم القضية، ويبين الحقائق، فيقول: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ}** [التوبة: 28].

«**وإن خفتم عيلة**» أي: فقرًا وحاجة، «**فسوف يغنيكم الله من فضله**» بموارد أخرى لا تحسبون حسابها، وقد كان، فقد فتح لهم البلاد، وأقبل عليهم الفيء غدقًا، ووسع الله عليهم من فضله.

وثيقة المؤتمر المثيرة:

كنا نود أن ترفض القاهرة هذا المؤتمر، أما وقد انعقد هذا المؤتمر، فقد ثار لغط كبير، وثارت مجادلات شتى حول مشروع برنامج هذا المؤتمر، الذي أُعدّ في شكل وثيقة أعدّها المسؤولون عن هذا الجانب في الأمم المتحدة.

هذه الوثيقة، أو هذا المشروع، ترجم باللغة العربية، في مائة وإحدى وعشرين صفحة من الصفحات «الفولسكاب» الدقيقة.

لم يذكر فيها اسم الله قط:

وثيقة مطولة لم يذكر فيها اسم الله قط، لا في أولها، ولا في أوسطها، ولا في آخرها، و«**كل أمر ذي بال لا يبدأ ببسم الله فهو أبتر**»[306]. فكيف بأمر

---

(306) قال الحافظ العراقي في تخريجه لأحاديث «الإحياء» أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان في «صحيحه» من حديث أبي هريرة (206/1) ط. دار المعرفة

يتعلق بالعالم كله لا يذكر فيه اسم الله أبدًا، لا تذكر فيه القيم الإيمانية ولا الأخلاقية باعتبارها محركات وضوابط، دوافع لفعل الخير، وروادع عن ارتكاب الشر؟!

هذه هي الوثيقة، أو هذا هو المشروع الذي قدّم ليكون أساس المناقشات في مؤتمر القاهرة.

عُزل الدين، وعُزل الإيمان بالله، وعُزل الإيمان باليوم الآخر، وعُزلت قيم السماء عن هذه الوثيقة.

لا تلازم بين زيادة السكان والفقر:

تربط هذه الوثيقة - أو هذا المشروع - ما بين زيادة السكان ونموهم المطرد في العالم وما بين الفقر ربطًا لزوميًا، كأنها معادلة حسابية رياضية: إذا زاد السكان وُجد الفقر!

وهؤلاء أناس ينقصهم الإيمان بالله، الإيمان بأن لهذا الكون ربًّا خالقًا رازقًا، تكفّل منذ خلق هذه الأرض برزق من فيها وما فيها من الأحياء.

ليس لهذا الأمر ذكر عندهم، ولا يجري في بالهم، ولا يدور في خواطرهم.

إذا زاد السكان وُجد الفقر! وهذا قاله أحد الاقتصاديين منذ القرن الماضي اسمه: «مالتوس»، كان ينذر العالم بكارثة خطيرة بعد سنين قليلة، أو عقود قليلة من السنين.

ببيروت.

ومرّت عشرات السنين، ومرّ قرن أو أكثر، ولم تحدث الكارثة، لأن الله هيأ للناس أسبابًا لم يكونوا يعلمونها، الحاجة تفتق الحيلة، وقد علم الله الإنسان ما لم يكن يعلم: **{... وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}** [النحل: 8].

استطاع الناس أن يزرعوا أراضي جديدة، وأن يعرفوا فنّ زراعة الصحراء، وأن يقللوا من استخدام الماء، بعد أن كانوا يروون بغمر الأرض بالماء، أصبحوا يروون عن طريق الرشّ أو عن طريق التنقيط، ويحاولون أن لا يتبخر الماء ويضيع سدى.

بل حاولوا زيادة الإنتاج في الأرض المزروعة نفسها عن طريق تحسين البذور، أصبحت الأرض - المساحة نفسها - تؤتي أكلها أضعاف ما كانت تُؤتي من قبل.

هيأ الله للناس بواسطة قوانين الوراثة والتطعيم والتهجين في الحيوانات والنباتات، تحسين النوعية وتحسين الكيفية، واستطاع الإنسان أن يستخدم الطاقة الشمسية.

هيأ الله للناس أسبابًا لم تكن تخطر لهم على بال، وهؤلاء يظنون أن العالم اليوم هو سيكون عالم الغد وما بعد الغد، ما يدريكم أن الله سيفتح للناس أبوابًا لا تخطر لأحد على بال؟ **{مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ}** [فاطر: 2].

الله هو الرزاق:

إن الله تعالى من أسمائه: «الرزاق»، يقول عز وجل: **{وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ 56 مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ 57 إِنَّ ٱللَّهَ**

هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ} [الذاريات: 56 - 58]، **{وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا** «هذا تكفل من الله عز وجل» **وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَا}** [هود: 6]، **{وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ 22 فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ}** [الذاريات: 22، 23].

الرزق موجود، مبثوث في هذا الكون، مذخور في باطن الأرض، أو منشور على ظاهرها، منه ما عرفه الناس ومنه ما لا يعرفوه، منه ما لا يزال الإنسان يجهله، حوالي ثلاثة أرباع هذه الكرة مياه: بحار ومحيطات، سخرها الله للإنسان، ولم يكتشف الإنسان كل ما في البحر، ولم يصل إلى كل ما في البحار، ولم ينتفع بكل ما يعرفه من البحار.

الأرزاق موجودة، وعلى الإنسان أن يبحث ويفكّر ويسعى في مناكب الأرض، ويلتمس الرزق في خباياها، يقول الله عز وجل: **{هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ}** [الملك: 15].

فمن مشى في مناكب الأرض، من فكر وبحث وسعى واجتهد وكدح، فإنه جدير أن يأكل من رزق الله في هذه الأرض، ومن تقاعس وتقاعد وتكاسل، فهو جدير أن يحرم من رزق الله.

إن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضّة كما قال عمر رضي الله عنه، ولكن على الناس أن ينتشروا في الأرض ويبتغوا من فضل الله، ويبحثوا عن رزقهم ليصلوا إليه.

بين الجاهلية القديمة والجاهلية الحديثة:

إن أهل الجاهلية قديمًا كانوا يقتلون أولادهم، إما من إملاق واقع، أو خشية

إملاق متوقع، فقال الله عز وجل: {... وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ...} [الأنعام: 151] إذا كان الفقر واقعًا، فقدم كفالة رزقهم على رزق أولادهم، وفي سورة أخرى قال: {وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ «رزقهم مكفول لهم قبل أن يُخلقوا» إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا} [الإسراء: 31].

والجاهلية الجديدة تريد أن تقتل الأطفال، ولكن في بطون أمهاتها، عن طريق الإجهاض، لا ... لا ينبغي أن يُقتل الأولاد، لا ينبغي أن نستسلم لهذه الجاهلية الحديثة.

الرزق موجود، مبثوث في الأرض، منذ خلق الله هذه الأرض: {... وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ 10 ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ ...} [فصلت: 10]. قبل أن يسوي الله السماء خلق الأرض « ... وبارك فيها وقدر فيها أقواتها ...» الأقوات مقدرة في هذه الأرض.

صحيح أن الله لا ينزل الرزق للناس بكثرة وبسطة، حتى لا يطغوا ولا يبغوا في الأرض: {وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ} [الشورى: 27] ينزل كل شيء بقدر {وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ} [الحجر: 21]، حسب تقدير الله وحكمته، يظهر الشيء في أوانه.

الله تعالى يقول في سورة أخرى: {وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ 10 وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ ...} [الأعراف: 10، 11] أي قبل أن يخلق الله آدم ويخلق البشرية، مكّن لهم في

الأرض وجعل لهم فيها معايش، هيأ لهم معايشهم ثم خلقهم، ولكن هؤلاء كأنما يعترضون على الله، ويظنون أنهم متحكمون في كل شيء، وينسون أن الله هو الخالق، وأن الله هو الرازق، وأنه مدبر الأمر كله: **{قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ}** [يونس: 31].

الرزق بيد الله، فلا ينبغي أن نربط ما بين زيادة السكان والفقر لا محالة، فإن الله سيهدي الناس إلى طرق وأساليب تهيئ لهم المعايش والأرزاق التي ضمنها الله تعالى لهم.

تنظيم الأسرة لنسلها لمبررات شرعية مقبول:

لا مانع من أن تتدبر الأسرة المسلمة أحوالها، وأن تحاول تنظيم النسل، لا مانع أن يتفق الزوج والزوجة - كلاهما مع صاحبه - على أن يكون الحمل في فترات معقولة، ما بين كل طفل وآخر فترة من الزمن، حتى تستريح الأم من ناحية، وحتى يتهيأ للأسرة الرعاية الصحية، والرعاية التعليمية، والرعاية الاجتماعية، فقد أصبح الناس الآن يعيشون مستقلين، وغدت تربية الأطفال تحتاج إلى جهد جهيد، ومتابعة مستمرة.

في الزمن الماضي كانت الأسرة يعيش بعضها مع بعض، يعيش الولد مع أبيه وأمه، وتأتي زوجة الابن فتقول لها حماتها - أم الزوج - : عليك أن تلدي وتنجبي أولادًا، وعلي أن أربي! الآن لم يعد هذا، أصبح النسل يكلف أهله تكاليف كثيرة، فلا مانع من تنظيمه.

على أن يكون هذا من حق الأسرة، ومن اختيار الأبوين، أما أن يكون هذا

فلسفة عامة للبشرية كلها وللناس جميعًا، فهذا ما نرفضه.

وسائل مرفوضة لغيات غير محمودة:

هذه الوثيقة، أو هذا المشروع الذي قدّم للمؤتمر، قام على هذا الأساس، وأراد أن يعالج هذا الهدف - الذي هو نفسه ليس بمقبول في نظر القيم الدينية الأصيلة، بوسائل وأساليب أكثرها أيضًا - أو كثير منها على الأقل مرفوض في ميزان الدين ... في ميزان الخلق ... في ميزان الشرائع السماوية كلها.

يريدون إباحة الإجهاض بلا قيود:

من هذه الوسائل ذكروا: الإجهاض، وتحت عناوين شتى: الإجهاض المأمون ... تخفيف الأمر على المرأة الحامل ... الحمل غير المرغوب فيه ... إلخ، وهذا كله ليس بمقبول إسلاميًا ولا دينيًا، حتى بابا الكاثوليك وقف ضد هذا بقوة، وهنا اتفق الأزهر والفاتيكان، ووقف المسجد والكنيسة معًا ضد الطوفان المدمر للأديان.

احترام الإسلام لحياة الجنين:

إن الإسلام يُعطي للجنين حق الحياة، ولا يجيز لأحد - ولو كان أباه أو أمه - الاعتداء عليه، لأنه كائن حي محترم، ولو جاء من حرام.

المرأة التي جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم تطالبه أن يطهرها، ويقيم حد الله عليها، وتقول له: إنها حُبلى من الزنى، فماذا قال لها النبي صلى الله عليه وسلم؟ قال لها: «**فاذهبي حتى تلدي**»، أي إن كان لنا سبيل عليك فما لنا سبيل على ما في بطنك، ما في بطنك مخلوق لا ذنب له حتى نقيم الحد عليك وعليه، وذهبت المرأة أشهرًا ثم عادت وقد وضعت وليدها، فقالت: ها أنا قد

وضعت يا رسول الله، قال: «**اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه**»[(307)].

هكذا يحترم الإسلام الجنين الكائن الحي في بطن أمه، ويرتب على ذلك أحكامًا، فلا يجوز للمرأة المسلمة أن تصوم رمضان إذا كان صيامها يضر بجنينها، وعليها أن تفطر حتى لا تؤذي هذا المخلوق في رحمها، هذا ما يريده الإسلام.

ولكن هؤلاء يريدون الإباحية الجنسية، أطلقوا العنان للشهوات، ثم إذا حملت المرأة أعطوها حق التخلص منه، وقالوا: إنها حرة في جسدها!

إن هذا ليس جسدها، هذا كائن آخر أدخله الله عليها، فليس من حقها أن تقتله، لأنها لم تهب له الحياة، الله هو واهب الحياة، فلا يجوز لأحد من مخلوقاته أن يستلبها بغير إذنه.

الإجهاض من الأمور الخطيرة التي تضمنتها هذه الوثيقة، المتضمنة لمشروع برنامج هذا المؤتمر.

تعدد أشكال الأسرة في الوثيقة:

من الأشياء الخطيرة التي تضمنها هذا المشروع، ما جاء في الصفحة التاسعة والعشرون: إنه ينبغي على الجميع أن يقدموا الدعم للأسرة، مع الأخذ في الاعتبار تعدد أشكال الأسرة!!

نحن نعرف شكلًا واحدًا للأسرة، هذا الشكل هو ارتباط بين رجل وامرأة، بعقد شرعي له أركانه وشروطه، وبهذا العقد وهذا الارتباط تنشأ الحياة

---

(307) جزء من حديث رواه مسلم في «صحيحه» باب: حد الزنا.

الزوجية، تنشأ الأسرة المسلمة، وهذا آية من آيات الله، ذكرها الله تعالى في كتابه: {وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الروم: 21].

هؤلاء يقولون: هذا شكل من أشكال الأسرة، ولكن هناك أشكال أخرى.

هناك أسرة بلا عقد، اثنان يعيشان معًا وليس بينهما عقد زوج، ليس بينهما ارتباط شرعي يكلف كلًا منهما حقوقًا وواجبات تجاه الآخر.

وهذا - للأسف - ما لاحظته في أوربا: إن كثيرًا من الشبان والبنات يرتبط بعضهم ببعض ويعيشون معًا، ولكن دون زواج.

حينما كنت أعالج في صيف سنة (1985م) في مدينة «بون» بألمانيا، سألت الممرضات اللائى كن يشرفن على تمريضي: هل هن متزوجات؟ لم أجد منهن متزوجة، كلهن «Miss» - أي: آنسة - وليس «Mrs» - أي: متزوجة - كما يقولون.

وعرفت السبب في هذا: إن الزواج مسؤولية، ولماذا يتحملون المسؤولية؟ الشاب ينتقل من واحدة إلى أخرى، والفتاة تنتقل من وا حد إلى آخر، وإذا أعجبها شخص تعيش معه سنة ... سنتين ... ثلاثة، ثم تبحث عن غيره، كما يبحث هو عن غيرها.

فهذا شكل من أشكال الأسرة: الحياة معًا دون ارتباط ودون عقد.

الأسرة ذات الجنس الواحد!

ومن أشكال الأسرة: الأسرة ذات الجنس الواحد، أي: الأسرة المكونة من

رجلين، أو مكونة من امرأتين، يتزوج الرجل الرجل، وتتزوج المرأة المرأة!!

جمعيات الشذوذ المنتشرة في العالم، هؤلاء ـ للأسف ـ جعلوا هذا شكلًا من أشكال الأسرة ينبغي أن يدعم!

كيف ندعم هؤلاء الذين خرجوا على فطرة الله، وعلى شرائع السماء، وعلى قيم الأخلاق كلها؟!

يتزوج الرجل الرجل!! وللأسف أقرت هذا بعض القوانين في أوربا، وباركت ذلك بعض الكنائس، وبعض القسس يخرج في «التلفاز» ويقول: القس الفلاني يعقد عقود زواج الرجال بالرجال، والنساء بالنساء!!

هذا ما يريدون منّا أن نقرّه: تعدد أشكال الأسرة.

الله سبحانه وتعالى ذكر لنا قوم لوط، وكيف عاقبهم بعذابه، وأنزل عليهم نقمته، وصبحهم بكرة عذاب مستقر، وجعل قراهم عاليها سافلها، وأمطر عليهم: **{... حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ 82 مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ}**(308) [هود: 82، 83]، أجل ليست عقوبة الله ببعيدة عن هؤلاء الظالمين!

كيف نقرّ عمل قوم لوط؟! وكيف نقر السحاق بين النساء؟! وقد خلق الله الزوجين الذكر والأنثى، وركّب في كل منهما الميل الفطري إلى الآخر، وجعل من وراء ذلك الإنجاب وبقاء الحياة البشرية إلى ما شاء الله.

هؤلاء وقفوا ضد فطرة الله، وفطرة الكون، وشرائع السماء كلها.

---

(308) أولها: **{فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا ...}**.

الوثيقة تدعو إلى تأخير الزواج:

هذه الوثيقة تتحدث عن العمل على تأخير الزواج، لا ينبغي أن يتزوج الإنسان مبكرًا، وتقدم البدائل له إلى حين يتزوج، ومعنى تقديم البدائل إتاحة فرص الشهوات الحرام إلى أن يأتي وقت الزواج! فهؤلاء لا يحترمون شريعة ولا دينًا.

هؤلاء وقفوا من هذا الأمر موقف الإباحية والتحلل.

القرآن يقول: {**وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ...**} [النور: 32]، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: «**يا معشر الشباب: من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحسن للفرج ...**»[309]، وهؤلاء يقفون ضد هذا كله.

هذه الوثيقة وهذا المشروع المقدم لمؤتمر القاهرة تضمن أشياء كثيرة مخالفة للإسلام، بل مخالفة لجميع الأديان، لا يقبلها دين من الأديان، ولا شريعة من الشرائع، بحال من الأحوال.

عزل الأسرة عن العلاقات الجنسية لأولادها:

جاء في هذه الوثيقة: إن على الجميع أن يساعدوا المراهقين والمراهقات، وأن يقدموا لهم الثقافة والمعلومات الجنسية والتناسلية، وأن يساعدوا مقدمي الرعاية الصحية، بحيث يكون هناك خصوصية، وسرية لهؤلاء المراهقين،

(309) رواه البخاري، ومسلم، واللفظ لهما، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وتمته: «**ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء**». «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (2/549 - 550 برقم 1095).

ولا تتدخل الأسرة في شأنهم!!

يريدون رفع وصايا الآباء والأمهات عن الأبناء والبنات، النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**كلكم راع ومسؤول عن رعيته ... والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها ...**»(310)، ولكن هؤلاء يريدون أن يمحوا هذه الرعاية، فلا تكون الأسرة مسؤولة عن أبنائها وبناتها، بل يمضي كل منهم وراء المتع والملذات، كما يشتهي.

نحن لا نمانع، بل هو مطلوب شرعًا أن نقدم لهم التثقيف الجنسي الصحيح، في جو من الجدية والوقار والإيجابية، والإسلام أعطانا في هذا أشياء كثيرة وتوجيهات مفيدة، ولكن ليس معنى هذا أن نتيح لهم الاتصال المحرم في فترة المراهقة، وإذا حملت الفتاة علينا أن نجهضها، ما هذا؟!

وصاية فكرية وأخلاقية علينا من العالم الجديد:

هذه مجتمعات غربية جاءت تريد أن تفرض نفسها علينا، تريد أن تفرض الوصاية الفكرية والأخلاقية، ولا تكتفي بالوصاية السياسية.

العالم الجديد، أو النظام العالمي الجديد، لا يكتفي بأن يفرض وصايته السياسية علينا، حى يريد أن يفرض الوصاية الفكرية، والوصاية الأخلاقية والسلوكية على حياتنا، وأن يلزمنا بقيمه وأخلاقه وسلوكياته، وما خلقنا الله عبيدًا لأحد، وما خلقنا الله أذنابًا لأحد، نحن لنا ديننا ولهم دينهم.

---

(310) من حديث ابن عمر الذي رواه البخاري ومسلم، انظر: «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (2/553 برقم 1108).

ليسوا نصارى ولا مؤمنين بدين:

مع أنهم لو كانوا نصارى حقًا ... لو كانوا مسيحيين متبعين لتعاليم المسيح عليه السلام، لوجدوا دينهم نهاهم عن مثل هذا، ولكن هؤلاء لا دين لهم، ليسوا نصارى ولا مسلمين ولا بوذيين ولا غير ذلك، هؤلاء انخلعوا من كل دين وأرادوا أن يفرضوا هذا على العالم.

لهذا وقف المسلمون ضد هؤلاء، وقف مجمع البحوث الإسلامية، ولجنة الفتوى بالأزهر، والجماعات الإسلامية، والنقابات المهنية، في مصر، وفي المملكة العربية السعودية: هيئة كبار العلماء، ورابطة العالم الإسلامي، وفي البلاد الإسلامية المختلفة هاج الناس هنا وهناك، وطالبوا بمقاطعة المؤتمر، وكنّا نود لو قوطع المؤتمر.

ولكن لا مانع من حضور المؤتمر، إذا حضرنا ونحن متماسكون لا مستسلمون، ونحن متحدون لا متفرقون، ونحن أمامنا قيم عليا نؤمن بها ونكيف حياتنا وفقًا لها، ليست مما صعد من الأرض ولكنها مما نزل من السماء.

نحن الأمة الوسط: **{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ...}**[311] [آل عمران: 110]. نحن شهداء على البشرية: **{وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ...}** [البقرة: 143].

---

(311) وتتمتها: **{تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ}**.

الخوف من تنامي العالم الإسلامي:

إن هناك أشياء كثيرة في هذا المؤتمر لا يرضى عنها الله، ولا رسوله، ولا رسله جميعًا، ولا المؤمنون.

وهناك أشياء خلف هذا المؤتمر لم يعلنوا عنها، إنهم يخافون ما سموه: تنام العالم الثالث، وفي الواقع هم يخافون من تنامي العالم الإسلامي(312).

العالم الإسلامي يزداد يومًا بعد يوم، وهم يتناقصون يومًا بعد يوم، وهذا أمر طبيعي إذا كان الناس يخافون من تحمل أعباء الأسرة، قال لي أحد الأطباء - وكان يشرف عليه طبيب كبير في بريطانيا لكنه لا ينجب - وسأله: لماذا لا تنجيب؟ قال له: ولماذا أنجب؟ اعطني مبررًا واحدًا يجعلني أنجب!

هذا الإنسان كأنه يريد أن يحكم على البشرية بالفناء بعد جيل واحد، فلو أن كل الناس امتنعوا عن الإنجاب لكان معناه: أن تنتهي البشرية.

البشرية أعطته وجوده، كان عليه أن يعطي كما أخذ، خصوصً أنه رجل في القمة من العلم، كان عليه أن يتحمل المسؤولية ويربي جيلًا ... طفلًا أو طفلين على الأقل، لكنه يريد أن يعيش لنفسه.

العالم الغربي يريد أن يعيش على اللذة والمتعة، ولا يريد حتى من أولاده أن يزاحموه في متعته ولذته، كأهل الجاهلية!

---

(312) تشير أوراق المؤتمر الدولي للسكان والتنمية بوضوح إلى اختلال التوزيع الإقليمي لسكان العالم، وأنه في الفترة من (1995م) وحتى (2015) يتوقع أن يتزايد سكان المناطق الأكثر نموًا «أي أوربا وأمريكا» بما يقارب (120) مليون نسمة، بينما سيتزايد سكان المناطق الأقل نموًا بما قدره (1727) مليون نسمة أي أكثر من (14) ضعفًا.

النبي صلى الله عليه وسلم سئل: أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**»، قيل: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك**»(313): أن يزاحمك في اللقمة، وهؤلاء لا يريدون لذريتهم أن تزاحمهم، يريدون أن يستمتعوا بالحياة وحدهم، فلا عجب أن يتناقص نسلهم(314).

كنت في فرنسا في هذا الصيف، فوجدت الفرنسيين يشكون من تناقص النسل وتكاثر المسلمين هناك، هناك أكثر من أربعة ملايين مسلم من أبناء الشمال الأفريقي والسنغال وغيرها من البلاد التي كانت مستعمرات فرنسية من قبل، هؤلاء يتكاثرون وأولئك يتناقصون، فهم يقولون إنه لو استمر الحال على هذا لأصبحنا بعد عقود قليلة من السنين ونحن أقلية، وصار هؤلاء أكثرية! فهم يخافون من المسلمين داخل بلادهم، ويخافون منهم خارج بلادهم، لأن الشعب الإسلامي شعب ولود.

ومن قديم قال أحدهم في كتابه «الإسلام قوة الغد العالمية»: إن المسلمين لهم المستقبل، وجعل من أسباب هذا: كثرة النسل بين المسلمين.

هؤلاء يخشون من تزايد العالم الإسلامي ... من تزايد المسلمين في العالم، وقبل سقوط «الاتحاد السوفيتي» كانوا يخوفون من كثرة المسلمين هناك، وأنه بعد مدة قليلة سيصبح المسلمون هم حكام الاتحاد السوفيتي، ولعل هذا ما

---

(313) أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود رضي الله عنه في كتاب «الأدب» من «صحيحه»، باب: «قتل الولد خشية أن يأكل معه»، كما أخرجه في كتاب «الحدود» باب: «إثم الزناة»، وكتاب «التوحيد» باب: «قول الله تعالى فلا تجعلوا لله أندادًا»، وتتمته: قال: ثم أي؟ قال: «**أن تزاني حليلة جارك**».

(314) بل تشير الوثائق إلى أن هناك بلدانًا أوربية مهددة بالفناء التام خلال أقل من نصف قرن، إذا استمرت معدلات النمو السكاني فيها تتناقص كما هو الحال الآن.

جعلهم يعجلون بسقوطه، خشية أن يؤول في النهاية إلى المسلمين.

توزيع الثروة بين العالم المتقدم والبلاد النامية:

ثم هؤلاء الذين يربطون بين زيادة السكان والفقر، لماذا لا يذكرون سوء استهلاك الثروة في العالم وسوء توزيعها؟ الأمم المتحدة تقول: إن (25%) من السكان يعيشون في العالم المتقدم، أو العالم الغربي، أو العالم الأول كما يسمونه، والأكثرية تعيش في العالم الثالث، ولكن (25%) تستهلك من موارد العالم (75%): (80%) من الأخشاب، و(70%) من المعادن، و(60%) من الغذاء ... إلخ، هكذا يستهلك العالم الغربي.

في أمريكا وحدها نشرت الصحف: إن المسكرات والمخدرات والخمور وهذه الأشياء يُنفق عليها وحدها سنويًا: (25 بليون دولار)!

أما ما ينفق على التسليح فهو بمئات المليارات، لماذا لا يوفر هذا لتنمية العالم، وتنمية الدول الفقيرة؟

تطويق العالم الثالث بالديون المرهقة:

إن العالم المتقدم ... العالم الغربي ... العالم الأول، المسرف في استهلاكه، المتمتع بلذاته، طوّق العالم الثالث ... العالم الفقير ... العالم الكادح، طوقه بأغلال من الديون، أنهكته وأرهقته وجعلته يلهث من أجل أن يعطي فوائد الديون «الربا».

الدول المدينة بالمليارات وعشرات المليارات تلهث وتتعب من أجل أن تسدد الفوائد، أما أن تسدد الأقساط فهيهات هيهات.

لم يكف العالم الغربي ما نهبه من خيرات هذا العالم في آسيا وأفريقيا في

أيام الاستعمار - نهب الثروات وأقام بنيته الحضارية هناك: الطرق والمؤسسات والسكك التي تحت الأرض وغيرها من الأشياء التي أقامها من هذه البلاد التي يحتلها، واستنزف خيراتها ومواردها - لم يكفه هذا فبدأ يشتري المواد الخام منها بأرخص الأسعار، ثم يصنعها ويعيدها إليها بأغلى الأسعار.

وهناك الناس لا يستطيعون أن يقوموا بمشروعات التنمية فيحتاجون إلى الاستدانة ويمدّون اليد إلى هؤلاء، ومعظم هذه الديون تعود إليهم في صورة أخرى، لأنهم يعطون الديون في صورة أدوات مستهلكة، وفي صورة خبراء من عندهم، وفي صورة أشياء يستغنون عنها، ولكن على هذه الدول أن تسدّد خدمة الدين «الأقساط والفوائد» فلا يستطيع أداء الأقساط فتسدد الفوائد.

وكثيرًا ما تستدين من جديد لتوفّي الدين القديم، فمتى يمكن أن توفّي وقد قال الشاعر قديمًا:

إذا ما قضيت الدين بالدين لم قضاء، ولكن كان غرمًا على

هذه هي حالة هذا العالم الثالث والعالم الإسلامي، أما العالم المقتدر المتمكن، الذي يريد أن يفرض نفسه ويفرض وصيته على هذا العالم، متجاهلًا دياناته، متجاهلًا شرائعه، متجاهلًا قيمه وأخلاقه.

لا، لا ينبغي أن نستسلم لهذا.

إننا مسلمون، وإسلامنا يفرض علينا أن نعتز بشخصيتنا، وأن نعتز بإيماننا، وأن نعتز بقيمنا، وأن نعتز بأحكام شريعتنا، ولا نفرط فيها، ولا يملك المشرق والمغرب: **{وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي**

مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ} [فصلت: 33]، **{فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ}** [الزخرف: 43].

أقول قولي هذا، واستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد:

فقد ورد أن في يوم الجمعة ساعة إجابة، لا يصادفها عبد مسلم يدعو الله بخير إلا استجاب له، ولعلها تكون هذه الساعة.

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر.

اللهم اجعل يومنا خيرًا من أمسنا، واجعل غدنا خيرًا من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

اللهم اجمع كلمة المسلمين على الهدى، وقلوبهم على التقى، وعزائمهم على عمل الخير وخير العمل.

اللهم أكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنّا وأرضنا.

اللهم جنبنا كيد الكائدين، ومكر الماكرين، وانصرنا على القوم الكافرين.

{... رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ 85 وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ}

[يونس: 85، 86].

اللهم انصر إخوتنا في فلسطين، وانصر إخوتنا في البوسنة والهرسك، وانصر إخوتنا في كشمير، وانصر إخوتنا في الصومال، وانصر إخوتنا في سائر بلاد الإسلام.

اللهم عليك بأعدائك أعداء الإسلام، اللهم رد عنا كيدهم، وفل حدهم، وأدل دولتهم، وأذهب عن أرضك سلطانهم، ولا تدع لهم سبيلًا على أحد من عبادك المسلمين.

اللهم ارفع مقتك وغضبك عنّا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا.

اللهم اجعل هذا البلد آمنا مطمئنًا، سخاء رخاء، وسائر بلاد المسلمين.

{رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ} [آل عمران: 147].

عباد الله: يقول الله تعالى : **{إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا}** [الأحزاب: 56].

اللهم صلّ وسلّم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

{وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت: 45].

* * *

17- التدخين آفة ضارة
وهو حرام[315]

1417/1/14هـ

1996/5/31م

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة ا لمسلمون:

طلب إلي بعض الإخوة أن أحدثكم عن التدخين، بمناسبة اليوم العالمي للتدخين.

والتدخين آفة من الآفات، ابتلي بها الناس في عصرنا وابتلي بها العرب والمسلمون خاصة، وأصبحت داء يتناقله الناس بعضهم عن بعض.

هو كالأوبئة التي تُعدي كما يُعدي الأجرب السليم، وسرعان ما تنتشر هذه الآفة انتشار النار في الهشيم، الصغير يقلد الكبير، والابن يقلد الأب، والفقير يقلد الغني، ويبدأ الناس كما قالوا: «أوله دلع وآخره ولع»، فيصبح الإنسان عبدًا لهذه الآفة، أسيرًا لهذه العادة، لا يملك لها فكاكًا.

---

(315) للشيخ القرضاوي ظظظ فتوى مطولة بعنوان: «أحكام التدخين في ضوء النصوص والقواعد الشرعية» تضمنها الجزئ الأول من كتابه «فتاوي معاصر» ص 654 - 669.

اختلاف العلماء قديمًا في حكم التدخين:

لقد ظهرت هذه الآفة منذ حوالي أربعة قرون، على رأس الألف من الهجرة، واختلف العلماء عند ظهورها، في شأنها ما بين محرم لها لما يرى ما تجلبه من ضرر ... ومن قائل بكراتها ... ومن مبيح لها يقول: إن الأصل في الأشياء الإباحة، ولم يرد ما يحرّم هذا الأمر.

في عصرنا يجب أن نفتي بالتحريم:

ولكننا في عصرنا ينبغي أن نجزم بحكم واحد لا ريب فيه ولا شبهة معه، هذا الحكم هو تحريم التدخين تحريمًا باتًّا، وذلك لأن حكم الفقيه في هذه القضية مبني على رأي الطبيب، فإذا قال الطبيب: إن هذا الأمر ضار، وليس فيه نفع، فينبغي للفقيه أن يقول: إنّ هذا الأمر حرام ولا شك فيه.

وهذا ما أجزم به، ويجزم به الفقهاء المحقّقون: أنّ هذا التدخين آفة محرمة، وذلك لعدة أسباب:

التدخين ضدّ الضروريات الخمس:

أولًا: إنّ هذا التدخين ضرر لا شك فيه، ضرر على النفس، وضرر على العقل، وضرر على الدين، وضرر على المال، وضرر على النسل.

ضرر يؤثر في المصالح التي سماها الفقهاء: الضروريات الخمس، التي لا تقوم حياة إنسانية إلا بها.

التدخين ضرر على النفس والحياة والصحة:

هو ضرر على نفس الإنسان وعلى صحته، أجمع على ذلك أطباء العالم، والهيئات العلمية في العالم، ولذلك فرضوا على الشركات التي تبيع هذا

الدخان - أو التبغ أو التتن أو سموه ما تسمونه - أن تعلن أن التدخين ضار بالصحة.

هو ضار بصحة الإنسان، مسبب لأنواع من السرطانات، منها سرطان الرئة والمريئ والبلعوم وغير ذلك، ومسبب لأمراض تصيب شرايين القلب إلى غير ذلك.

فهو ضرر على حياة الإنسان، وعلى صحة الإنسان.

صحيح أنه ليس ضررًا فوريًا، ولكنه نوع من الانتحار البطئ. هناك سم يقتل في الحال، وهناك سم يقتل بعد سنة أو سنتين أو عشر سنين.

هو سم قاتل، فيه من هذه المواد: الزفت، والقطران، والهباب الأسود، والنكوتين، والمواد الكيماوية، والمواد السامة، ما يؤثر في جسم الإنسان على المدى الطويل.

فالإنسان الذي يتناول هذا الشيء، يتناول سمًّا بطيئًا، ينتحر ولكن بالقطارة.

فهل يجوز للإنسان أن يقتل نفسه والله تعالى يقول: **{... وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا}** [النساء: 29]؟!

لقد قرر العلماء أنه لا يجوز للمسلم أن يتناول شيئًا يضرّه في الحال أو في المال، ولو كان أكل الطين، لأن الله تعالى يقول: **{. وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ}** [البقرة: 195]، **{... وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا}** [النساء: 29]، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**لا ضرر ولا ضرار**»(316): لا تضر

(316) رواه أحمد وابن ماجه عن ابن عباس، ورواه ابن ماجه عن عبادة، ورمز له

نفسك ولا تضار غيرك، فكيف يجوز للإنسان أن يضر نفسه؟!

وفلسفة الإسلام هنا واضحة كل الوضوح، بينة كالشمس في رابعة النهار: إن الإنسان ليس ملك نفسه، بحيث يؤذي نفسه كما يشاء، ويضرها كما يشاء، لا أنت لم تخلق نفسك، الله هو الذي خلقك: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ 6 ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ 7 فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ}** [الانفطار: 6 - 8]. كيف تضر نفسك باختيارك؟! هل يفعل هذا إنسان له عقل؟! لا. فكيف إذا كان المدخن يضر نفسه ويُضار غيره؟!

لقد أثبت لنا العلم، وأثبت لنا الطب: أن المدخن يؤذي غيره قهرًا.

أنا لست مدخنًا، ولكن إذا جلست في مكان فيه مدخن، فإني أُصاب - بقدر ما - بما يسمونه: التدخين القسري! أي: أنا أدخن رغم أنفي، لأني استنشق الهواء الذي فيه أثر التدخين.

المدخن يؤثر على من حوله: على زوجته ... على أولاده ... على البيئة التي يعيش فيها، فهو يضر نفسه ويُضار غيره.

السيوطي بالحسن «الجامع الصغير» (203/2). وقال الهيثمي: رجاله ثقات، وقال النووي في «الأذكار»: هو حسن، وقال الذهبي: حديث لم يصح، وقال ابن حجر: فيه انقطاع، قال: وأخرجه ابن أبي شيبة وغيره من وجه آخر أقوى منه، ورواه الحاكم والدارقطني عن أبي سعيد وزاد: **«من ضر ضره الله، ومن شق شاق الله عليه»**، وفيه عثمان بن محمد بن عثمان لينه عبد الحق، والحديث حسنه النووي في «الأربعين»، قال: ورواه مالك مرسلًا، وله طرق يقوّي بعضها بعضًا، وقال العلائي: للحديث شواهد ينتهي مجموعها إلى درجة الصحة أو الحسن المحتج به. «فيض القدير» (431/6 - 432 برقم 9899). وقوله: **«لا ضرر»**: أي لا يضر الرجل أخاه فيقصه شيئًا من حقه، **«ولا ضرار»** أي لا يجازي من ضره بإدخال الضرر عليه بل يعفو.

ولذلك نقول: إن الضرر على النفس ... على الصحة ... على الحياة، من هذه المصيبة ضرر مؤكد، لا يجوز لعاقل أن يدخل، من هذه المصيبة ضرر مؤكد، لا يجوز لعاقل أن يدخل هذا السم على جسده مختارًا، وعنده ذرة من عقل.

التدخيل ضار بالعقل:

الله وهبنا العقول لنفكر بها، فكيف يفكر الإنسان أن يضر نفسه مختارًا ولم يكرهه أحد على هذا؟!

التدخين ضار بالعقل، يؤثر على العقل، ففيه نوع من الإسكار، ونوع من التفتير، يشعر به الإنسان حينما يتناول أول سيجارة، فيذهل على نفسه، ويكفي أن ترى المدخنين وسلوكهم، فتستيقن من ذلك.

هؤلاء الذين ينفقون أموالهم فيما يضرّهم، وربما كانت أسرهم وأطفالهم في حاجة إلى القوت الضروري، وهم لا يبالون!

هل هذا إنسان عاقل؟!

لا أحسب هذا إنسانًا عاقلًا بحال، ولا أدري ما يقوله العلم المعاصر والطب المعاصر عن تأثير التدخين على مخّ الإنسان.

التدخين ضار بالدين:

والتدخين كما يضر بالنفس، ويضر بالعقل، يضر بالدين.

أعرف أناسًا لا يصومون رمضان، لماذا؟ يقول أحدهم: لا أستطيع أن أستغني عن السيجارة، إنها حياتي!

وكثير من الناس يصوم وأول ما يؤذن المغرب يفطر على هذا الخبث الخبيث ... على التدخين.

ثم إن التدخين يجرئ المدخن على ارتكاب ما نهى الله عنه من التبذير والإسراف، وإيذاء الغير، إلى جانب تقصيره فيما أمر الله به من الواجبات الدينية والدنيوية، فلا يستطيع مدخن أن يقوم بواجب الجهاد في سبيل الله، دفاعًا عن الدين أو الأرض، أو العرض، لأن التدخين يضعفه بدنيًا، ويحرمه من القوة اللازمة لأعباء الجهاد ومشتقاته.

التدخين ضار بالنسل:

والتدخين ضرر بالنسل، فالمدخن يؤثر على أولاده، ويضر بأطفاله، وهذا أمر مؤكد.

أثبتت أحدث الدراسات أن الأولاد والأطفال الذي يترعرعون في بيئة مدخنة، ومع أب مدخن، أو أم مدخنة، هؤلاء تكون جدران شرايينهم - شرايين القلب - أضعف من غيرهم، ويكونون معرضين لآفات وأمراض لا يعلمها إلا الله.

وهؤلاء ما داموا يعيشون مع أب مدخن أو أم مدخنة، فهم في بيئة ملوثة يقينًا، ويدخنون قهرًا عنهم، لأنهم يستنشقون هواء التدخين، ثم بعد ذلك يقلدون الأب المدخن، ويظنون أن التدخين من علامات الرجولة، ولذلك كثير من الأولاد الصغار يبدأ التدخين ويمسك بالسيجارة والعلبة، ليثبت أنه قد بلغ، وأصبح رجلًا من الرجال، والآفة من الأب المدخن.

التدخين ضار بالمال:

التدخين يضر بالضروريات الخمس كلها، ومنها: الضرر المالي.

الإنسان المدخن ينفق ماله فيما لا ينفع في الدنيا ولا في الآخرة، وقد اتفق العلماء على أن إضاعة المال فيما لا ينفع لا في الدنيا ولا في الآخرة حرام، لا يجوز.

لا يجوز إضاعة المال، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن إضاعة المال، المال مال الله، وأنت مُستخلف فيه، فلا يجوز لك أن تضيّع مالك فيما لا ينفعك: لا ينفع روحك، ولا ينفع بدنك، ولا ينفع عقلك، ولا ينفع نفسك، ولا ينفع أسرتك، ولا ينفع أمتك.

المدخن يشتري ضرره بحر ماله، يضر نفسه بالثمن ليته يضر نفسه مجانًا، يضر نفسه بما يدفع.

هل هذا عقل؟! هل هذا دين؟!

وممن يشتري؟ يشتري من الشركات العالمية التي تبيع السجاير: شركات «المارلبورو» وغيرها، التي يعلنون عنها، وهذه شركات استعمارية، يملك الكثير منها اليهود وأشباه اليهود، تنفق على الدعاية وحدها في السنة عدّة مليارات - لا أذكرها، قرأتها قريبًا ونسيت العدد، أرقام ضخمة - كيف بما تكسبه هذه الشركات؟! تكسب شيئًا هائلًا.

ونحن المسلمين نشتري منها بالمليارات، وبعض البلاد الإسلامية المحدودة الدخل، والمدينة، من أكثر البلاد تدخينًا، مثل الباكستان ومصر، الناس يدخنون بشراهة، وهم لا يكادون يجدون القوت.

ومن عجب: أن ترى الرجل يشتري السجاير ويدخن وأولاده ربما كانوا في حاجة إلى رطل من اللحم - أو كيلو من الفاكهة - يأكلوه، وربما كانوا في حاجة إلا ملابس تستر أجسادهم، وربما كانوا في حاجة إلى أدوات مدرسية ... إلى كتب ... إلى هذه الأشياء الأساسية، فيذهب الرجل يشتري السجاير ويدع أسرته المسكينة تعاني ما تعاني.

هذا ما تقع فيه الأمة.

نحن إذن ننفق سلع هذه الشركات العالمية، ندفع لها المليارات سنويًا، من قوت أولادنا، وعصارة أرزاقنا!

فهذا هو الضرر المالي.

التدخين ليس من الطيبات:

ثانيًا: الإسلام يكره الإسراف في الحلال: {**يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ**} [الأعراف: 31]، فكيف بهذا الأمر الذي لا يمكن أن يُعد في الطيبات؟!

وُصف النبي صلى الله عليه وسلم في كتب الأقدمين بأنه: «**يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث**»(317)، في أي خانة نضع هذه السجاير؟ في خانة الطيبات أم في خانة الخبائث؟ الذي عنده حس فطري لا شك أنه سيضعها في خانة الخبائث، لأنه ليس فيها أي شيء من النفع والطيب.

---

(317) في قوله تعالى: {**ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ ...**} [الأعراف: 157].

لولا اعتياد الناس لها ما تذوقها الإنسان، لكرهها، لرماها، لكن الإنسان إذا اعتاد شيئًا ولو كان أكل الطين، فإنه يسهل عليه، ويحلو له، وهذه آفة أيضًا.

استعباد إرادة الإنسان:

ثالثًا: من آفات هذا التدخين: إنه يستعبد إرادة الإنسان.

الإنسان المدخن عبدٌ لهذه الآفة، عبدٌ لهذه العادة، ليس حرًا، لا يستطيع أن يحرر نفسه إلا بإرادة قوية، كأن تكون «حكم الطبيب»، يقول له: إما أن تقلع عن التدخين، وإن أن تعرض نفسك للموت، هذا ما رأيناه، رأينا أناسًا بعد عاشوا ثلاثين سنة، وأربعين سنة، وخمسين سنة.

يدخنون، بعد إنذار الطبيب أقلعوا عن التدخين، لأنه إما حياة وإما موت، وهم لا يريدون أن يموتوا، فيقلعون عن التدخين بعد هذه السنين الطويلة.

استعباد الإرادة هذه آفة:

لماذا تعبد نفسك لغير الله؟!

لماذا تجعل إرادتك رهنًا بشيء ليس هو من الأساسيات، ولا من الضروريات، ولا الحاجيات، ولا التحسينيات، شيء يمكن الاستغناء عنه تمامًا؟!

بل هو شيء مؤذ وشيء كريه، رائحته نفسها مؤذية.

أنا من الناس الذين لا يطيقون رائحة التدخين، ولو ابتليت بإنسان يُدخن أكاد أختنق، وأقول له: يا أخي ارحمني.

والغربيون عرفوا هذا الأمر، فجعلوا في الطائرات أماكن للمدخنين،

وأماكن لغير المدخنين، وكذلك في القطارات وفي الحافلات «الباصات»، يجعلون هناك عربات أو مقاعد لغير المدخنين، حتى لا يُذوا غيرهم، وبلادنا قد قلدتهم وإن كانت - للأسف - لا تلتزم، كثيرًا ما ركبت بعض الطائرات العربية، ورأيت في أماكن غير المدخنين من يُشعل السيجارة ولا يبالي بالناس.

رابعًا: هناك أناس يقولون: التدخين مكروه وليس حرامًا، لأن التحريم يحتاج إلى نص محكم، ولا نص، وأنا أقول لهؤلاء: النص موجود، وهو كل ما يحرم إضرار الإنسان بنفسه أو بغيره، وكل ما يحرم الإسراف في المال أو إنفاقه فيما لا ينفع، وكل ما يحرم الخبائث من الأطعمة والأشربة ونحوها.

وهب أننا سلمنا لهؤلاء المجادلين والممارين بأن هذا أمر مكروه، فهي كراهة تحريم بلا ريب، وقد قلت لأحدهم يومًا: كم تفعل هذا المكروه في كل اليوم؟ فقال: أربعين مرة أو تزيد! قلت له: اجمعها بعضها على بعض، فلن تقل عن حرام بيقين. جاء في الحديث: «**إياكم ومحقّرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه**»(318)، وفي حديث آخر: «**إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد،**

---

(318) من حديث ابن مسعود الذي رواه أحمد، والطبراني، والبيهقي، كلهم من رواية عمران القطان وهو ممن اختلف في توثيقه وتضعيفه، وبقية رجال أحمد والطبراني رجال الصحيح كما ذكر المنذري والهيثمي، وقال ابن حجر: سنده حسن، وقال الشيخ شاكر في تخريج «المسند»: إسناده صحيح، ورواه أبو يعلى بنحوه من طريق إبراهيم الهجري، عن أبي الأحوص، ورواه الطبراني، والبيهقي أيضًا موقوفًا عليه، ويشهد للحديث حديث سهل بعده. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (671/2 برقم 1464).

فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى حملوا ما أنضجوا به خبزهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه»(319).

ومثل ذلك يقال في اجتماع المكروهات التحريمية المتكررة أبدًا.

هدايا المدخنين غير جائزة:

والتجار - للأسف - يشجعون المدخنين، تجد هناك أشياء كثيرة تتبرع بها الشركات من أجل التدخين: الأطباق التي توضع في المجالس و«الصالونات» لإطفاء السجاير، وعلب السجاير، وقدّاحة لإشعال السجاير، وغير ذلك، وهذا لا يجوز.

لا يجوز للإنسان أن يضع في بيته مطفأة أو «طفّاية»، من جاء إلى بيته فليحترم البيت، ولا يدخّن، حتى لا يؤذي أهل البيت.

لا نشجع الناس على التدخين بأن نضع لهم «طفّايات» السجاير في بيوتنا ومجالسنا، ليبوؤوا بإثمه، إن كان ولا بد فليحملوا أوزارهم وحدهم، ولا يحمّلونا هذه المصيبة.

لا أيها الإخوة:

السجاير هذه آفة ومصيبة ابتلي بها الناس، لا يجوز لنا نحن المسلمين أن نشارك فيها، بل ينبغي أن نقف ضدها حرصًا على سلامتنا، حرصًا على

---

(319) من حديث سهل بن سعد الذي رواه أحمد، ورواته محتج بهم في «الصحيح»، وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، ورواه الطبراني في الثلاثة من طريقين، ورجال إحداهما رجال الصحيح غير عبد الوهاب بن الحكم وهو ثقة. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (671/2 برقم 1465).

صحة أجسامنا، حرصًا على صحة عقولنا، حرصًا على صحة ديننا، حرصًا على صحة أولادنا، حرصًا على صحة جيراننا، حرصًا على سلامة أموالنا، حرصًا على قوة مجتمعنا، فإن مردود هذه الآفة في النهاية هو ضعف الأمة، وإصابتها بضرر عام في الحياة كلها.

بيع التبغ «الدخان» وزراعته غير جائزة شرعًا:

لا يجوز أن ندخن، ولا يجوز لنا أن نبيع السجاير والدخان، لأننا نبيع الحرام، ومن باع الحرام شارك فيه.

الإسلام حينما حرم الخمر لعن معها عشرة: «**عاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وحاملها، والمحمولة إليه، وساقيها، وبائعها، وآكل ثمنها، والمشتري لها، والمشتري له**»(320)، كل من ساهم فيها من قريب أو من بعيد ملعون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم.

ولذلك نقول: إن زراعة «التبغ» هذا محرمة، وللأسف هناك بعض البلاد الإسلامية تزرع هذا الدخان.

لا يجوز أن يُزرع، ولا يجوز أن يُباع، ولا يجوز أن يُتاجر فيه، كثير من البقّالات، والمحلات التجارية تبيع السجاير لأن وراءها مكسبًا كبيرًا، ولكنه

---

(320) رواه ابن ماجه، والترمذي واللفظ له، وأوله: «لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخمر عشرة ...» وقال الترمذي: غريب من حديث أنس، وقال الحافظ المنذري: ورواته ثقات. وقد روى نحوه عن ابن عباس وابن مسعود وابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم، فالحديث صحيح بشواهده، وهو يدل على القاعدة الإسلامية: أن الإسلام إذا حرم شيئًا حرم كل ما يفضي إليه ويساعد عليه. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (652/2 برقم 1401).

كسب من سُحت، لا يبارك الله فيه، لأنه كسب من أذى الناس ... من ضرر الناس.

والله لأن تكسب قليلًا من حلال يبارك الله لك فيه، خير من أن تكسب الحرام من وراء هذه الآفة.

ينبغي للمسلمين - أصحاب البقالات والمحلات التجارية - أن يقاطعوا السجاير، ولا يبيعوها، من يريد أن يشتري السجاير عليه أن يبحث ويتعب، من أراد أن يدخل جهنم فليدخلها وحده، لكن إذا كنت أنت حريصًا على الجنة، وحريصًا على النجاة من النار والسلامة من العذاب، فلا تشارك في هذه الآفة.

استيراد الدخان لا يجوز:

لو استطعنا أن نمنع استيراد هذه البضاعة الأثيمة، فلنفعل، لأن استيراد المواد المضرة لا يجيزه شرع ولا قانون ولا أخلاق، فليت حكوماتنا تحزم أمرها وتمنع هذه السلعة الضارة.

منع التدخين في الأماكن العامة:

لقد سعدت بما صدر من قرارات في دولة قطر تمنع التدخين في مستشفى حمد العام، وتمنع التدخين في جامعة قطر، وتمنع التدخين في مدارس وزارة التربية والتعليم، وتمنع التدخين في الأماكن العامة، كما سعدت بمنع التدخين في طائرات الخليج بين دول مجلس التعاون.

وينبغي أن نوسع في هذا ما استطعنا، حتى نضيق على هؤلاء الذين يؤذون أنفسهم بأنفسهم، ويؤذون من حولهم بالرغم منهم.

هؤلاء مرضى، فينبغي أن لا نمكنهم من أن يؤذوا أنفسهم ويؤذوا المجتمع من حولهم.

المشكل أنهم لا يؤذون أنفسهم فقط، تبين لنا أنهم يؤذون الغير شاؤوا أم أبوا.

دعوة المدخنين إلى وقفة مع النفس:

نحن في حاجة إلى وقفة مع النفس.

أدعو الإخوة والأبناء الذين ابتلوا بهذه الآفة، أن يقفوا مع أنفسهم وقفة حزم ... وقفة إرادة، لا يحتاج الأمر إلا إلى إرادة، أليس المسلم يصوم رمضان فيمتنع خمس عشرة ساعة - أو أكثر - في اليوم عن هذه الآفة ولا يحدث له شيء؟

الإرادة هي التي فعلت هذا.

نحن نريد الإرادة القوية التي يعزم فيها صحابها: ألا يعود إلى هذه الآفة سيدوخ في أول الأمر، ويشعر بالغثيان، ولكن ثمن هذا ثمن عظيم: سينجو من هذه الآفة، سينجو مما تسببه من أمراض خطيرة، سينجو هو وأولاده، سينجو المجتمع من حوله.

نحن في حاجة على هذه الإرادة، وكما يقول الشاعر قديمًا:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا ... فإن فساد الرأي أن تترددا
وإن كنت ذا عزم فأنفذه عاجلًا ... فإن فساد العزم أن يتقيدا

هناك من يقول: يمكن أن تأخذ الأمر بالتدريج بعد أن كنت تدخن ثلاثين

سيجارة دخن عشرين، ثم عشرة، ثم خمسة ... إلخ.

وهناك من يقول: الأمر يحتاج إلى الإرادة الجازمة ... إلى الإرادة القوية، وهذا هو الأصوب: {... **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ** ...} [آل عمران: 159].

إني أدعو إخواني المسلمين، وأدعو أبنائي المسلمين، إلى أن يملكوا هذه الإرادة المؤمنة، أن يملكوا هذه العزيمة الصادقة، وأن يتوكلوا على الله، وينووا ترك هذه الآفة، ويصبروا على ما يصيبهم أيامًا أو أسابيع، ثم يصبح الأمر عاديًا بعد ذلك.

أما النساء اللائي يدخن فهي آفة عظيمة دخيلة على مجتمعنا، ما كنا نعرف في بلاد العرب والمسلمين أن امرأة تدخن، وما أقبح المرأة التي تمسك السيجارة وتدخن، وأسنانها صفراء، ورائحتها كريهة.

النبي عليه الصلاة والسلام قال: «**من أكل بصلًا أو ثومًا، فليعتزلنا، أو فليعتزل مساجدنا، وليقعد في بيته**»(321)، وأمر بعض الناس أن يخرج من المسجد لسوء رائحته مما أكل من الثوم والبصل والكراث وهذه الأشياء(322)، مع أنها نافعة، فيها «فيتامينات» وغيرها من مواد الغذاء، ولكن رائحتها كريهة.

---

(321) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، عن جابر رضي الله عنه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (165/1) برقم (178).

(322) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه خطب يوم الجمعة فقال في خطبته: ثم إنكم أيها الناس تأكلون شجرتين لا أراها إلا خبثتين: البصل والثوم، لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وجد ريحهما من الرجل في المسجد أمر به فأخرج إلى البقيع، فمن أكلهما فليمتهما طبخا، رواه مسلم والنسائي وابن ماجه. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (166/1) برقم (179).

لا ينبغي للإنسان أن يؤذي غيره، فكيف يؤذي الرجل امرأته برائحته الكريهة؟ وكيف تؤذي ا لمرأة زوجها؟ أو تؤذي أولادها؟!

كل هذا ينبغي أن نقف معه وقفة حازمة، نراجع فيها أنفسنا، ونثوب فيها إلى رشدنا، وننوي نية صادقة ألا نعود إلى هذه الآفة أبدًا: **{... وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ}** [النور: 31].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكن، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

كنت أبدًا مع اختيار الشعب الجزائري في انتخاباته المعروفة التي ألغيت، وكنت أرى أن من حق هذا الشعب أن يختار من يريد أن يحكمه، فهو ليس شعبًا قاصرًا.

من حقه أن يختار لنفسه كما تختار الشعوب لنفسها، كما يختار الأمريكان لأنفسهم، وكما تختار إسرائيل لنفسها وكما يختار الأوربيون لأنفسهم، وكما يختار الهنود لأنفسهم، العالم كله يختار من يريد.

ومن حق الشعوب أن تحكم بمن يريد، ولا تكره على أحد، الإسلام لا يحب أن يكره الناس حتى على إمام الصلاة، ومن الثلاثة الذين لا ترتفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبرًا: «**رجل أم قومًا وهم له كارهون**»(323).

---

(323) عن ابن عباس رضي الله عنهب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**ثلاثة لا ترتفع**

كنت مع الشعب الجزائري، ولكني لست مع هذه الجماعات المسلحة، التي تقول إنها جماعات مسلمة وتقتل البرآء بغير حق، وبغير ذنب، وتقتل العزل من الناس ومن المدنيين، وتقتل قتلًا عشوائيًا.

الإسلام يرفض هذا، الدماء في الإسلام مصونة، والحياة محترمة، والقرآن يقرر ويؤكد ما جاء في الأديان السابقة أن: {**... مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ...**} [المائدة: 32].

ولهذا اقشعر بدني، حينما سمعت قتل الرهبان الفرنسيين السبعة في الجزائر، ما صدقت أن يحدث هذا من مسلم، الإسلام لا يجيز أن يقتل الإنسان - في غير حرب - بغير نفس قتلها عمدًا، وبغير فساد في الأرض، ولم يفعل ما يبيح دمه، فلماذا يقتل هؤلاء الرهبان.

الإسلام نهى في الحرب العلنية الرسمية بينه وبين أعدائه أن يقتل الرهبان، لا يقتل إلا من يقاتل.

رأى النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الغزوات امرأة مقتولة، فأنكر ذلك، وقال: «**ما كانت هذه لتقاتل**»(324)، ونهى بعد ذلك عن قتل النساء

صلاتهم فوق رؤوسهم شبرا: رجل أمّ قومًا وهم له كارهون، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وأخوان متصارمان» رواه ابن ماجه وابن حبان في «صحيحه»، وأورد الشيخ القرضاوي كلام عدد من الأئمة في إسناده ثم قال: فالحديث لا ينزل عن الحسن. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (182/1) برقم (229).

(324) رواه أبو داود برقم (2669)، وابن ماجه برقم (2882)، عن رباح بن ربيع، ونصه: قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة، فرأى الناس مجتمعين على شيء، فبعث رجلًا فقال: «**انظر علام اجتمع هؤلاء**» فجاء فقال: على امرأة قتيل: فقال: «**ما كانت هذه لتقاتل**». قال: وعلى المقدمة خالد بن الوليد، فبعث رجلًا، فقال: «**قل لخالد لا**

والصبيان، كما نهى عن قتل العسفاء، أي: الأجراء الذين يعملون بالأجرة.

ونهى الخلفاء الراشدين عن قتل الفلاحين الذين لا ينصبون للمسلمين في الحرب، وقال سيدنا أبو بكر - حينما وجه جيشًا: ستجدون أناسًا في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له.

هكذا قال أبو بكر، وأقره الصحابة رضوان الله عليهم، فلماذا يقتل هؤلاء الرهبان؟

أخذوهم رهائن، والإسلام لا يجيز مسالة الرهائن، لا يحيز أن ترهن إنسانًا من أجل وزر إنسان آخر.

ما ذنب هذا الإنسان؟

الذين يخطفون الطائرات أو يخطفون السفن، ويهددون الآخرين: إذا لم تسلموا من عندكم، أو تسلمونا كذا، سنقتل هؤلاء!

ما ذنب هؤلاء المخطوفين؟

هذا لا يجوز في الإسلام قط.

لا يجوز أن تهدد إنسانًا بريئًا من أجل جرم غيره. الله تعالى يقول: {**... وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزْرَ أُخْرَىٰ ...**} [الأنعام: 164]، وهذا أمر مقرر في الرسالات الإلهية جميعًا: {**أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ 36 وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ 37 أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ**} [النجم: 36 - 38].

وقد روى أهل التاريخ: إن الحجاج بن يوسف الثقفي، المشهور بالعسف

يقتلن امرأة ولا عسيفا».

والجبروت، اعتقل إنسانًا، ثم جيء به إليه في مجلس الحكم، فسأله عن قضيته، فقال له: جنى جان من عرض العشيرة فأخذت به ـ يعني: إن أخاه أو ابن عمه أو واحدًا من عصبته جنى جناية، بحثوا عنه فلم يجدوه فأخذوا هذا به ـ فقال له: أما سمعت قول الشاعر:

جانيك من يجني عليك وقد تعدى الصحاح مبارك

ولرب مأخوذ بذنب عشيرة ونجا المقارف صاحب الذنب!

فقال له: أيها الأمير: إذا كان الشاعر قد قال ذلك، فإني سمعت الله تعالى قال غير ذلك، قال: ويحك، وماذا قال الله؟ قال: قال الله تعالى على لسان إخوة يوسف: {**قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ 78 قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ**} [يوسف: 78، 79]، صاحب الجريرة يؤخذ بجريرته ولا يؤخذ أحد مكانه.

سمع الحجاج هذه الآية من الرجل فقال: صدق الله وكذب الشاعر! خلو سبيل هذا الرجل.

الحجاج الظالم يخضع لنص القرآن: {**إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ**}!

لا يجوز أن نقتل الرهبان من أجل أننا نطالب فرنسا بشيء، ما ذنب هؤلاء الرهبان؟ وقد قال الله تعالى: {**... وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ**} [المائدة: 82][326].

لا يجوز أن نظلم أحدًا بسبب أحد، ولذلك سرني أن السياسيين من جبهة

---

(325) يعني: الأجرب يمكن أن يُعدي السليم.

(326) وأولها: {**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ...**}.

الإنقاذ الذين يعيشون خارج الجزائر أنكروا هذه الجريمة، وتبرؤوا منها، وقالوا: إن الإسلام برئ من مثل هذا، وهذا هو الحق الذي ينبغي أن يقال وأن يصرح به.

ليس هناك أحد أكبر من أن يلام، ومن أخطأ ينبغي أن يتحمل نتيجة خطئه.

الإسلام دين سمح، ودين عدالة، ولا يظلم أحدًا، ولا يأخذ أحدًا بذنب أحد، لأنه يمثل عدل الله تعالى في الأرض، والله تعالى هو العدل الذي لا يظلم أحدًا.

إيها الإخوة:

قبل أن أدع مقامي هذا، أحب أن أقول كلمة عن نتائج الانتخابات الإسرائيلية:

العرب كانوا معلقين كل آمالهم على نجاح «بيريز»، وقد سقط «بيريز» - وهذا مما نحمده في إسرائيل، ونتمنى أن تكون بلادنا مثلها، وأن يكون الشعب هو الذي يحكم، ليس هناك التسعات الأربع (99.99) أو التسعات الخمس (99.999) التي نعرفها في بلادنا!! إن الله تعالى وهو خالق الخلق ورازقهم ومدبر أمرهم لا يأخذ هذه النسبة كما قال تعالى: **{وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ}** [يوسف: 103]، ولكنه الكذب والغش والخداع - ونحن لا يهمنا في الحقيقة إن نجح «بيريز» أو نجح «نتنياهو» فكلاهما شر، كما قال أحد الشباب أمس: إن كليهما يريد أن يأكلنا، واحد يريد أن يأكلنا بيديه، وواحد يريد أن يأكلنا بالشوكة والملعقة، إنما نحن المأكولون، نجح «الليكود» أو نجح «العمل» نحن المضيعون.

ينبغي ألا يعلق الناس أملًا إلا على الله عز وجل.

لعل الإخوة الفلسطينيين يجمعون صفوفهم، ويعرفون أن هذا السلام الهزيل، سلام يقوم على ساقين مريضتين، سلام هش لا قيمة له ولا وزن.

ينبغي أن يضعوا كلهم أيديهم بعضهم في يد بعض.

وينبغي للعرب أن يعودوا إلى أنفسهم، ويتضاموا بعد هذه الجفوة التي حدثت، لا منجى لنا ولا مهرب إلا بأن نتحد ... إلا بأن نتضام ... إلا بأن نصبح كتلة واحدة كالبينان المرصوص.

هذا ما ينبغي أن نفعله.

ليس أمامنا إلا بأن نعتصم بحبل الله جميعًا ولا نتفرق: **{وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ}** [آل عمران: 105].

أسأل الله تعالى أن يجمع كلمتنا على الهدى، وقلوبنا على التقى، وأنفسنا على المحبة، وعزائمنا على عمل الخير وخير العمل.

اللهم اجعل يومنا خيرًا من أمسنا، واجعل غدنا خيرًا من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك، وأصلح لنا شأننا كله لا إله إلا أنت.

اللهم انصر الإسلام وأعز المسلمين، اللهم اجعل كلمة الإسلام هي العليا، واجعل كلمة أعدائه هي السفلى، وانصر إخوننا المجاهدين في سبيلك حيثما

كانوا من أرض الإسلام، وأنقذ إخوتنا المضطهدين والممتحنين والمأسورين، اللهم افكك بقوتك أسرهم، واجبر برحمتك كسرهم، وتول بعنايتك أمرهم.

اللهم ولّ أمورنا خيارنا، ولا تول أمورنا شرارنا، وارفع مقتك وغضبك عنا، ولا تهلكنا بما فعل السفهاء منا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا.

اللهم اجعل هذا البلد آمنًا مطمئنًا، سخاء رخاء وسائر بلاد الإسلام.

{... رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ} [آل عمران: 147].

{... رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ} [الحشر: 10].

{... وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ} [العنكبوت: 45]

* * *

18- جولة حول العالم

صورتان متناقضتان

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

كنت في جولة في العالم الإسلامي، وخارج العالم الإسلامي.

زرت المسلمين في أقطارهم وأوطانهم وزرت - أيضًا - بعض المسلمين خارج الأقطار والأوطان الإسلامية، حين يعيشون أقليات - أو جاليات - في مجتمعات غير إسلامية.

والذي خرجت به صورتان متناقضتان:

صورة مشرقة مضيئة، تملأ النفس بهجة وسرورًا.

وصورة أخرى مظلمة معتمة، تفتت الأكباد، وتقطع نياط الفؤاد.

هاتان الصورتان نطالعهما في كل مكان.

صورة معتمة لبعض المسلمين:

صورة بعض أولئك الذين ينتسبون إلى الإسلام، ويتسمون بأسماء المسلمين، وقد نسلوا من بين ظهراني المسلمين، آباؤهم مسلمون وأمهاتهم مسلمات، ولكنهم يعيشون عيشة بعيدة عن الإسلام، ويحيون حياة غير إسلامية.

هذه الطائفة من الناس نراها في كل مكان، نراها هنا وهناك وهنالك في

أرض العرب، وفي أرض الإسلام.

ترى أولئك الذين يحملون الأسماء الإسلامية، ولكنهم لا يحيون الحياة الإسلامية.

ترى ذلك الشاب الذي نشأ من بين أبوين مسلمين، ولكنه لا يقيم الصلاة ... لا يعظم شعائر الله ... لا يلتزم بأدب الإسلام، ولا بخلق الإسلام ... يشرب المسكرات، ويتناول المخدرات، ويمشي وراء الفتيات، ويعيش عيشة الغربيين الذين لا دين لهم، وإن تسموا في بعض الأحيان بأسماء المسيحية وغيرها.

هذا من ثمار «تيار التغريب» الذي يعمل عمله منذ مدة من الزمن في قلب الأمة الإسلامية.

كان هناك مستعمرون احتلوا ديار الإسلام حينًا من الزمن، طال أو قصر، ثم جلت جيوش هؤلاء الأجانب، رحلت عساكرهم، ولكن لم ترحل أفكارهم وثقافاتهم وقوانينهم وتقاليدهم ومخططاتهم، بقيت تعمل عملها في الأنفس والعقول والحياة، وهذا هو الاستعمار الأخطر والأعمق.

الاستعمار السياسي والعسكري يحتل الأرض، ولكن الاستعمار الفلسفي والفكري والثقافي والاجتماعي يحتل نفس الإنسان وعقله وقلبه، يحتل حياته، ويحتل تقاليده وآدابه ومفاهيمه، وهذا هو الخطر.

رأينا الاستعمار قد رحل عن بلاد المسلمين، ولكن ترك وراءه من يعمل عمل المستعمرين، بل وجدنا من أبناء المسلمين من هو شر من المستعمرين.

كان المستعمرون يستحيون أن يحاربوا الإسلام جهرة وعلانية، فوجدنا

من حكام المسلمين من يقف جهرة ضد الإسلام ... من يحارب الله جل جلاله علانية ... من يتحدى أحكام الإسلام وشرائعه جهارًا.

هؤلاء بعض من رضع لبان الاستعمار ... بعض من رباهم الاستعمار على يديه، وصنعهم على عينيه.

كان من نتيجة هذا أن وجدنا بلادًا إسلامية تتنكر للإسلام، ولا يبقى فيها من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، ووجدنا من أبناء المسلمين من وصفت لكم، ووجدنا من بنات المسلمين من تخرج من أدبها وزيها وحجابها، تخرج تراقص الأجانب، وتمشي في الطرقات مكشوفة الذراعين والساقين، بل ما هو فوق الذراعين والساقين، لا تعترف بخلق إسلامي، ولا بأدب إسلامي، من الكاسيات العاريات، المائلات المميلات.

رأينا هذا كله في بلاد المسلمين، ورأينا أكثر منه خارج بلاد المسلمين.

رأينا مسلمين في جاليات قد نسوا إسلامهم، وبعضهم - ممن ذكر إسلامه - قد نشأت له ناشئة لا يعرفون عن الإسلام ألفًا ولا باء.

بعض المسلمين الذين هاجروا إلى ديار بعيدة قد ولد لهم أولاد ... أبناء وبنات ... ولكن هؤلاء نشأوا في مجتمعات غير إسلامية، ولم يجدوا من الآباء والأمهات من يربيهم على الإسلام، ومن ينشئهم على الإيمان والإحسان، فنشأ ونشأة بعيدة عن المسلمين، فقدهم أهلوهم، أصبحوا أناسًا آخرين.

هذا ما حذرت منه أولئك المسلمين في تلك البلاد، وقلت لهم: إن كنتم قد جئتم لتجمعوا الدنيا وتخسروا الدين، فما أسوأ هجرتكم، وما أقبح غربتكم! إذا

كسبتم دنياكم وخسرتم أولادكم وذراريكم، ولم تحموهم من النار، فما كسبتم شيئًا.

وجدنا هذا في بلاد كثيرة.

صورة معتمة، صورة مظلمة، نراها في كل مكان.

صورة مضيئة لأبناء الإسلام:

ولكن بجوار هذه الصورة المعتمة ... الصورة السوداء: صورة أخرى مضيئة، مشرقة بالنور، فواحة بالعطر، فياضة بالجمال، موحية بالخير والبركة، مبشرة بالظهور والانتصار بإذن الله.

هذه الصورة: صورة أبناء الصحوة الإسلامية، صورة الرجعة إلى الإسلام، صورة أولئك التوابين المتطهرين، صورة أولئك الذين نراهم في كل مكان، من أبناء الإسلام وبناته.

كنت في مدينة «استانبول» التي كانت عاصمة الخلافة الإسلامية العثمانية، فوجدت الصورة المظلمة، وجدتها في أولئك الذين لا تفرقهم عن الأوربيين في شيء في بلاد السياحة التي أعمت أعين الناس، وأصبحت «صنمًا» يتعبد له الكثيرون.

ولكن بجوار هذا: ترى أولئك الذين يعمرون المساجد، ويملأونها أيام الجمع، فتضيق بهم، ويصلون في الشوارع، وهذه ظاهرة عامة في بلاد الإسلام، وهي صورة مضيئة بلا ريب.

رأيت في تركيا آلاف المدارس القرآنية: البنين والبنات، والأطفال من

الجنسين، يقرأون القرآن ويحفظونه، وقد تجد منهم من يحفظه عن ظهر قلب، وهو لا يعرف معنى كلمة في اللغة العربية، وهذا من معجزات هذا القرآن العظيم: أن يحفظه من لا يفهم لغته.

ازدياد البنوك الإسلامية:

كنت في «سويسرا» أحضر اجتماعًا لدار المال الإسلامي في «جنيف» ولبنك التقوى في «لوجانو»، وقلت: سبحان الله، في وقت من الأوقات كانوا يقولون: إنه لا يمكن أن تستغنى الحياة عن الربا، الفوائد الربوية ضرورة من ضرورات الحياة المعاصرة، الحياة عصبها الاقتصاد، والاقتصاد عصبه البنوك، والبنوك عصبها الفوائد الربوية، فلا تحلموا ببنوك بغير ربا.

هكذا كانوا يقولون لنا في وقت من الأوقات.

ثم شاء الله أن تتحطم هذه الأسطورة، وأن يقف علماء المسلمين من كل الاختصاصات: الاقتصاديون، والقانونيون، والإداريون، والمحاسبيون، بجوار رجال الفقه والشريعة، يجمعون على أن الربا والفوائد الربوية، وفوائد البنوك هي: الربا الحرام ... الحرام ... الحرام(327).

---

(327) وإذا بنا نفاجأ في صيف عام (1990م) بقوم يثيرون قضية الفوائد على صفحات الصحف المصرية من جديد، بعد أن كانت المجامع والمؤتمرات العلمية الإسلامية قد حسمتها منذ أكثر من ربع قرن، وحاولوا جاهدين أن يحولوا المحكمات إلى متشابهات والقطعيات إلى ظنيات، وبلغت بهم الجرأة ان أفتوا بحل فوائد البنوك، وكأنه قد كتب علينا أن نظل - كما يقول الأستاذ القرضاوي - ندور حول أنفسنا كالثور في الساقية فلا نحسم معركة يومًا ولا نغلق قضية بحال من الأحوال، وكان الشيخ ظظظ في مقدمة من تصدى لبيان الحق وكشف الزيف والرد على الشبهات والأباطيل، وكان للدراسة الممتعة التي نشرها في كتابه: «فوائد البنوك هي الربا الحرام» صداها القوي في إبلاغ هداية الله

ثم بعد ذلك يبحثون عن البدائل الشرعية، فإذا البنوك الإسلامية تتعدى الآن «السبعين»، والمهم أنها تدخل أوربا وتدخل بلاد الغرب!

في سويسرا: دار المال وبنك التقوى، وفي لندن بنوك البركة، وفي الدنمارك: بيت التمويل الإسلامي، وهكذا بدأت البنوك الإسلامية تغزو عالمنا الإسلامي، وتخرج من العالم الإسلامي إلى العالم الأوربي.

صحيح أنها تقاسي وتعاني وتحارب من جهات شتى، في داخل بلاد المسلمين وخارجها، ولكنها تقف على أرض صلبة، بسبب مؤازرة المسلمين لها.

أصبح هناك شعور إسلامي عام يريد أن لا يبوء بلعنة الله ورسوله، فقد لعن أكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه وقال: «**هم سواء**»(328).

أصبح هناك شعور إسلامي يريد أن لا يأذن بحرب من الله ورسوله، ولهذا يحرص المسلمون على البحث عن المال الحلال، والرزق الحلال، لا يريد أن يدخل جيبه درهم من حرام، ولا أن يدخل بطنه لقمة من حرام، ولا أن يغذي أولاده بالحرام أو يكسوهم من الحرام.

هذا شعور إسلامي عارم عام.

وإسماع صوت الحق، فجزاه الله خير ما يجزي العلماء الصادقين.

(328) جاء ذلك في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهب قال لعن النبي صلى الله عليه وسلم آكل الربا، ومؤكله، وكاتبه، وشاهديه، وقال: «**هم سواء**» رواه مسلم، وغيره. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (534/2) برقم (1056).

شباب الصحوة الإسلامية:

هناك في العالم الإسلامي كله: ألوف وملايين الشباب الذين شرح الله صدورهم للالتزام بالإسلام الصحيح علمًا وعملًا، يعمرون مساجد الله، بعد أن كانت شبه مقصورة - قديمًا - على الشيوخ الكبار الذين اقتربوا من حافة القبر، وهؤلاء الشباب هم الذين يملؤون مواسم الحج والعمرة كل عام، وهم الذين يلتهمون الكتب الإسلامية من معارض الكتب، وهم الذين يسارعون إلى الجهاد كلما دعاهم داعي الجهاد في سبيل الله.

وبجوار هؤلاء نجد الشابات المسلمات في الجامعات والمعاهد والمدارس، وغيرها من المؤسسات، يقبلن على «الحجاب» طائعات مختارات، مستجيبات لأمر الله تعالى للمؤمنات: {**... وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَاۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ...**} [النور: 31].

لقد تمردن على أزياء الحضارة الغربية المستوردة، التي توارثنها عن أماتهن وقريباتهن، والتزمن بأوامر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

هذه بعض معالم الصورة المضيئة.

في «إنجلترا» حضرت هناك مخيمًا للشباب المسلم في مدينة «ليفربول». مخيم الشباب المسلم هذا يجمع صفوة الشباب الذين ذهبوا إلى تلك البلاد ليدرسوا «البكالوريوس» أو «الماجستير» أو «الدكتوراة».

كانوا قديمًا يبعثون بالشباب إلى أوربا وأمريكا ليصنعوا هناك، ويصهروا هناك، ويعودوا بعد مدة من الزمن خواجات بأسماء مسلمين، يعودون بوجوه عربية إسلامية، وعقول غربية أوربية.

اليوم تغير الحال، أصبح كثير من الشباب يذهبون إلى تلك البلاد ودينهم قليل، وتدينهم ضعيف، وصلاتهم خفيفة، ولعله لا صلاة لهم، فإذا هم هناك يشعرون بالتحدي للإسلام والمسلمين، وإذا هم يجدون شبابًا قد سبقوهم إلى الإسلام الصحيح، والالتزام الإسلامي الصادق، فإذا هم يتأثرون بهذا الجو الإسلامي والمناخ الإسلامي، ويلتزمون بالإسلام اعتقادًا وفكرًا وشعورًا وسلوكًا وعبادة ومعاملة.

وإذا هؤلاء الشباب يصبحون دعاة إلى الإسلام، لم يكتفوا بأن يكونوا متدينين في أنفسهم، بل يحملون الإسلام إلى غيرهم، ويقيمون في ديار الغربة ... في ديار غير إسلامية: مخيمات ومعسكرات إسلامية، يكبر الله فيها، ينادي فيها بالإسلام، يؤذن فيها الأذان، تلقى فيها المحاضرات الإسلامية، والأناشيد الإسلامية، وتعقد فيها الندوات الإسلامية، من قبل الفجر إلى ما بعد العشاء.

مؤتمرات إسلامية في أمريكا:

والله لقد حضرت مخيمًا أو مؤتمرًا في إحدى مدن أمريكا فرأيت عجبًا:

فندقان كبيران قد حجزا، أحدهما للرجال، والآخر للنساء، الطوابق الثلاثين قد أجرها الشباب في عيد مما يسمونه «أعياد الكرسمس»، الناس يأخذون الإجازات في تلك الفترة ليشربوا الخمور ويمارسوا الفجور، وهؤلاء الشباب استغلوا هذه الفترة ليستأجروا فنادق يقيمون فيها دينهم!

من قبل الفجر بساعة تسمع في الحجرات دويًا بالقرآن كدوي النحل، حتى إذا جاء الفجر الصادق سمعت الأذان يؤذن في قلب أمريكا: الله أكبر، الله

أكبر، لا إله إلا الله، فإذا جاء الصباح رأيت التمرينات الرياضية، ثم رأيت الأناشيد الإسلامية، ثم رأيت حلقات القرآن ودراسة الحديث والسيرة، وحلقات للفقه وتعلم الأحكام، ثم رأيت المحاضرات والندوات والمناقشات.

حياة إسلامية لعدة أيام.

قلت لهم: والرجل صاحب الفندق رضى بهذا؟ قالوا: نعم، وفرح به، لأنه يؤجره للمسيحين في مثل تلك الفترات فيكسرون الأطباق، ويخربون الأشياء، ولكنه يأخذ الأشياء منا بعد رحيلنا أفضل مما كانت!

نماذج وضاءة ... نماذج مسلمة، تقر بها الأعين، وتنشرح بها الصدور، وتبتسم لها الثغور.

إذا كانت هناك صورة مظلمة معتمة، فبجوارها صورة مضيئة مشرقة في كل مكان.

صحوة في أستراليا:

في «أستراليا» بجوار أولئك الذين ذابوا في المجتمع غير المسلم، وذاب أبناؤهم وبناتهم وضاعوا، وجدنا آخرين حريصين على دينهم، غيورين على أبنائهم وبناتهم، يربونهم على الإسلام، وينشئونهم على القرآن منذ الصغر، فمن شب على شيء شاب عليه، ومن شاب على شيء مات عليه.

رأينا هؤلاء يتجمعون في المسجد في كل حين، خاصة في أم الجمع والسبت والأحد، ليعلموا أبناءهم القرآن والسيرة النبوية والفقه وغير ذلك من أحكام الإسلام، ويجتمعون في حلقات وفي أسر ليبقوا على حياتهم الإسلامية.

وهم في تلك البلاد لا ينسون إخوانهم في البلاد الإسلامية الأخرى.

أعجبني بعد أن خطبت الجمعة في أحد المساجد في مدينة «مربول» - وفيها جالية إسلامية وعربية كبيرة وخاصة من اللبنانيين - بعد الصلاة تنادوا بالتبرع لإخوانهم في السودان!

كانت أنباء الفيضانات في السودان على أشدها، فهم تنادوا بالتبرع للسودان، رغم بعد الشقة، ورغم طول المسافة، هم يشعرون بأنهم جزء من الأمة الإسلامية: **«من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم ...»**(329).

صورة من الصور المضيئة: دعيت هناك إلى مؤتمر إسلامي في تلك المدينة، همه ومحوره: البحث عن حلول لمشكلات المسلمين المغتربين هناك.

فهم يريدون أن يحيوا بالإسلام، وأن يحيوا للإسلام، وأن يموتوا على الإسلام، كما قال الله تعالى **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ}** [آل عمران: 102].

حكوا لي: إنه قبل أكثر من قرن - حوالي قرن ونصف استدعى إخوان لهم من أفغانستان، بإبلهم وجمالهم، ليجوبوا الصحراء، ويكتشفوها، وينتفعوا بها، ولكنهم ذهبوا بغير زوجاتهم، فتزوجوا من أهل استراليا نفسها، واستطاع الجيل الأول أن يحتفظ بإسلامه، ولكن الأجيال التالية بعد ذلك لم تستطع أن تحتفظ بإسلامها، فتاهت وذابت وماعت في المجتمع الكبير، وهذا هو الخطر،

---

(329) رواه الطبراني في «الكبير» من حديث حذيفة من رواية عبد الله بن أبي جعفر وهو مختلف فيه، فبعضهم ضعفه، وبعضهم وثقه، منهم أبو حاتم وأبو زرعة وابن حبان. انظر: «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» حديث (997)، والهيثمي (87/1).

وقالوا: لا نريد أن تتكرر التجربة، نريد أن نحتفظ بأبنائنا مسلمين وبناتنا مسلمات.

هذه هي الروح الإسلامية، هذه هي الصورة المضيئة التي لمسناها هناك.

في «أندونيسيا» وجدنا هناك تيارات ... تيارات كبيرة ... تيارات تريد أن تسلخ هذا البلد الكبير ... أكبر بلد إسلامي ... مائة وستون مليونًا ... حوالي (90 %) أو ما يقرب من (90 %) منهم مسلمون.

هناك تيارات التنصير تعمل عملها، على قدم وساق، من أوربا وأمريكا، ومن كل بلاد التنصير تجيء الإرساليات.

إندنيسيا مجموعة من الجزر تبلغ ثلاثة آلاف جزيرة، المسلمون يتصلون بهذه الجزر عن طريق القوارب، أو السفن الشراعية، أو البخارية على أقصى تقدير، ولكن هذه الإرساليات التبشيرية التنصيرية تملك أكثر من خمسين مطارًا! بالطائرات تنتقل بين الجزر ... إمكانات هائلة أعطيها هؤلاء ... إنهم يريدون أن يعملوا عملهم في ذلك البلد الكبير.

وللأسف أقول لكم بصراحة: لقد بدأت نسبة المسلمين في التناقص، يجب أن نصارح أنفسنا، وهذا ما قاله لي الإخوة المسؤولون عن الدعوة هناك، وعلى رأسهم الأخ الكبير الدكتور محمد ناصر رئيس وزراء أندونيسيا الأسبق. قالوا لي: إن النسبة بدأت تتناقص لحساب التبشير، ليس تناقصًا كبيرًا ... أقل من (1 %)، ولكن (1 %) في هذا التعداد الضخم يساوي مليونًا وستمائة ألف، و(5ر %) معناها ما يقارب المليون، وهذا خطر.

الإسلام بطبيعته يزحف وينتشر، ولكن إذا وجد في مثل هذه الظروف التي

يستغل فيها ثالثون «الفقر والجهل والمرض»، فإن هؤلاء القوم يستطيعون أن يؤثروا.

إن للتبشير وللتنصير في البلاد العربية هدفًا، وإن له في خارج المنطقة العربية هدفًا آخر.

هدفه في المنطقة العربية - منطقة اللسان العربي الذي نزل به القرآن - أن يزعزع المسلمين عن الإسلام، وليس هدفه أن يدخلهم في النصرانية، فهو يجد هذا شيئًا بعيدًا.

أما خارج هذه المنطقة حيث يوجد الفهم الضعيف للإسلام - توجد عاطفة إسلامية، ولا يوجد فهم إسلامي صحيح ... لا توجد مناعة ... لا توجد حصانة إسلامية - فهم يعملون على إخراج المسلم من دينه، وإدخاله في الدين الآخر، وخصوصًا من الأطفال والفقراء والمشردين والضعفاء واليتامى وغيرهم، هم يبحثون عن مثل هؤلاء ويأخذونهم من أول الأمر ومنذ نعومة الأظفار ليعلموهم ويلقنوهم دينهم.

بجوار هذه الصورة، هناك سعي دؤوب من الدعاة، ومن المجلس الأعلى للدعوة الإسلامية، ومن الغيورين على الإسلام، للمقاومة وللحفاظ على الذات، وللإبقاء على الشخصية الإسلامية التاريخية لإندونيسيا.

صنفان من المسلمين متقابلان:

الإسلام في كل مكان يجد هذين الصنفين:

صنف المتغربين الذين انخلعوا من أصولهم، وقطعوا من جذورهم، وسلخوا من جلدهم، أو من ذاتيتهم الإسلامية، هؤلاء الذين يتسمون بأسماء

المسلمين ولا يعملون عمل المسلمين.

ويجد الصنف الآخر: الصنف الذي يأبى إلا أن يعيش مسلمًا ويموت مسلمًا، الذي جعل الإسلام أكبر همه، ومحور حياته، ومدار تفكيره وسعيه.

ونحمد الله أن هذا الصنف بدأ يزداد يومًا بعد يوم، بفضل هذه الصحوة الإسلامية التي نرى آثارها ونلمس مظاهرها في كل مكان من أرض الإسلام، وخارج أرض الإسلام.

صحيح أن أعداء الإسلام لها بالمرصاد، وأن أجهزة الرصد ترصدها وترقبها، وترصد الملايين لدراستها، لكي تعمل على وأدها، فإما أن تتآكل من الداخل، وإما أن تضرب من الخارج، تريد أن تشغلها بنفسها، وتشغل فئاتها بعضهم ببعض، وتقيم بينها وبين الحكام عدوات وجفوات، وتقيم بينها وبين المجتمع فجوات وفجوات، وهكذا أعداء الإسلام بالمرصاد للصحوة الإسلامية.

واجب أبناء الصحوة:

وينبغي على أبناء الصحوة الإسلامية أن يفوتوا على هؤلاء مقاصدهم، إذا وعوا دورهم وعيًا صحيحًا، إذا اهتموا بالكليات قبل الجزئيات، وبالأصول قبل الفروع، وبالقضايا الكبيرة قبل الأمور الصغيرة، وبالقضايا الكلية قبل المسائل الجزئية والخلافية التي يستحيل أن ينتهي الخلاف فيها بين الناس.

يجب على الصحوة الإسلامية أن تدرك هذا الدور، وتدرك كيد الأعداء الذين يسعون سعيهم في تمزيق الصف الإسلامي عن طريق نشر ضلالات وبدع وانحرافات يروجون لها، فلا بد لأبناء الإسلام الواعين أن يعرفوا كيد

القوم، وأن يحبطوا مكرهم، ويردوا سهامهم المسمومة إلى صدورهم: **{... وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ}** [الأنفال: 30].

إن الصورة المضيئة تزداد والحمد لله، وعندنا أمل كبير أن ينصر الله الإسلام ويعز دينه، وعندنا بشائر من القرآن والسنة: أن هذا الدين منصور، وأن رايته مرفوعة وأنه ظاهر على الدين كله ولو كره المشركون، وصدق الله العظيم إذ يقول: **{هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ}** [التوبة: 33، الصف: 9]، وصدق رسوله صلى الله عليه وسلم إذ قال: «**ليبلغن هذا الأمر** «أي أمر هذا الدين» **ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر** «أي في البادية أو الحضر» **إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز، أو بذل ذليل، عزًا يعز الله به الإسلام، وذلًا يذل الله به الكفر**»(330).

وإنا لهذا اليوم - يوم عز الإسلام وذل الكفر - إن شاء الله لمنتظرون: **{... وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ 4 بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ 5 وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ}** [الروم: 4 - 6].

أقول قولي هذا أيها الإخوة، واستغفر الله تعالى لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة:

---

(330) رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد رجال الصحيح. انظر: «المبشرات بانتصار الإسلام» للقرضاوي (ص 27) ط. مكتبة وهبة بالقاهرة.

هناك أمور ثلاثة، أحب أن أنبه عليها:

الأمر الأول: ان إخوة لكم في «بنجلادش» - ذلك البلد الإسلامي السني العريق، الذي يضم حوالي تسعين مليونًا، معظمهم مسلمون سنيون - يتعرضون لأزمة شديدة، نتيجة الفيضانات التي شردت الملايين، وهدمت البيوت، وغرقت الناس. فهم بحاجة إلى المعونة: « **... والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه»**[331].

لقد رأيتم إخوانكم في «استراليا» يهتمون بإخوانهم في السودان، ونحن أولى أن نهتم بإخواننا في ذلك البلد المسلم - في بنجلادش - الذي يتعرض لغزو تبشيري تنصيري أيضًا، حرام علينا أن تذهب أولئك الفئات الذين يمثلون الجهات المسيحية، ولا توجد الجهات الإسلامية ممثلة تمثيلًا قويًا.

جزى الله دولة «قطر» خيرًا، حيث بادرت بإرسال المعونة، وذهب أول طائرة تحمل المعونات الطبية والغذائية إلى ذلك البلد، ونحن باعتبارنا مسلمين أفرادًا علينا أن نقوم بهذا الأمر.

لقد قام الكثيرون بواجبهم نحو إخوانهم في السودان، حتى قال لي بعض الإخوة السودانيين: إن السودان وجد الكثير من المعونات من «قطر» جزاها

---

(331) قطعة من حديث رواه مسلم، وأبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وهو الحديث السادس والثلاثون من أحاديث «الأربعين النووية»، ونص الحديث كما رواه الترمذي: **«من نفّس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر في الدنيا يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر على مسلم في الدنيا ستر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه».** «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» برقم (472، 1385، 1570).

الله خيرًا، والآن علينا جميعًا أن نوجه المساعدة إلى «بنجلادش»، وسنفتح - إن شاء الله - حسابًا في مصرف قطر الإسلامي تحت اسم «الهيئة الخيرية الإسلامية» لمساعدة الإخوة في هذا البلد الإسلامي.

نسأل الله أن يعينهم على أزمتهم، وأن يخرجهم من كربتهم، وأن يكشف غمتهم.

الأمر الثاني: أننا ودعنا - في هذه الأيام - أخًا كريمًا من الدعاة إلى الله، الذين طالما استمعنا إليهم وزارونا في أكثر من مناسبة، خاصة في رمضان، وفي رمضان الماضي كان هنا - في الدوحة - وحدث الإخوة في الجامع الكبير.

ذلك هو الأخ الداعية الدكتور: يوسف حامد العالم(332)، أحد الدعاة في السودان، توفي إلى رحمة الله تعالى ، نسأل الله أن يتقبله في الصالحين، ويغفر له، ويرحمه ويجزيه عن الدعوة الإسلامية والعمل الإسلامي خير الجزاء.

الأمر الثالث: أن الله سبحانه وتعالى شرف «قطر»، بأن تضم قافلة الشهداء في أفغانستان أول شهيد من أبناء هذه البلاد، هو ذلك الشاب الصالح الغيور المتحمس ابن الثامنة عشرة: أحمد عبد الله صالح الخليفي، الذي أخذ إجازة من عمله، ولكنه استغل هذه الإجازة ليذهب إلى أفغانستان هناك،

---

(332) عميد سابق لكلية القرآن الكريم بالخرطوم، وهو صاحب كتاب «المقاصد العامة للشريعة الإسلامية» الذي أعدّه لنيل درجة الدكتوراة في الفقه وأصوله من كلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر عام 1381هـ/1971م.

ويخوض المعارك، ويطلب الشهادة.

صحيح أنه كان يتمنى ويدعو الله أن يرده - بعد أن يأخذ الخبرة من أفغانستان - لتكتب له الشهادة في أرض «فلسطين» لتحرير المسجد الأقصى.

كان يدعو بذلك ولكن الأجل وافاه، وكل إنسان يذهب إلى موتته حيث أراد الله، كما قال الله تعالى: **{... وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ}** [لقمان: 34].

مشيناها خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها
ومن كانت منيته بأرض فليس يموت في أرض سواها

استشهد هذا الشاب الصالح المجاهد، وضم إلى قافلة الشهداء الأبراء، في أشرف قتال من نوعه في تلك الأراضي حيث يدافع المسلمون عن دينهم وأرضهم وعرضهم، في مقاومة تلك القوة الشيوعية الملحدة الطاغية.

نسأل الله الذي هيأ لإخواننا في أفغانستان هذا الجهاد وهذا الشرف، أن يهيئ أمثاله لأبناء الإسلام على أرض النبوات ... على أرض المقدسات في فلسطينن وأن يهيئ الله النصر للمسلمين في كل جهاد يجاهدونه، إنه سميع قريب.

الله انصر الإسلام وأعز المسلمين، اللهم اجعل كلمة الإسلام هي العليا، واجعل كلمة الذين كفروا هي السفلى.

اللهم أعل بنا كلمة الإسلام، وارفع بنا راية القرآن.

اللهم إنا نسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا، وأهلينا وأموالنا، اللهم استر توراتنا، وآمن روعاتنا، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا، ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا.

اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك.

{... رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ} [آل عمران: 147].

{... رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [الحشر: 10].

عباد الله: يقول الله تعالى : {إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا} [الأحزاب: 56]، اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

{... وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت: 45].

* * *

خطبة عيد الفطر

ألقيت في ميدان عابدين بالقاهرة سنة 1401هـ

الحمد لله, الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له, خصنا بخير كتاب أنزل، وأكرمنا بخير نبي أرسل، وجعلنا به خيرة أمة أخرجت للناس، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونؤمن بالله.

{ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ...} [المائدة: 3].

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح للأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وتركنا على المحجة البيضاء، على الطريقة الواضحة الغراء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، فمن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالًا مبينًا.

اللهم صل وسلم وبارك على هذا النبي الكريم، وارض اللهم عن آله وصحابته، وأحينا اللهم على سنته، وأمتنا على ملته، واحشرنا في زمرته، مع الذين أنعمت عليهم من الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

يوم التكبير والمقصود منه:

هذا يوم العيد, هذا يوم التكبير, الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر. الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر. الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر. لا إله الله والله أكبر, الله أكبر،

ولله الحمد.

الله أكبر من كل قوة تظهر في هذا الوجود، الله أكبر من طغيان الطاغين، ومن استكبار المستكبرين، الله أكبر من كلّ من يطغيه المال أو يطغيه السلطان.

إذا رأيت الدنيا برقت أمامك، وسال إليها لعابك، فاذكر أن الله أكبر، إذا رأيت طاغية من الطغاة، وأردت - أو خطر ببالك حينا - أن تطأطئ له الرأس، أو تحني له الظهر فاذكر أن الله أكبر.

علمنا الإسلام التكبير: إذا أذنا كبرنا الله، وإذا أقمنا كبرنا الله، وإذا دخلنا في الصلاة كبرنا، وإذا ولد المولد كبرنا الله، وغذا ذبحنا الذبيحة كبرنا الله، وإذا خضنا المعارك كبرنا الله، وإذا جاء يوم العيد رفعنا أصواتنا وقلنا: الله أكبر. الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر. الله أكبر ولله الحمد.

فرح العيد، ولماذا نفرح؟

أيها الإخوة:

هذا يوم العيد, هذا يوم عيد الفطر, أفطرنا وفرحنا فرحة الصائم عند فطره، وننتظر الفرحة الكبرى عند لقاء ربنا: «**للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره, وإذا لقي ربه فرح بصومه**»(333).

«فرح بفطره» فرحة طبيعية لأنه حصل على حريته، أبيح له ما كان حرامًا عليه. و«فرح بفطره» فرحة دينية، لأنه وفق إلى أداء واجبه نحو ربه:

---

(333) من حديث أبي هريرة الذي رواه البخاري واللفظ له، ومسلم. انظر: «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (307/1)، برقم (505).

{قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٌ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ} [يونس: 58].

وهو يفرح هذه الفرحة كل يوم بعد الغروب، حين يفطر ويقول: ذهب الظمأ، وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله.

ويفرحها بعد انقضاء شهر رمضان، وما وفقه الله فيه من الصيام والقيام، فيقول: الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

لقد مضى رمضان إما شاهدًا لنا وإما شاهدًا علينا، مضى رمضان شفيعًا لقوم أحسنوا الصيام وأحسنوا القيام، إيمانًا واحتسابًا، فغفر لهم ما تقدم من ذنوبهم.

ولكنه سيشهد على قوم لم يحسنوا الصيام ولم يحسنوا القيام، فليس لهم من صيامهم إلا الجوع والعطش، وليس لهم من قيامهم إلا التعب والسهر.

فما بالكم بأقوام لم يصوموا, ولم يقوموا، وهم في بلاد الإسلام وينتسبون إلى المسلمين؟! «**من أفطر يومًا من رمضان من غير رخصة ولا مرض, لم يقض عنه صوم الدهر كله وإن صامه**»(334).

مضى رمضان شهيدًا لنا أو شهيدًا علينا, وإنا لنرجو أن يكون شهيدًا لنا, وأن يشفع لنا مع القرآن: « **الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة, يقول الصيام: أي رب منعته الطعام والشهوة فشفعني فيه, ويقول**

---

(334) حديث ضعيف، أخرجه الترمذي, وأبو داود, والنسائي, وابن ماجه وأحمد والدارمي، والدارقطني، من حديث أبي هريرة، وعلقه البخاري بصيغة التمريض. «شرح السنة» للبغوي بتحقيق شعيب الأرناؤوط (290/6) برقم (1753) «فيض القدير» للمناوي (77/6) برقم (8492). والحديث - كما قال البغوي - على طريق الإنذار والإعلام بما لحقه من الإثم وفاته من الأجر.

القرآن: منعته النوم بالليل فشفعني فيه, قال: فيشفعان»(335)، نرجو الله أن يشفع لنا القرآن ويشفع لنا الصيام.

مضى رمضان, وستمضي الشهور كلها، وستمضي الأعوام, وتنقضي الأعمار هكذا.

يفرح الناس بانقضاء شهر مضى, ولا يدرون أن هذا الشهر إنما هو صفحات من كتاب حياتهم طويت, إنما هي أوراق ذبلت من شجرة العمر.

وما المرأ إلا راكب ظهر   على سفر يفنيه باليوم والشهر!
يبيت ويضحي كل يوم وليلة   بعيدًا عن الدنيا قريبًا إلى القبر!

كل يوم يمضي يقربك خطوةً إلى قبرك, يقربك مسافةً إلى نهاية أجلك.

ونفرح بالأعوام إما تصرمت   على أنها من عمرنا تتصرم!

يفرح الإنسان بانقضاء الأيام والشهور, وما دروا أنها حياتهم تنقضي بها. يقول الحسن رحمه الله : يا ابن آدم إنما أنت أيام مجتمعة, كلما ذهب يوم ذهب بعضك!

من كان يعبد رمضان فإن رمضان قد مات:

هناك بعض الناس يقبلون على الله في رمضان, فإذا ما انتهى رمضان انتهى ما بينهم وبين الله, قطعوا الحبال التي بينهم وبين الله, لا تراهم يرودون المساجد, لا تراهم يفتحون المصاحف, لا تراهم يرطبون ألسنتهم بالذكر

---

(335) رواه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو, ورواه الطبراني في «الكبير» ورجاله محتج بهم في «الصحيح»، قال الهيثمي: رجال الطبراني رجال الصحيح. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (309/1) برقم (509).

والتسبيح, كأنما يعبد الله في رمضان ولا يعبد في شوال وسائر الشهور.

من كان يعبد رمضان فإن رمضان قد مات, ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت, كان بعض السلف يقولون: بئس القوم قوم لايعرفون الله إلا في رمضان, كن ربانيًا ولا تكن رمضانيًا.

كن ربانيًا: أي كن مع الله ربك في كل أوان, اتق الله حيثما كنت ... ولا تكن رمضانيًا: تصطلح على الله في رمضان، ثم تبارزه بالغفلة والمعصية بعد رمضان.

رب رمضان رب الشهور كلها.

صيام ستة من شوال وحكمته:

إن الإسلام شرع لنا بعد رمضان صيام ست من شوال, ليكون المسلم على موعد مع الله دومًا, يفرغ من عبادة ليدخل في عبادة, وتنقضي طاعة ليبدأ طاعة, ليضع يده دائمًا في يد الله: **«من صام رمضان, ثم أتبعه ستًا من شوال كان كصيام الدهر»**(336) أي: كأنما صام السنة كلها, صيام شهر - أي رمضان - بعشرة أشهر, وصيام ستة أيام بشهرين, الحسنة بعشر أمثالها, وبهذا كأنما صام السنة, فإذا حافظ على هذه الست بعد رمضان مباشرة, أو خلال شوال كله, فكأنما صام الدهر كله.

---

(336) من حديث أبي أيوب الذي رواه مسلم, وأبو داود, والترمذي, والنسائي, وابن ماجه, والطبراني، وزاد: قال: قلت: بكل يوم عشرة؟ قال: «**نعم**». ورواته رواة الصحيح كما قال المنذري والهيثمي. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (315/1) برقم (523).

أول عيد في قرن هجري جديد:

يا أيها الإخوة:

انقضى رمضان، وها نحن الآن نستقبل العيد، نستقبل عيدًا له معنى خاص، وله عنوان خاص، هذا أول عيد في قرن جديد، هذا هو العيد الأول في القرن الخامس عشر الهجري، أول عيد تستقبله أمتنا بعد أن قطعت في عمرها أربعة عشر قرنًا، منذ جاء الإسلام في المدينة وهاجر النبي عليه الصلاة والسلام، وقامت دولة الإسلام في المدينة.

قرون حافلة بالمحن والأمجاد:

أربعة عشر قرنًا انقضت على هذا الإسلام حقق فيها انتصارات وإنجازات هائلة، كما لقي فيها مصاعب ومحنًا قاتلة.

انتصارات الإسلام وإنجازاته:

حقق الإسلام انتصارات وإنجازات أشبه بالمستحيلات، لم يحققها دين غيره، ولا أمة غير أمته.

وحد العرب بعد فرقة وشتات، وهداهم من ضلالة، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، وجعل منهم خير أمة أخرجت للناس.

وانتصر على أميرا ... الفرس والرومان، وهما القوتان اللتان كانتا تتنازعان السيادة على العالم القديم، قوة الفرس في الشرق، وقوة الروم في الغرب، وقد ورثهما الإسلام وحملة رسالته، وأنفقوا كنوزهما في سبيل الله.

وصل الإسلام في أقل من قرن من الزمان إلى الصين شرقًا، وإلى

الأندلس في أسبانيا غربًا، وكاد يدخل فرنسا وأوربا الغربية لولا ما قدر الله في معركة «بواتيه».

كان الفتح الإسلامي فتح تمدين للبلاد، وإصلاح للعباد، ولم يكن كالفاتحين القدامى {... إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ...} [النمل: 34]، ولذا قال المؤرخون بحق: ما عرف التاريخ فاتحًا أعدل ولا أرحم من العرب، يعني: المسلمين.

لقد حكم المسلمون الناس بالعدل والإحسان، فشعر الناس بالأمان والاطمئنان، مسلمين وغير مسلمين، وأقام المسلمون حضارتهم المتميزة المتوازنة المتكاملة، التي جمعت بين العلم والإيمان، ومزجت بين الروح والمادة، وربطت الأرض بالسماء، ووفقت بين الإبداع المادي والسمو الروحي والأخلاقي، وكانت الأمة المسلمة هي الأمة الأولى، وحضارتها هي السائدة لعدة قرون في العالم كله.

محن ينتصر فيها الإسلام:

ومع هذه الانتصارات والإنجازات، فقد لقي الإسلام خلال تاريخه شدائد ومحنًا لو أصيب بها غيره لهلك وضاع، لقد لقي فيها الإسلام ما لقى، وقاسى فيها ما قاسى، ولكنه صبر وصابر، وصمد وثابت، على رغم قسوة الخطوب، التي أحاطت به في مختلف العصور، كان الناس يظنون بعدها أن الإسلام لن يرفع له علم، ولن يقوم له شأن، ولن تعلو له كلمة، ولكن الإسلام العظيم - بقوته الذاتية - تغلب على المحن كلها.

انتصار الإسلام على المرتدين:

في فجر الإسلام ارتد العرب وقالوا: إنما كنا نتبع محمدًا، ولا نتبع من بعده، وتبع بعضهم المتنبئين - أمثال: مسيلمة الكذاب، وسجاح بنت الحارث، والأسود العنسي، وغيرهم - عصبية لهم، حتى قال قائلهم: كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر!

وهناك من قوتلوا حينما أنكروا الزكاة، وقالوا: نؤدي الصلاة ولا نؤتي الزكاة، وأبى خليفة رسول الله أبو بكر إلا أن يقاتلهم، وقال: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعوني عناقًا - عنزًا صغيرة - أو عقال بعير، كانوا يؤدونه لرسول الله، لقاتلتهم عليه ما استمسك السيف بيدي، وجهز أحد عشر لواءً لمقاتلة المرتدين ومانعي الزكاة.

وكان هذا أول حاكم يعرفه التاريخ يعلن الحرب، ويجيش الجيوش، من أجل انتزاع حقوق الفقراء من براثن الأغنياء الأشحاء.

قبل أن تعرف الدنيا الاشتراكية والشيوعية والماركسية، قاتل الإسلام من أجل الفقراء، لم يطالب الفقراء بحقوق لهم، لم يعقدوا مؤتمرًا، لم يسيروا مظاهرة، ولكن الإسلام ضمن لهم حقوقهم التي قررها لهم ربهم في أموال الأغنياء: **{وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ 24 لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ}** [المعارج: 24، 25].

وانتصر الإسلام على المتنبئين، وانتصر الإسلام على مانعي الزكاة، وانتشر نور الإسلام من جديد، وأصبح كثير من الذين ارتدوا وقاتلوا الإسلام يقاتلون نصرًا للإسلام، ودفاعًا عن الإسلام، في فتوح فارس والروم.

انتصار الإسلام على التتار:

وجاءت حروب التتار، ودخلوا بغداد وحطموا الخلافة العباسية، وذبحوا المسلمين تذبيحًا، حتى كانت الميازيب - التي جعلت للأمطار فوق سطوح المنازل - تسيل دماء من دماء المسلمين، وحتى أصبحت هناك أسطورة القوة التي لا تقهر، فقد قال المثل السائر: إذا سمعت أن التتار قد انهزموا فلا تصدق!

وجاء من هزم التتار، وجاءت حملة خرجت من مصر بقيادة المظفر «قطز» في شهر رمضان من سنة (658هـ) - أي بعد سقوط بغداد بسنتين فقط - وكانت معركة «عين جالوت» التي دارت الدائرة فيها أول الأمر على المسلمين، فصاح السلطان قطز صيحته التاريخية المعروفة - وألقى بخوذته إلى الأرض - وقال: وا إسلاماه! وا إسلاماه! وإسلاماه! هناك أقبل المدبر، هناك ثبت المتردد، هناك تشجع الجبان، هناك هجم المسلمون كالأسود الكاسرة، وكانت الدائرة للمسلمين وعلى أعداء المسلمين، وانتصر المسلمون في عين جالوت على التتار، ولم تقم لهم قائمة.

انتصار الإسلام على الصليبيين:

وجاء الصليبيون بقضهم وقضيضهم،وثالوثهم وصليبهم، جاءوا يرفعون الصلبان من أوربا، باسم المسيح وقبر المسيح، والمسلمون في غفلة، متمزقون شذر مذر، لا رابطة ولا راية تجمعهم، الخلافة ممزقة.

في هذه الحالة استطاعوا أن يدخلوا أرض فلسطين ... أرض النبوات، وأن يستولوا على بيت المقدس، وأن يقيموا لهم أمارات وممالك ظلت نحو قرنين

من الزمان، حتى قيض الله رجالًا للإسلام أمثال: عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود الشهيد، وتلميذه القائد صلاح الدين الأيوبي.

قيض الله للإسلام أمثال هؤلاء الذين أبوا إلا أن ينصروا الإسلام، وأن يعيشوا للإسلام، وأن ينفخوا في الأمة الروح.

أبى صلاح الدين ومن قبله نور الدين محمود إلا أن ينفخوا في الأمة من روحها، وأن يعيدوا إليها حيويتها، بتجديد الإيمان فيها، وبصناعة السلاح.

وهكذا قامت المعاك بين المسلمين وبين الصليبيين، وانتصر الإسلام، انتصر المؤمنون، انتصر الصائمون القائمون.

كان صلاح الدين يمر على خيام جنود بالليل، فإذا رأى في الخيمة من يصلي ... من يقرأ القرآن ... من يسبح ... من يستغفر أو يذكر الله، قال: من هنا يأتي النصر، وإذا رأى أهل الخيمة جميعًا نيامًا ... يغطون في نوم عميق، قال: أخشى أن تأتي الهزيمة من هنا، من النائمين الغالفين.

بالصائمين القائمين المسبحين الذاكرين انتصر صلاح الدين، وكانت معركة حطين، وكان فتح بيت المقدس، بعد أن ظل تسعين عامًا في يد يالصليبيين.

انتصر الإسلام خلال القرون على أعدائه، رغم ما كان فيه من وهن ظاهري، ولكنها القوة الذاتية للإسلام تظهر ساعة الشدائد ... ساعة المحن، فيبدو أصلب عودًا، وأصفى جوهرًا، وأقوى شوكة، من كل ما يظن الظانون.

استعمار البلاد الإسلامية:

وفي العصر الحديث، في هذا القرن الذي انقضى وودعناه، في القرن الرابع عشر الهجري، ابتليت بلاد الإسلام بالاستعمار لم تنج إلا جزيرة العرب، أما بلاد المسلمين فتقسمتها دول الاستعمار فيما بينها، التهمتها التهامًا، جزأتها لقيمات وابتلعتها، الإنسان لا يستطيع أن يبتلع «كيلو» من اللحم في لقمة، أو رغيفًا كاملًا، ولكنه إذا قطعه تقطيعًا استطاع أن يأكله.

قطعت بلاد الإسلام وأكلت، وزعت بين انكلترا وفرنسا وإسبانيا وهولندا وغيرها، حتى هولندا التي كانت نحو خمسة ملايين في ذلك الوقت، كانت تحتل بلدًا إسلاميًا يبلغ سكانه أكثر من ثمانين مليونًا في ذلك الوقت وهو: إندونيسيا.

الاستعمار يحمل روحًا صليبية:

احتلت بلاد المسلمين، ودخلها الاستعمار، وهو في الظاهر يحمل اسم «الاستعمار» وفي الباطن يحمل روحًا صليبية حاقدة، لم يستطع القادة العسكريون أن يخفوها بما يخفيها السياسيون المداهنون.

لما دخل القائد العسكري البريطاني «اللنبي» سنة (1917م) إلى القدس، قال لكلمته المعروفة: اليوم انتهت الحروب الصليبية!

ولما دخل القائد العسكري الفرنسي إلى دمشق، ووصل إلى قبر القائد المسلم «صلاح الدين» وقف يقول بشماتة: ها قد عدنا يا صلاح الدين!

الاستعمار يلغي الشريعة ويفرض العلمانية:

إن من أهم الأحداث التي حدثت في القرن الرابع عشر هو «الاسعتمار»،

الاستعمار الذي دخل بلاد المسلمين وحكمها بغير ما أنزل الله، حكمها بغير شريعتها، طرد الشريعة الإسلامية. وأحل محلها القوانين الوضعية، لأول مرة في تاريخ المسلمين.

لم يكن يجرؤ حاكم مهما طغى وتجبر أن يلغي شريعة الإسلام في مجتمع المسلمين لم يستطع ذلك الحجاج الثقفي، ولم يستطع ذلك ظالم من الظلام، وقد يجور أو ينحرف في حكم من الأحكام، ولكن أن تعطل الشريعة ... أن يلغى حكم الله، هذا ما لم يحدث في تاريخ المسلمين إلا بعد دخول الاستعمار.

دخل الاستعمار وفرض العلمانية بالحديد والنار ... بقوة السلاح، على ديار المسلمين، علمانية في الحكم والسياسة، علمانية في القانون والتشريع، علمانية في التعليم والتربية، علمانية في الثقافة والتوجيه والإعلام، علمانية في مظاهر الحياة المختلفة، ومعنى العلمانية: فصل الدين عن الدولة وعن المجتمع وعن الحياة.

الإسلام غير النصرانية:

طبقوا هنا ما طبقوه من قبل في بلادهم، ولكن بلادنا غير بلادهم، الإسلام غير المسيحية، والمسجد غير الكنيسة وعلماء الدين غير رجال الكهنوت هناك.

إن الإسلام لم يقف ضد العلم كما فعلت الكنيسة في أوربا، ولم يقف مع الملوك ضد الشعوب، ولم يقف مع الأغنياء ضد الفقراء، لا، بل كان الإسلام مع العلم ... مع الشعوب ... مع الفقراء ... مع الفئات الضعيفة دائمًا ... مع العدل ... مع القسط بين الناس، فكيف ساغ أن يفعل هنا ما فعل هناك؟!

إن الشعوب هناك ثارت وقالت في صحاتها المدوية: اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس! دلالة على هذا التعاضد والتساند بين الكنيسة وبين الظلام من الملوك، أما الإسلام فليس الأمر كذلك.

وليس عندنا ما عند النصارى: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله، ليس عندنا قسمة الحياة، ولا تشطير الإنسان شطرين: شطر لله وشطر لقيصر، وقسم لله أو للدين، وقسم للدولة أو للدنيا، لا، عندنا: قيصر، وما لقيصر لله الواحد القهار، لله ما في السموات وما في الأرض، ولله من في السماوات ومن في الأرض.

الاستعمار صنع قادة على عينه:

ولكن الاستعمار حين فرض العلمانية، لم يفرضها بالحديد والنار، ثم يدع الأمور تجري في أعنتها، فلو فعل ذلك لنفض الناس أيديهم من العلمانية بعد قريب، ولكن الذي ينجح فيه هو: أنه استطاع أن يصنع على عينيه، ويربي على يديه، رجالًا من أبناء المسلمين، علمانيين كأسيادهم المستعمرين، يسيرون في خطته، وينهجون نهجه، ويتبنون أفكاره، ويعملون على تنفيذها بعد رحيله.

هكذا صنع الاستعمار.

صنع المدارس التبشيرية، والمؤسسات الأجنبية، وطبخ فيها من يريد طبخه، صنع الخواجات من أبناء المسلمين في ديار المسلمين، ولم يكتف بذلك، فمن لم تنضجه الطبخة في بلاده، أرسل إلى هناك ... على أوربا، ليتم إنضاجه، ويعود بأسماء المسلمين، ولكنه يحمل عقل الأوربيين.

هكذا صنعوا، ونجحوا فيما صنعوا.

ولم يكتفوا بذلك، فعلمنوا التعليم، علمنوا المدارس والجامعات، وجعلوا من بلاد المسلمين بلادًا أوربية الفكر والاتجاه.

القوة الذاتية في الإسلام تبرز المجاهدين المحررين:

وظنوا بعد ذلك أن قد طاب لهم المقام، ظنوا أنه قد تهيأت لهم السبل، وأن الأمر قد استقر لهم في بلاد المسلمين بعد الذي صنعوه.

وما دروا أن القوة الذاتية للإسلام كامنة كمون النار في الكبريت، كامنة كموت البركان تحت الرماد، وإذا بهم يرون هذه النار تشتعل من جديد في كل بلاد الإسلام، يحركها صوت الإسلام، تحركها كلمة: الله أكبر، يحركها الإيمان، تحركها كلمات: هبي يا رياح الجنة.

ظهر المجاهدون، والراغبون فيما عند الله من الشهادة وفي سائر بلاد الإسلام، وظهرت حركات وثورات جهادية في كل البلاد تقاوم الاستعمار، تقاتل وتجاهد وتدافع، حتى استطاع المسلمون أن يحرروا بلادهم من الاستعمار العسكري، ورحلت عساكر الاستعمار من بلاد المسلمين، ولكن آثار الاستعمار بقيت للأسف.

المجاهدون يزرعون والعلمانيون يحصدون:

إن الثورات التي قامت باسم الإسلام، وتحركت بدوافع الإيمان وأحلام الجنة، قد سرقها العلمانيون، سرقها اللادينيون، هناك أناس مدربون على سرقات الحركات الشعبية والثورات الجهادية، قوم يغرسون ويتعبون ويرعون ويتعهدون، وآخرون يقطفون الثمرة.

المتدينون يزرعون، والعلمانيون يحصدون!

في تركيا وأندونيسيا والجزائر:

في تركيا: قام الشعب التركي باسم الإسلام وراء مصطفى كمال الذي كانوا يسمونه: الغازي مصطفى كمال، وظن الناس أنه يحارب عن الإسلام وباسم الإسلام، ولما انتصر قام المسلمون في كل مكان يحتفلون ويقيمون الأفراح، ويقول الشاعر شوقي في ذلك الوقت:

الله أكبر كم في الفتح من   يا خالد الترك جدد خالد

كانوا يظنون إنه خالد الترك ... خالد الجديد، بدل خالد بن الوليد.

وإذا به إنسان دونمي، من يهود الدونمة، إذا بهذا الإنسان يضع في صدر الإسلام خنجرًا مسمومًا، ويعلن أنه ضد الإسلام، يحارب الإسلام في تشريعه، وفي توجيهه، وفي تعليمه، حتى اللغة التركية كانت تكتب بالحروف العربية، فأبى إلا أن تكتب باللاتينية، حتى الأذان حرم على الأتراك أن يؤذنوا بالعربية ... ألا يقولوا: الله أكبر، وظل ذلك إلى عهد قريب، على عهد «عدنان مندريس» الذي أعاد الأذان بالعربية.

وهكذا في كثير من البلاد سرقت الثورات الإسلامية.

ثورة أندونيسيا التي قامت باسم الإسلام، سرقها العلمانيون، ثورة المليون شهيد في الجزائر قامت باسم الإسلام، كان الصوت الذي حركها هو صوت «جمعية العلماء» المسلمين، صوت الشيخ عبد الحميد بن باديس، وهو ينشئ المدارس القرآنية، ويعلم الجزائريين ويحفظهم نشيده المعروف:

شعب الجزائر مسلم   وإلى العروبة ينتسب

مــن قـــال حـــاد عـــن أصـــله أو قـــال مـــات فقـــد كـــذب

كانوا يريدون «فرنسة» الشعب الجزائري، فرنسة لغته وتعليمه وحياته كلها، ولكن الإسلام هو الذي قاوم، كانت جهود ابن باديس، والإبراهيمي، والتبسي، وإخوانهم، هي البذور التي نبتت منها الثورة.

فأين هذه الثورة الآن؟؟

الثورات قامت في كل مكان يساندها المسلمون، ويغذونها بدمائهم، ولكن يسرقها العلمانيون.

كان هذا مما حدث في هذا القرن.

الاستقلال والهدف منه:

استقلت بلاد المسلمين، ولكن ما قيمة الاستقلال؟ لماذا تستقل الأمم؟ لماذا تستقل الشعوب؟

إن الاستقلال ليس غاية في ذاته، إن الأمم لا تعيش لمجرد أن تستقل، ولكنها تستقل لتعيش، وإنما تعيش لرسالة، الأمة التي تعيش لرسالتها هي المنتصرة حقًا، أما إذا عاشت لغير رسالتها فلن تنتصر.

متى تكون الأمة الإسلامية منتصرة حقًا؟

إذا حققت ذاتها، إذا حققت وجودها، وإنما تحقق ذاتها بالإسلام، إنما تحقق وجودها بقيام دولة الإسلام، التي تقوم على عقيدة الإسلام، وعلى تشريع الإسلام، وتربية الإسلام، وتوجيه الإسلام، وحياة الإسلام.

فهل حدث هذا في بلاد المسلمين؟

أين دولة الإسلام؟ أين الدولة التي تتبنى الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقًا ومنهاج حياة؟

عن بلاد المسلمين إذا قامت فيها دولة رأسمالية ديمقراطية بعد استقلالها، فهل تعد بهذا قد انتصرت؟ لا والله، إن الذي انتصر إنما هو المعسكر الغربي.

وإذا قامت في بلاد المسلمين بعد استقلالها دولة اشتراكية ماركسية فما انتصر الإسلام، وإنما انتصر المعسكر الاشتراكي.

إنما ينتصر الإسلام حين تقوم في أرض الإسلام دولة الإسلام، التي ترتفع فيها راية القرآن، حينما تحل حلال الله، وتحرم حرامه، حينما يكون للمسلمين في بلادهم كيان، حينما يعيش المسلمون أعزاء، لا يقتلون في مساجدهم بإطلاق النار، حينما يعيش المسلمون موفوري الكرامة، مرفوعي الرؤوس!

أما إذا ظل المسلمون يعيشون في بلادهم غرباء، ويعيش الإسلام غريبًا في دياره، مخذولًا بين أنصاره، فليست هذه هي البلاد المستقلة التي انتصر فيها الإسلام.

ماذا يُراد للمسلمين؟

يُراد للمسلمين دائمًا أن يختفوا، ويراد لإسلامهم أن يضع رأسه في الرمال كالنعامة.

يقال للمسلمين إذا كانوا أقلية: ليس لكم حق في أن تحكموا بإسلامكم، فإنكم أقلية والأقلية تتبع الأكثرية بحكم الديمقراطية! وإذا كان المسلمون في بلادهم أكثرية قيل لهم: الغو شخصيتكم باسم الوحدة الوطنية، اتركوا إسلامكم باسم التسامح!!

هل التسامح أن نخفض رؤوسنا؟!

هل التسامح ألا نعيش بإسلامنا ولإسلامنا؟!

هل التسامح ألا نحكم بشرعتنا؟!

هل التسامح أن نُذيب الفوارق بين الأديان بعضها وبعض بهذا النفاق السياسي والاجتماعي؟!

لا، ليس هذا من التسامح في شيء.

في هذا القرن حدثت أحداث، إنه قرن الاستعمار والكفاح في مقاومة الاستعمار، القرن الذي حرر المسلمون بدمائهم بلادهم من الاستعمار، ولكن بقيت فيها إلى اليوم آثار الاستعمار، وقوانين الاستعمار، وأفكار الاستعمار.

هذا من ملامح هذا القرن.

إلغاء الخلافة:

من ملامح هذا القرن، بل من كوارث هذا القرن: ما صنعه «كمال أتاتورك» حينما تحكم في تركيا المسلمة، أنه ألغى الخلافة الإسلامية[337]، آخر مظهر لتجمع المسلمين تحت راية العقيدة، تحت راية «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، على ما كان به من ضعف، وعلى ما كان بالخلافة العثمانية من عيوب، فقد كانت تمثل الوحدة الإسلامية، كانت تمثل «بُعْبُعًا» يخيف بلاد الاستعمار - ودول الصليبيين.

ولذلك تآمروا عليها، كانوا يسمونها «الرجل المريض»، ولا بد من اقتسام

(337) كان ذلك في عام 1924م.

تركة «الرجل المريض»، وما زالوا بهذا الكيد حتى وجدوا من أبناء المسلمين أو من ينتسب إلى المسلمين من يحقق قول أولئك المبشرين العتاة الذين قالوا: لا يقطع الشجرة إلا واحد من أبنائها! هكذا صنعوا، وتجرأ ذلك الجبان الملحد العلماني اللاديني - كمال أتاتورك - أن يلغي الخلافة الإسلامية، وأصبح المسلمون لأول مرة في التاريخ بلا خلافة، بلا إمام يجمعهم ويقول: هبوا للجهاد، أو هيّا لنصرة الإسلام.

نحن المسلمين الآن نحتاج إلى من يجمع الناس، ومن يقول للناس: هيا جاهدوا، فلا نستطيع.

تآمر اليهود، وكانوا من وراء إسقاط الخلافة العثمانية.

حاول اليهود أن يشتروا هذه الخلافة، حاولوا مع السلطان عبد الحميد أن يضعوا في جيبه ملايين الليرات الذهبية في مقابل أن يقطعهم بعض الإقطاعات في فلسطين، ولكنه أبى، فكاد اليهود كيدهم، حتى كان الذي سلمه صك إسقاط الخلافة هو الذي عرض عليه شراء أرض من فلسطين بالملايين!

سقطت الخلافة بكيد الكائدين، ومكر الماكرين، وكان هذا من الكوارث الكبرى في تاريخ الأمة.

الآن أصبح المسلمون وليس لهم راية، أصبحوا ممزقين الآن كما ترون في ظل الدولة القُطرية.

يقولون: الكتلة الإسلامية، واين هي الكتلة الإسلامية؟! وهل هي كتلة فعلًا؟!

أين التضامن الإسلامي؟

كانوا يسعن إلى «الوحدة الإسلامية» أو «الجامعة الإسلامية»، ثم هبطوا، فسموه: «التضامن الإسلامي»، فأين هو التضامن الإسلامي، والمسلمون يحارب بعضهم بعضا؟!

ما رأينا حربًا أشد ضراوة من حرب العراق وإيران، ما رأينا تلك الجيوش قاتلت في فلسطين مثل هذا القتال.

الله وصف المؤمنين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: **{... أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ ...}** [الفتح: 29]، ولكن المسلمين الآن: أشداء على أنفسهم رحماء بغيرهم! وصف الله اليهود بقوله: **{... بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ}** [الحشر: 14]، كأن هذه الأوصاف تنطبق على المسلمين عامة، وعلى العرب خاصة.

«ذلك بأنهم قوم لا يعقلون»: لو كانوا يعقلون، لعلموا أنه في ساعة الشدائد يجب أن تنسى الخصومات، وتنسى كل الخلافات الجانبية، وأن يقف الجميع صفًا واحدًا في مواجهة العدو الواحد، وصدق الله العظيم إذا يقول: **{إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ}** [الصف: 4].

أين الصف الواحد؟ أين البنيان المتراص؟

لا نرى إلا تفرقًا وتمزقًا.

ولا بد من هذا التفرق والتمزق، ما دام لا يوجد هناك حبل واحد يعتصم به، ليس هناك منهج واحد يتبع، هناك مناهج، وهناك طرق شتى: هذا يسلط سبيل الاشتراكية، وهذا يسلك سبيل الرأسمالية، وهذا يسلك سبيل

الديمقراطية، وهذا يسلك سبيل الدكتاتورية العسكرية، وهذا ... وهذا ... فكيف يلتقون؟!

روى ابن مسعود رضي الله عنه قال[338]: خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطًا «كان يعلمهم بوسائل الإيضاح، ووسائل الإيضاح المتوافرة في ذلك الوقت: الرمل، يرسم ويخط فيه» ثم قال: «**هذا سبيل الله** «هذا صراط الله المستقيم»»، ثم خط خطوطًا عن يمينه وعن شماله «متعرجة وملتوية» وقال: «**هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، وقرأ: {وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ}** [الأنعام: 153]».

المسلمون الآن انقسموا، ما داموا قد تركوا الإسلام فقد اتجه بعضهم إلى اليمين واتجه بعضهم إلى اليسار، واليمين درجات واليسار درجات، هناك يمين اليمين ووسط اليمين ويسار اليمين، وهناك يسار اليسار ووسط اليسار ويمين اليسار، وبين هذه وتلك درجات ودرجات، وهناك الموالي لموسكو، والموالي لبكين، والموالي لبغراد، والموالي لواشنطن، والموالي للندن، والموالي لباريس.

تركوا القبلة الواحدة، فصاروا إلى قبلات مختلفة، وتركوا المنهج الواحد فتفرقت سبلهم: **{...وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ}** [الأنعام: 153].

تمزق المسلمون ولم يعد لهم خلافة تجمعهم، وهذا من شر ما حدث في هذا

---

(338) إسناده حسن، أخرجه الإمام أحمد، والطبري، والحاكم وصححه، وأقره الذهبي «شرح السنة» للبغوي بتحقيق الشاويش والأرناؤوط (196/2، 197) برقم (97).

القرن.

قيام إسرائيل:

ومن شر ما حدث في هذا القرن بعد الاستعمار، وبعد سقوط الخلافة، وتمزيق الأمة الإسلامية، حدث خطير لم يكن أحد يتوقعه، إنه: قيام إسرائيل، قيام دولة لليهود، بعد أن تمزقوا في الأرض، وقطعهم الله فيها أممًا، قام لهم كيان، وقامت لهم دولة، وأين؟ في قلب بلاد العروبة والإسلام، في أرض النبوات والمقدسات، الأرض التي بارك الله فيها للعالمين.

حول المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، قامت لليهود دولة، ظللنا سنوات ونحن نطلق عليها - في الصحف والمجلات والإذاعات - اسم: «إسرائيل المزعومة».

ولكن هذه «المزعومة» ظلت تناوش وتضرب وتلطم وتؤدب وتعاقب هذه الجبهة وتلك، حتى أوشكنا أن نكون نحن «المزعومين»، فتركنا كلمة «المزعومة» واستحيينا من أنفسنا.

من كان يظن أن اليهود الذين عاشوا في ذمة المسلمين، وتحت سلطانهم، وفي كنف أمانهم - بعد أن كانوا يذلون ويقهرون في أنحاء العالم، ولا يجدون صدرًا حنونًا إلا في قلب بلاد الإسلام - أنهم يقلبون للمسلمين ظهر المجن ويديرون عليهم الدوائر، وينقلبون عليهم.

وهكذا صنعوا، واستنسر البغاث، وتذأبت النعاج، وأصبح اليهود يقتلون المسلمين، ويذبحون المسلمين، وأصبح اسمهم: القوة التي لا تقهر.

هذه - أيها الإخوة - أهم أحداث هذا القرن المنصرم.

ظهور الحركات التجديدية الإسلامية:

وأحب أن أقول هنا شيئًا مهمًا: إن هذا القرن المنصرم - أيضًا - قد تميز بحركات إسلامية، قام بها مجددون أصلاء في أنحاء الديار الإسلامية، فاستطاعوا أن يحيوا الأمة من موات، وأن يجمعوها من شتات، وأن ينادي مناديهم في المسلمين، أن يتهيأوا من جديد لمعركة المستقبل، وأن يجعلوا الإسلام مرجعهم ومحور حركتهم، وأساس نهضتهم.

فقامت جماعات وحركات إسلامية تجدد الإسلام، تجمع المسلمين على «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، وترفع راية التوحيد من جديد.

بروز الصحوة الإسلامية المعاصرة:

ونحن الآن نشهد ثمار هذه الحركات في هذه الصحوة ... الصحوة الإسلامية، المتمثلة في هذه الحركات وفي هذه الجماعات الإسلامية، جماعات الشباب الإسلامي التي انطلقت في كل مكان من بلاد الإسلام.

زرت الشرق والغرب فوجدت - فيما وجدت - هذه الصحوة المباركة.

صحيح أني وجدت مآسي ومشكلات في كل بلد إسلامي حكمه الاستعمار، ولكن - بجوار - هذا - وجدت الصحوة الإسلامية.

في «ماليزيا» التي كانت تسمى قديمًا «الملايو»: كان الملاويون في العادة مسلمين، فإذا بالمكايد تعمل عملها، وتدبر تدبيرها، فأدخل الإنجليز المستعمرون عليهم مهاجرين من الصينيين الذين يسمونهم «يهود الشرق الأقصى»، وقد تكاثروا وازدادوا قوة بمساندة الإنجليز، وها هم - بعد رحيل الإنجليز - يتسلطون على رقاب أهل ماليزيا، ويستولون على اقتصادها،

ويكونون عددًا ضخمًا نحو الثلث، ثم يستولون على «سنغافورة» ويقتطعونها من ماليزيا، ثم يستولون على العواصم مثل «كوالمبور»، بحيث تجد أكثر من (80%) من الثروات في يد هؤلاء ... يهود الشرق الأقصى.

ولكن مع هذا هناك الصحوة الإسلامية، هناك حركة الشباب الإسلامي «أبيم». في كل مكان نجد صحوة إسلامية.

بل وجدت هذه الصحوة وراء البحار، في أوربا، في أمريكا، وجدت هؤلاء الشباب الصوامين القوامين، الذين يصومون الاثنين والخميس، ويستغفرون بالأسحار، ويصلون الفجر في المساجد.

وجدت هؤلاء الفتيات اللآتي آلين إلا الحجاب، إلا أن يأتمرن بأمر الله، وينتهين عن نهي الله، ويتحدين المجتمعات، بل يتحدين الأسر أحيانًا والآباء والأمهات.

هؤلاء الفتيات أصبحن بالألوف، ومئات الألوف، في كل بلد إسلامي.

كنا نسير في الستينات في بلد مثل «القاهرة» هذه، فلا نكاد نرى فتاة محجبة، حتى العجوز الشمطاء التي أكل الدهر عليها وشرب، كانت تمشي بما يسمى «الجابونيز» أو نحو ذلك.

الآن سر في الشوارع، سترى هذه الظاهرة، أدخل الجامعات والمدارس، سترى ظاهرة الفتيات المحجبات.

الحمد لله، صحوة إسلامية في كل مكان، علم الإسلام يرتفع، صوت الإسلام يدوي.

وقد ساعد على ظهور هذه الصحوة وقوتها: إخفاق «الحلول المستوردة» من الشرق والغرب، من اليمين ومن اليسار، فهي لم تحقق للأمة هدفًا كانت تصبو إليه: لا نصرًا عسكريًا، ولا رخاء اقتصاديًا، ولا استقرارًا سياسيًا، ولا تماسكًا اجتماعيًا، ولا انضباطًا أخلاقيًا. بل فشلت فشلًا ذريعًا في كل هذه الميادين.

واجبنا حراسة الصحوة من كيد أعدائها:

هذه الصحوة - أيها الإخوة - يجب أن نحافظ عليها، نحافظ عليها ونحرسها من أعدائها ... من خصومها، حتى لا يضربوها من داخلها، حتى لا يغزوها من الداخل بواسطة المخربين ... بواسطة العابثين.

يجب أن نحافظ على هذه التجمعات الإسلامية، ونسير بالحكمة، وندعو بالموعظة الحسنة، ونجادل بالتي هي أحسن، لا بالتي هي أخشن.

المحافظة على الصحوة من أبنائها أنفسهم:

ويجب أن نحافظ على هذه الصحوة الإسلامية من ناحية أخرى: من ناحية أبنائها أنفسهم.

أريد من شباب الإسلام أن يقلعوا عن التوافه، ألا يشغلوا شباب هذه الأمة بالخلافة الجانبية والمعارك الجزئية عن المعارك المصيرية الكبرى، وألا تشغلهم الفروع عن الأصول، ولا الجزئيات عن الكليات، ولا الشكل عن الجوهر، ولا الأطراف عن القلب، ولا المختلف فيه عن المتفق عليه.

بل يجب عليهم أن يركزوا انتباههم على الأمة الإسلامية ومعاركها ومآسيها وقضاياها الكبرى، وما تتعرض له من فتن، ومؤامرات تهدف إلى

إبادتها معنويًا، إن لم تمكن إبادتها ماديًا وجسديًا.

إخواننا في أفغانستان يقاتلون، إخواننا في سوريا يذبحون، بالمئات ... بالآلاف، يأتي الطغاة الباطنيون النصرية - الذين قال علماء المسلمين عنهم: إنهم أشد كفرًا من اليهود والنصارى - فيقتلون المسلمين السنيين، جهارًا نهارًا، عيانًا بيانًا، يؤتي بالابن ليقتل أمام أبيه، وبالأب ليقتل أمام بنيه، وبالمرأة لتقتل أمام زوجها، وبالزوج ليذبح أمام زوجته، وهكذا، قتل في حماة - من بعض الأسر - تسعة أشخاص من أسرة واحدة، هدمت المساجد في سوريا، وضربت بالقنابل.

هل هناك من رفع صوتًا؟ أو من حرك ساكنا؟

هناك تعتيم إعلامي من بلاد العرب.

بل هناك بلاد عربية إسلامية لها مكانتها عند المسلمين، تسند هؤلاء صراحة، وتمدهم بالملايين بل بالملايير!

مليارات الدولارات تدفع لهؤلاء الباطنيين إتاوة أو جزية عن يد وهم صاغرون، لكي يبقى نظامهم الجائر، ولكي لا يقوم للإسلام علم في هذه الديار.

هذا ما يحدث في بلاد العرب والمسلمين.

إخوانكم يقاتلون من سنوات في الفلبين، والعرب المسلمون يؤيدون «ماركوس» ويصادقونه، ويعتقدون معه الصدقات، ويمدونه بالبترول، والمسلمون يصرخون ولا من مصرخ، ولا من مغيث.

إخوانكم في أريتريا، إخوانكم في تشاد، إخوانكم في الصومال، إخوانكم في كل مكان.

المسلمون أصبحوا أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، ولا يملكون إلا أن يشكوا لمجلس الأمن ... للأمم المتحدة ورحم الله القائل الذي قال:

في كل محكمة قضية مسلم   يشكو بليته لغير المسلم

عضوا على إسلامكم بالنواجذ:

يا أيها الإخوة ... يا شباب الإسلام:

عضوا على إسلامكم بالنواجذ، كونوا يدًا واحدة، تفقهوا في الإسلام، اعرفوا الإسلام من أصوله ... من مصادره الحقيقية، تتلمذوا على علماء الإسلام الثقات، اعرفوا الكتب الإسلامية الأصلية، ارجعوا إلى المصادر، افهموا الإسلام فهمًا شموليًا.

الإسلام ليس في المسجد فقط، الإسلام ليس عبادة فقط، الإسلام ليس عقيدة فقط، الإسلام ليس أخلاقًا فقط.

الإسلام عقيدة وتوحيد، وعبادة وصلاة، وهو كذلك أخلاق وآداب، ومعاملة وتشريع، ونظام حياة.

الإسلام رسالة تشمل الزمن كله، وتشمل العالم كله، وتشمل الإنسان كله، وتستوعب الحياة كلها، وصدق الله العظيم: **{... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ}** [النحل: 89].

الاستبشار بمستقبل الإسلام:

إننا نستبشر بمستقبل الإسلام، إننا نعتقد أن بعد الليل فجرًا، وأن مع العسر يسرًا، وأن هذا الإسلام سينتصر، وأن الله تعالى يقول: {**هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ**} [التوبة: 33، الصف: 9](339).

إن الإسلام سينتصر إن شاء الله، وقد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**ليبلغن هذا الأمر** «يعني: أمر هذا الدين» **ما بلغ الليل والنهار** «أي: ليعمن الكرة الأرضية كلها» **ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر** «أي: في بادية أو حضر» **إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز، أو بذل ذليل، عزًّا يعز الله به الإسلام، وذلًا يذل الله به الكفر**»(340).

إنما النصر بالمؤمنين:

ولكن - أيها الإخوة - جرت سنة الله: إنه لا ينصر الرسالات إلا بأهلها، إن الله تعالى خاطب رسوله بقوله: {**... هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ 62 وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ**} [الأنفال: 62، 63].

نريد المؤمنين المؤتلفين، فاتلفوا على الإسلام، ترابطوا على الإسلام، ققوا

---

(339) وفي الآية (48) من سورة «الفتح»: {**هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا**}.

(340) رواه أحمد في «مسند»ه، وأورده الهيثمي في «المجمع»، وقال: رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد رجال الصحيح. انظر: «المبشرات بانتصار الإسلام» للقرضاوي (ص27)، ط. مكتبة وهبة بالقاهرة.

صفًّا واحدًا وراء الإسلام.

مهما قالوا إنكم متعصبون، تعصبوا لإسلامكم، نحن في حاجة إلى شيء من التعصب، إذا سمي الاستمساك بالحق والاعتزاز بالدين تعصبًا، فنحن أول المتعصبين: **{فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ}** [النمل: 79]، **{فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ}** [الزخرف: 43].

إذا سمي هذا التوكل وهذا الاستمساك وهذا الاعتزال تعصبًا، فلنتعصب، وإلا أكلنا، وإلا ضعنا في بلاد دينها الإسلام، في بلاد أكثريتها المسلمون.

آن للمسلمين أن يثبتوا وجودهم، وأن يعرفوا حقيقتهم، وأن يميزوا صديقهم من عدوهم، وأن ينظموا أنفسهم، وأن يتراصوا وراء الحق: **{إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ}** [الصف: 4].

إذا لم يفعل المسلمون ذلك، فإن العاقبة وخيمة، وإن الشر ينتظرهم، والقرآن قد حذرهم بقوله: **{وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ}** [الأنفال: 73].

الكفار بعضهم أولياء بعض، والكفر كله ملة واحدة، ولذلك نرى الشيوعيين، والرأسماليين، واليمينيين واليساريين، يتفقون فيما بينهم إذا كان العدو هو الإسلام، وإذا كان الهدف هو ضرب المسلمين.

فإذا لم نفعل ذلك، ولم يوال بعضنا بعضا، ويتكتل بعضنا مع بعض، ويساند بعضنا بعضا **{تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ}**.

لا حياة بغير الإسلام:

أيها الإخوة: هذه خواطر في يوم العيد، أول عيد في القرن الخامس عشر الهجري.

آن لنا أن ننفض غبار النوم، آن لنا أن نعرف أنفسنا، آن لنا أن نكتشف ذاتيًا، نحن مسلمون قبل كل شيء، نحن بالإسلام كل شيء، وبغير الإسلام لا شيء.

نحن لا نريد اعتداء على أحد، وإنما نريد أن نعيش مسلمين ونموت مسلمين، ولا نريد لأحد أن يمنعنا من هذه الحقيقة.

لا نقبل من أحد أبدًا أن يقول لنا: عيشوا بغير الإسلام، لا نقبل هذا من حاكم، ولا نقبل هذا من محكوم، ولا نقبل هذا من أحد في الداخل أو في الخارج.

إننا مسلمون، نعتز برسالة الإسلام، نعيش بها، ونعيش لها، ونموت عليها، ونعلنها على الملأ: **{وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ}** [فصلت: 33]، **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ}** [آل عمران: 102].

أيها الإخوة: إني داع فأمنوا:

اللهم أكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا.

اللهم اجعل كلمة الإسلام هي العليا، واجعل كلمة أعداء الإسلام هي

السفلى.

اللهم عليك بأعدائك أعداء الإسلام، اللهم إنا ندرأ بك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم، اللهم رد عنا كيدهم، وفل حدهم، وأدل دولتهم، وأذهب عن أرضك سلطانهم، ولا تدع لهم سبيلًا على أحد من عبادك المؤمنين.

اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر، والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين.

اللهم تقبلنا في جندك الصادقين، وحزبك الغالبين، وادخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

اللهم أعل بنا كلمة الإسلام، وارفع بنا راية القرآن.

اللهم أيد إخواننا المجاهدين في أفغانستان، وأيد إخواننا المجاهدين في لبنان، وأيد إخواننا المجاهدين في سوريا، وأيد إخواننا المجاهدين في اريتريا، وأيد إخواننا المجاهدين في الصومال، وأيد إخواننا المجاهدين في الفلبين، وأيد إخواننا المجاهدين في بلاد الإسلام حيثما كانوا.

اللهم أيدهم بملأ من جندك، اللهم أمدهم بروح من عندك، اللهم احرسهم بعينك التي لا تنام، واكلأهم في كنفك الذي لا يضام.

{... رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ} [آل عمران: 147].

{... رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ} [الحشر: 10].

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه.

وتقبل الله منا ومنكم، وكل عام وأنتم بخير.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

20- خطبة عيد الأضحى

ألقيت في الأستاد الرياضي بالإسكندرية سنة 1407هـ

الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر، الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر، الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر، لاإله إلا الله، الله أكبر. الله أكبر. ولله الحمد.

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خصنا بخير كتاب أنزل، وأكرمنا بخير نبي أرسل، وأتم علينا النعمة بأعظم دين شرع، دين الإسلام: **{ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ...}** [المائدة: 3]، **{وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ}** [آل عمران: 85].

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح للأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وتركنا على المحجة البيضاء ... على الطريقة الواضحة الغراء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، فمن يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فلا يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئًا: **{إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَا ...}** [الإسراء: 7]، **{... وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ}** [النمل: 40].

اللهم صل وسلم وبارك على هذا النبي الكريم، وعلى آله وصحابته، وأحينا اللهم على سنته، وأمتنا على ملته، واحشرنا في زمرته، مع الذين

أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

فهذا يوم العيد، عيد الأضحى، هذا يوم الحج الأكبر، يوم المؤتمر العظيم، الذي يقف فيه المسلمون محرمين متجردين لله تعالى، ملبين مهللين: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

يوم الحج الأكبر، هذا هو العيد الثاني للمسلمين.

وللمسلمين عيدان لا عيد بعدهما، ربط الله كلًّا منهما بعبادة من عباداته الكبرى، وبشعيرة من شعائر الإسلام العظمى.

العيد الأول يأتي بعد عبادة الصوم، تأتي فرحة الفطر، و«**للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه**»(341). إنه يفرح كل يوم عند الإفطار بما وفقه الله إليه من طاعة، ثم يفرح الفرحة الكبرى في الدنيا حينما يتم صيام الشهر، فتأتي فرحة العيد.

وأما العيد الثاني فيأتي بعد عبادة الحج، بعد أن يؤدي الناس هذه الفريضة، أو هذه الشعيرة، بعد أن يقفوا في عرفات، بعد أن خرجوا من أوطانهم وغادروا أهليهم وأحباءهم مهاجرين إلى الله تعالى .

فكأن العيد هنا وهناك، في الفطر وفي الأضحى: جائزة أو مكافأة من الله

---

(341) مر تخريجه في صفحة (277).

تعالى لعباده، كأنه منحة ربانية لهم، على ما أدوه من إحسان فريضة الصيام وإحسان فريضة الحج.

المعنى الرباني والمعنى الإنساني في أعياد الإسلام:

هذه هي الأعياد عندنا نحن المسلمين، يتجلى فيها المعنى الرباني كما يتجلى فيها المعنى الإنساني.

يتجلى فيها المعنى الرباني بربطها بعبادات الإسلام، ويتجلى فيها هذا المعنى أيضًا: إن العيد عيد صلاة وتكبير.

عرف الناس بعض الأعياد: انطلاقًا للشهوات، وركضًا وراء الملذات، ولكن عيدنا نحن المسلمين يبدأ بالتكبير ... يبدأ بالصلاة، يوم العيد يوم صلاة لله تعالى قبل كل شيء.

هذه أعيادنا نحن المسلمين، نكبر الله ونصلي له، لا نهتف باسم مخلوق وإنما نهتف باسم الله وحده، إذا هتف الناس باسم المخلوقين - صغروا أم كبروا - فالمسلمون في أعيادهم يقولون: الله أكبر الله أكبر.

هذا هو زينة الأعياد: «**زينوا أعيادكم بالتكبير**»(342).

الله أكبر الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر ولله الحمد.

---

(342) رواه الطبراني في «الصغير» عن أنس، ورمز له السيوطي بالحسن «الجامع الصغير» (28/2)، وفي نسخة: عن أبي هريرة، وفي سنده عمر بن راشد وقد ضعفه أحمد وابن معين والنسائي، وفيه بقية وقد رمي بالتدليس، قال ابن حجر: وعمر ضعيف ولا بأس بالباقين وبقية وإن كان مدلسًا فقد صرح بالتحديث، ينظر: «فيض القدير» للمناوي (68/4 - 69) برقم (4578).

في عيد الفطر قال الله تعالى في ختام آية الصيام: **{... وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ}** [البقرة: 185]، وفي عيد الأضحى شرع لنا النبي صلى الله عليه وسلم التكبير عقب الصلوات منذ فجر يوم عرفة إلى عصر آخر أيام التشريق «ثلاث وعشرين صلاة».

في ثلاث وعشرين صلاة يكبر المسلم كلما أدى الصلاة: الله أكبر الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر ولله الحمد.

هكذا يتجلى في أعيادنا نحن الأمة الإسلامية المعنيان الكبيران:

المعنى الرباني: فالعيد مرتبط بهذه المعاني الإيمانية.

المعنى الإنساني: ألا ينسى الإنسان أخاه، ألا يفرح وحده، ألا يكون أنانيًا.

فرض زكاة الفطر في عيد الفطر:

هنا شرع الإسلام في عيد الفطر: زكاة الفطر، صدقة الفطر فرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصغير والكبير والذكر والأنثى والحر والعبد من المسلمين، فرضها صاعًا من طعام(343)، طهرة للصائم من اللغو والرفث، وطعمة للمساكين(344)، وإغناء لذوي الحاجة عن السؤال والطواف

---

(343) في الحديث المتفق عليه عن ابن عمر قال: «**فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر صاعًا من تمر، أو صاعًا من شعير على الحر والعبد، والذكر والأنثى، والصغير والكبير من المسلمين، وأمرنا أن تؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة**»، ينظر: «شرح السنة» للبغوي (71/6) برقم (1594).

(344) هذان الهدفان الأساسيان لزكاة الفطر حددهما ابن عباس رضي الله عنهب في حديثه الذي رواه أبو داود وسكت عليه هو والمنذري، ورواه ابن ماجه، والحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري ووافقه الذهبي، ونصه: «**فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث، وطعمة للمساكين، فمن أداها قبل الصلاة**

في هذا اليوم(345).

ليس من الإسلام أن تأكل ملء بطنك، وتضحك ملء سنك، وتنام ملء جفنك، وتجمع على موائدك ما لذ وطاب من الطعام والشراب، وبجوارك أناس لا يجدون ما يمسك الرمق أو يطفئ الحرق، من يئن من الجوع أنين الملسوع، ولا يجد شيئًا يقدم إليه.

لئن جاز هذا في أي وقت - وهو غير جائز - لا يجوز في أيام الفرحة ... في أيام العيد، لهذا شرع الإسلام في عيد الفطر زكاة الفطر، إسعافًا للفقراء وإغناء لهم.

الأضحية في عيد الأضحى:

وشرع في عيد الأضحى الأضحية، جعلها سنة من سننه، بل رآها الإمام أبو حنيفة واجبًا من الواجبات على أهل القدرة واليسار.

يضحي المسلم ليوسع على نفسه وأهله، وليوسع على جيرانه وأحبابه، ثم ليوسع بعد ذلك على الفقراء من حوله، فلا عاش من يأكل وحده.

لا يجوز للناس أن يعيشوا في دائرة مغلقة على أنفسهم، وإنما ينبغي أن

فهي زكاة مقبولة، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات»، ينظر: «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (331/1) برقم (571)، وينظر أيضًا: «فقه الزكاة» (921/2 - 922) ط. مؤسسة الرسالة ببيروت، كلاهما للشيخ القرضاوي.

(345) كما في حديث ابن عمر الذي رواه ابن عدي والدارقطني: «**أغنوهم عن الطواف في هذا اليوم**»، ينظر: «سبل السلام» باب صدقة الفطر، وأخرج البيهقي والدارقطني عن ابن عمر قال: فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر وقال: «**اغنوهم في هذا اليوم**»، وفي رواية البيهقي: «**اغنوهم عن طواف هذا اليوم**»، وأخرجه أيضًا ابن سعد في «الطبقات» من حديث عائشة وأبي سعيد «نيل الأوطار» باب زكاة الفطر.

يبحثوا عن أهل الفقر والحاجة، وخصوصًا في أيام الأعياد ومواسم الخيرات.

قرر هذا الإسلام قبل أن تعرف الدنيا ما يسمى الاشتراكية أو الشيوعية أو غير ذلك.

إنما يريد الإسلام أن يكون الناس إخوة متحابين، ولا أخوة ولا تحاب بين إنسان عنده كل شيء وإنسان ليس عنده شيء، لا أخوة بين ظالم ومظلوم، لا أخوة بين من يضع يده على بطنه يشكو زحمة التخمة، ومن يضع يده على بطنه يشكو عضة الجوع!

إنما الأخوة الحقيقية حينما يتراحم الناس ... يتكافل الناس، يكفل بعضهم بعضا، يصب الغني على الفقير، يأخذ القوي بيد الضعيف: **{فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ 11 وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ 12 فَكُّ رَقَبَةٍ 13 أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ 14 يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ 15 أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ 16 ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ 17 أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ}** [البلد: 11 - 18].

في العيد يتجلى المعنى الإنساني: أن يهنئ كل مسلم أخاه المسلم، أن يزيل الفجوة أو الجفوة بينه وبينه، أن يقطع الخصومة ويصلح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة، أما إنها لا تحلق الشعر ولكن تحلق الدين[346].

---

(346) عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟**» قالوا: بلى، قال: «**إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة**» رواه أبو داود، وابن حبان في «صحيحه»، والترمذي وقال: حديث صحيح. قال: ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين**». «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (738/2 برقم (1695).

لئن جاز للناس أن يتخاصموا أو يتدابروا في أيام أخرى - وهذا غير جائز في أي وقت - فلا يجوز لهم أن يتدابروا ويتقاطعوا ويتخاصموا في أيام الأعياد.

ابحث عن قريبك ... عن أخيك ... عن رحمك ... عن جيرانك ... عمن حولك، صل من قطعك، وابذل لمن منعك، وأعط من حرمك، واعفوا عمن ظلمك، وأحسن إلى من أساء إليك، فهذه مكارم الأخلاق التي بعث النبي صلى الله عليه وسلم ليتممها: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[347].

عيد ولا فرحة من الأعماق:

أيها الإخوة: من شأن يوم العيد أن يكون يوم فرح، ويوم سرور وابتهاج، بل قالوا: إنما سمي العيد عيدًا، لأن السرور يعود فيه ويتكرر.

ولكننا - للأسف الشديد - نحن المسلمين تأتي علينا الأعياد عيدًا بعد عيد، نحاول أن نفرح، نحاول أن نبتهج، نحاول أن نبتسم ابتسامة تخرج من أعماق قلوبنا، ولكنا إذا نظرنا في حال المسلمين تقطعت أكبادنا، ودمي فؤادنا، حرة على ما وصل إليه حالنا.

نحاول أن نفرح، وكيف نفرح وهذا حالنا، قديمًا قال أبو الطيب المتنبي في أحد الأعياد:

---

(347) أورده مالك في «الموطأ» بلاغًا عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقال ابن عبد البر: هو متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره مرفوعًا. انظر: «تمييز الطيب من الخبيث» (ص 37) ط. دار الكتاب العربي ببيروت، و«المقاصد الحسنة» برقم (204)، و«كشف الخفاء» برقم (638).

عيد بأية حال عدت يا عيد؟ بما مضى أم لأمر فيك تجديد؟
أما الأحبة فالبيداء دونهم فليت دونك بيدًا دونها بيد!

كان هم المتنبي في هذا العيد الذي لم يفرح به: بعد الأحبة عنه، ولو كانت مصيبتنا «بعد الأحبة» لهان الأمر.

لازالت قضايانا معلقة:

إن مصيبتنا كبيرة نحن المسلمين، لازالت قضايا معلقة، لازلنا نشكو مما أصاب الأمة الإسلامية.

الصهيونية وفلسطين:

لازال الصهاينة يحتلون فلسطين، لازال المسجد الأقصى أسيرًا في أيديهم، لازالوا يخططون لهدم المسجد الأقصى وبناء هيكل سليمان، لازالوا يعملون ليل نهار، يخططون ويدبرون لتمزيق أمتنا العربية والإسلامية، وهم للأسف ينجحون يومًا بعد يوم.

كنا نظن أمرهم هينًا، وكنا نعتقد أن وجودهم سحابة صيف، أو إقامة ضيف! وأنهم لن يستمروا طويلًا، ولكنهم استمروا وكثروا، لماذا؟ لا لأنهم أصحاب حق ونحن أصحاب باطل، لا، ولكن لأنهم خططوا وارتجلنا، وعملوا وتكاسلنا وتجمعوا على باطلهم، وتفرقنا عن حقنا!

ثم إننا أهملنا مصدر قوتنا ... سر قوتنا، وصانع النصر في تاريخنا، وهو: التمسك بالإسلام.

تمسكوا هم باليهودية ولم نتمسك نحن بالإسلام، دخلنا المعارك نحن وهم، ومعهم التوراة وليس معنا القرآن، دخلوا المعارك ومعهم إيمان بالتراث

والتلمود، ونحن نهزأ من البخاري ومسلم.

لهذا كانت النتيجة: أن ظلوا إلى اليوم في فلسطين، بل يحلمون بإسرائيل الكبرى، من الفرات إلى النيل!

لازالت قضايا معلقة.

لبنان والحرب الأهلية:

لازال لبنان يعاني مما يعاني من الصراع الداخلي، والحرب الأهلية، لازال المسلمون الصادقون يعانون الجراح، لازالت الصهيونية وعملاؤها تخرب في لبنان، وتبعث عملاءها يقتلون ويذبحون.

لقد بلغ بأهل المخيمات من أبناء فلسطين الذين طال عليهم الحصار شهرًا بعد شهر، واشتد عليهم الجوع - والجوع كافر - أن أفتاهم من أفتاهم بأن يأكلوا لحوم الموتى!

أين المسلمون؟ أين أهل النجدة؟

أجل، لازالت قضايا معلقة.

الجهاد في أفغانستان والفلبين وإريتريا:

في أفغانستان يجاهد إخواننا هناك جهاد الأبطال، يبذلون الأرواح، يريقون الدماء، يقفون في وجه القوة العاتية الكبرى بما لديهم من إمكانات صغيرة، ولكنهم استطاعوا أن يقهروا هؤلاء، وأن يستولوا على معظم أراضي أفغانستان[348].

---

(348) ونحن اليوم - إزاء ما يحدث بينهم من اقتتال دام مرير لا مبرر له قلب العرس إلى

ولكن القضية لازالت تحتاج إلى وقود دائم من الرجال والأموال والسلاح.

لازال إخواننا يقاتلون في الفلبين، لازال إخواننا يقاتلون في إريتريا، لا زالت الأقليات الإسلامية تضطهد هنا وهناك.

المسلمون في الهند:

تصوروا: المسلمون في الهند يعتبرون أقلية، ولكنهم أكثر من مائة مليون مسلم، ومع هذا نقرأ ونسمع ما بين آونة وأخرى مجازر بشرية تقام للمسلمين، يذبحون فيها ذبح الأغنام أو البقر، لا، فإن البقر لا تذبح بل تعبد هناك، والأغنام لا تذبح.

لا يذبح هؤلاء شيئًا فيه روح، لا يذبحون دجاجة، بل لا يستخدمون شيئًا مما يبيد الحشرات.

دخلت بعض الفنادق هناك، وكنا نشكو من البعوض ولكنهم لا يسمحون بشيء يقتل البعوض لأنه ذو روح، الشيء المستباح هناك هو دماء المسلمين، كأن المسلمين أناس ليس لهم أرواح!

هذا ما يحدث لإخوتنا من أهل الإسلام.

مليار من المسلمين، ولكنهم كغثاء السيل:

المسلمون في كل مكان مضطهدون، لماذا؟ ألأن المسلمين قلة في العدد؟ لا ... والله، لقد زادوا على المليار ... على الألف مليون، تقدر الإحصاءات

مأتم - لا نملك إلا أن ندعو الله أن يجمع قلوبهم، ويحقن دماءهم، ويلهمهم الرشاد، ويقيهم شرور أنفسهم والكائدين من حولهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

المسلمين اليوم بألف وثمانين مليونًا (1080) أو تزيد.

ولكن ما قيمة أعداد هي كثرة كغثاء السيل كما سماها النبي صلى الله عليه وسلم؟!

في الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود عن ثوبان رضي الله عنه: «**يوشك الأمم أن تداعي عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**». قال قائل: يا رسول الله ومن قلة يومئذ؟ قال: «**لا بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، ولتعرفن** «في أبو داود»: **وليقذفن الله» في قلوبكم الوهن**». قال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**»(349).

الأمة في مرحلة الغثاء والوهن النفسي:

نحن الآن - للأسف - في مرحلة الغثائية: «**غثاء كغثاء السيل**»، أمة بالملايين ولكنها كالغثاء، والغثاء: ما يحمله السيل من القش والورق والحطب والعيدان، أشياء تجمعها الخفة والسطحية ودعم التجانس وأنه لا هدف لها، السيل ليس له هدف، النهر له هدف ومجرى ومصب، ولكن السيل لا هدف له ولا مجرى.

الأمة في هذه المرحلة «**غثاء كغثاء السيل**» ولذلك طمع فيها من لا يدفع عن نفسه، غلبها مغلب، تجرأ عليها الجبان، تعزز عليها الذليل.

---

(349) ينظر «شرح السنة» للبغوي بتحقيق الشاويش والأرناؤوط (16/15)، الحديث (4224).

أرأيتم أذل من اليهود؟ {أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ}(350)، الذين {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ}(351)، الذين عاشوا طويلًا في رحاب المسلمين وفي كنف الإسلام، يوم طردتهم الدنيا من شرق وغرب، لم يجدوا صدرًا حنونًا إلا صدر الإسلام في دار الإسلام.

انقلب هؤلاء علينا، واحتلوا ديارنا، وأخرجوا أهلها من أرضهم وديارهم.

لم هذا كله؟

إنه العامل النفسي ... الوهن ... حب الدنيا وكراهية الموت.

إننا إذا أردنا أن نخرج من مرحلة الغثاء إلى مرحلة التأسيس والبناء، فينبغي علينا أن نبني الإنسان، بناء الإنسان هو الحل الذي لا حل غيره.

إن المسلمين يشكون في كل مكان، يشكون من التخلف، يشكون من التشتت والتفرق، يشكون من انهيار الأخلاق، يشكون من فساد السياسة والاقتصاد، يشكون من فساد الإدارة، يشكون ويشكون.

كلما جلست في منتدى - صغير أو كبير - وجدت الناس يشكون، في مصر يشكون، في الخليج العربي يشكون، خارج العالم العربي يشكون.

الناس هنا يشكون، يشكون من الغلاء، يشكون من سوء الحال، يشكون من الديون، يشكون من اضطراب الأمن، يشكون من ضياع الأخلاق، يشكون كذا وكذا.

---

(350) قال تعالى: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ...} [البقرة: 96].

(351) قال تعالى: {...وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ} [البقرة: 61].

أول العلاج بناء الإنسان:

ولكن ما علاج هذا كله؟ وما قيمة الشكوى بلا عمل؟

النـاس يشـكون ولا يتقـدمون للعمـل والبنــاء، ينبغـي أن تقتـرن الشـكوى بالعمل، بل أن ندع الشكوى ونبدأ العمل، وأول العمل: بناء الإنسان.

الإنسان - بإذن الله - هو الذي يحيي البلد الميت، ويخضر الحياة اليابسة، الإنسان هو الذي يصنع الحضارة، هو الذي ينشيء النهضة، هو الذي يقوم الأعوج، ويصلح الفاسد، بدون الإنسان لا يمكن أن يقوم بناء حضاري، لا يمكن أن تقدم أمة.

وضعنا بين الأمس واليوم:

نحن العرب والمسلمين صرنا اليوم في ذيل القافلة البشرية، كنا في مطلع القافلة ... في مقدمتها ... في مأخذ الزمام منها، قرونًا طويلة، قدنا الحضارة، كنا أمام البشرية، أقمنا حضارة ربانية ... إنسانية ... أخلاقية ... عالمية، اجتمع فيها العلم والإيمان، توازنت فيها الروحية والمادية، وتكامل فيها نور الوحي ونور العقل، كما التقى فيها الإبداع المادي والرقي الأخلاقي.

أقمنا حضارة متوازنة، حضارة وسطًا، لأمة وسط، ذات منهج وسط.

كانت الحضارة الإسلامية هي الحضارة الوحيدة في العالم، كانت اللغة العربية هي لغة هذه الحضارة، كانت الجامعات الإسلامية هي موئل طلاب العلم من أوربا وغيرها، كانت الكتب الإسلامية هي مراجع الدارسين في أنحاء الدنيا، كانت أسماء علماء المسلمين ألمع الأسماء في عالم العلم.

بلغنا من القوة - في وقت من الأوقات - أن سمع عمر بن عبد العزيز

بأسير مسلم أهين في بلاد الروم، فكتب إلى ملك الروم: أما بعد، فقد بلغني أنك أهنت مسلمًا كتب الله له الكرامة والعزة، فإذا بلغك كتابي هذا فخل سبيله، وإلا غزوتك بجنود أولها عندك وآخرها عندي.

ولم يسع هذا الملك إلا أن يطلق سراح الأسير المسلم.

بلغ مجدنا أن جلس هارون الرشيد يومًا، فرأى سحابة في السماء، فقال: أيتها السحابة، شرقي أو غربي، وأمطري حيث شئت، فسيأتي خراجك إلى بيت مال المسلمين.

إذا أمطرت في بلاد المسلمين جاءت الزكاة لبيت مال الزكاة، وإذا أمطرت بلاد غير المسلمين جاء الخراج للمسلمين.

كنا سادة الدنيا يوم كنا متمسكين بالإسلام.

والناظر في التاريخ الإسلامي ... في الامتداد والانكماش ... في المد والجزر ... في النصر والهزيمة ... في القوة والضعف، يجد أننا ننتصر، ونقوى، ونعتز، ونسود، ويعمنا الرخاء والازدهار، حين نقترب من الإسلام ونضعف، ونذل، ونهزم، ونصبح مضغة في أفواه الأمم، يوم نبتعد عن الإسلام.

أنظر أيام الراشدين، أنظر أيام عمر بن عبد العزيز، أنظر أيام الرشيد والمأمون، أنظر أيام نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي، كلما وجدت اقترابًا من الإسلام الحقيقي، وجدت القوة والنهضة والازدهار والعزة والنصر.

حتى إذا تركنا الإسلام تركنا الله عز وجل ووكلنا إلى أنفسنا، وإذا وكل الله

امرءًا إلى نفسه فهيهات أن يتحقق له نصر، أو يتحقق له سيادة.

إذا أردنا حل مشكلاتنا، فلا حل لمشكلاتنا إلا بالعودة إلى الإسلام ... كل الإسلام.

ليس الإسلام هو الحدود:

ليس الإسلام - أيها الإخوة - كما يتصور بعض الناس - ومنهم بعض الدعاة إلى الإسلام - محصورًا في إقامة الحدود، في أن تقطع يد السارق، أو تجلد السكير أو الزاني، أو تقيم الحد على المرتد.

لا، ليس هذا هو كل الإسلام، بل هذه الأشياء من أواخر ما نزل في الإسلام، معظم الحدود نزلت في سورة «المائدة» وهي من أواخر ما نزل من القرآن.

إنما قبل أن نقيم الحدود، نريد أن نربي الناس على الإسلام، نريد أن ننشيء الإنسان المسلم، نريد أن نزيل العوائق من طرق الإسلام، العوائق التي تحول بين الناس وبين الرجوع إلى الله تعالى .

نريد إعلامًا إسلاميًا، نريد تعليمًا إسلاميًا، نريد ثقافة إسلامية، نريد فنونًا إسلامية، نريد أسرة إسلامية، نريد تقاليد إسلامية، ثم نريد - بعد ذلك - قوانين إسلامية.

إن تطبيق الشريعة الإسلامية - الذي أصبح مطلبًا جماهيريًا في ديار الإسلام - لا يعني مجرد تغيير القوانين المستوردة بقوانين إسلامية، القوانين وحدها لا تصنع المجتمعات، ولا تحيي ضمير الإنسان، وخاصة قانون العقوبات.

إنما الذي يصنع الإنسان هو التربية المستمرة، هو التوجيه الدائم، يقوم عليه البيت، والمدرسة، والجامعة، والمسجد، والإذاعة، والتلفاز، وكل أجهزة التوجيه والتثقيف والترفيه والإعلان والتعليم.

نريد الإنسان المؤمن:

إن حل مشكلاتنا إنما يمكن في بنا الإنسان المؤمن، إذا بنيت هذا الإنسان المؤمن فهو المفتاح الذي به يفتح كل مغلق، وبه يعالج كل داء، وبه تنحل كل مشكلة.

هيهات أن يجد الناس حلًا لما يعانون، مادام أولئك الذين نراهم في كل مكان عن يمين وشمال، من موتى الضمائر الذين لا يبالون ما أكلوا، من حلال كان أم من حرام، الذين لا يبالون أن يبنوا قصورًا ولو من جماجم البشر، وأن يزخرفوها بدماء خلق الله.

هؤلاء لا تصلح بهم دنيا، ولا ينهض بهم دين.

هؤلاء الذين يتاجرون في السموم ... في المخدرات، من أجل أن يكسبوا أموال، ولو على حساب إخوانهم وأهليهم وجيرانهم، يريد كل منهم امتلاك ثروة طائلة، ولو قتل الألوف والملايين من الناس.

تجار المخدرات ... تجار الأغذية الفاسدة ... تجار الجنس ... تجار العملة ... تجار السوق السوداء ... الذين يقبلون الرشوة ... الذين يفسدون الحياة، كل هؤلاء إنما حدث منهم ما حدث لفقدان الإيمان، هذه الجمرة المتقدة في الصدور قد انطفأت، الشعور برقابة الله تعالى لم يعد قائمًا.

نريد الإنسان الذي يشعر برقابة الله عليه قبل رقابة الناس، الذي يقول ما

قالتـه تلـك الفتـاة الصـغيرة: إذا كـان أميـر المـؤمنين لا يرانـا فـإن رب أميـر المـؤمنين يرانـا، الـذي يقـول مـا قالـه ذلـك الراعـي العبـد المملـوك لعمـر بـن الخطاب حينما جاع في طريقه إلى الحج، فوجد راعيًا يرعى غنمًا، فذهب إليه له: يا هذا بعنا شاة من غنمك، فقال: يا صاحبي إنها ليست غنمي، أنا مملوك ولا أملك منها شيئًا - وهو لا يعرف عمر، فلم يكن مع عمر ما يدل على أنه أمير المؤمنين، لا جنود ولا خدم ولا هيل ولا هيلمان - فأراد عمر أن يختبره فقال له: خذ ثمنها وقل لسيدك: أكلها الذئب، فقال: يا هذا فأين الله؟! أي: إذا قلت هذا لسيدي الأصغر، فماذا أقول لسيدي الأكبر؟! إذا استطعت أن أكذب على المخلوق، فكيف لي أن أكذب على الخالق؟!

عبد مملوك قال هذا لعمر فسأل عمر سيده واشتراه منه وأعتقه، وقال له: أعتقتك هذه الكلمة في الدنيا من الرق، أرجو أن تعتقك في الآخرة من النار.

متى تكتمل فرحتنا بالعيد؟

يا أيها الإخوة: إن يوم العيد يوم فرحة وسرور، وكان بودنا أن نفرح بعيدنا، ولكن آلام المسلمين تدمي القلب، ولا تجعل الفرحة تغمر أفئدتنا كما ينبغي.

نحن نفرح حقًا يوم تعلو كلمة الإسلام في دنيا الناس، يوم تحكم شريعة الخالق دنيا الخلق، يوم تشرق أنوار السماء على ظلمات الأرض، يوم تكون كلمة الله هي العليا وكلمة أعدائه هي السفلى: {**... وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ 4 بِنَصۡرِ ٱللَّهِ ...**} [الروم: 4، 5].

وقبل ذلك ستظل الأعياد باهتة لا معنى لها، لأن الأمة لم تعد لها هويتها

الحقيقية، ستظل نردد قول الشاعر «محمود غنيم» رحمه الله في أحد الأعياد في قصيدة له:

قالوا: عجبنا ما لشعرك باكيا في العيد؟ ما هذا بشأن معيد!
ما حيلة العصفور قصوا رشيه ورموه في قفص، وقالوا:

نحن هذا العصفور المهيض الجناح، المنتوف الريش، لا نستطيع أن نغرد في الأعياد، حتى نرى أمتنا كما أراد الله لها: تتبوأ مكانتها تحت الشمس.

صحوة الشباب المسلم هي الأمل:

ولكن الذي يعزبنا، ويملأ قلوبنا بالثقة، وأفئدتنا بالأمل والرجاء، هو هذه «الصحوة الإسلامية» التي نراها في كل مكان، صحوة أبناء الإسلام وخصوصًا من الشباب والشابات، هؤلاء الذين نهضوا بعد ركود، وتحركوا بعد جمود، واستيقظوا بعد رقود، وعرفوا أن الإسلام حق، فاستمسكوا بعراه - بالعروة الوثقى لا انفصام لها، تمسكوا بالإسلام: عقيدة وشريعة، وأخلاقًا وحضارة، ورابطة وأخوة، ومنهاجًا شاملًا للحياة، تمسكوا بالإسلام: عملًا به، وعملًا له، ودعوة إليه وجهادًا في سبيله.

هذا الشباب - كما قلت وأقول دائمًا - هو أثمن ما في البلاد الإسلامية، وأنفس ما فيها.

إذا كان في البلاد الإسلامية: ذهب أسود يتمثل في النفط، أو ذهب أبيض يتمثل في القطن، أو ذهب أصفر، أو غير ذلك، فأغلى من الذهب وأنفس من الجواهر هو: هذا الشباب ... هؤلاء الربانيون، الصوام القوام، الذين رأيتهم في الشرق والغرب: توابين متطهرين، راكعين ساجدين، آمرين بالمعروف،

ناهين عن المنكر، حافظين لحدود الله.

أنظر إلى المساجد، من يعمرها؟

كان الذين يرتادون المساجد قديمًا: الشيوخ الكبار، الذين أحيلوا على المعاش، الذين أكل الدهر عليهم وشرب، فأرادوا أن يختموا الحياة برجعة إلى الله.

كنت قلما تجد شابًا.

رواد المساجد الآن معظمهم من «الشباب».

أنظر مواسم الحج ومواسم العمرة: كان الناس قديمًا يختمون حياتهم بالحج، إذا اقترب الإنسان من القبر قال: الحج هو تمام الأمر وختام العمر!

الآن معظم الذين يزحمون مواسم الحج والعمرة من «السباب».

«الشباب» الآن هو الذي يقاتل في أفغانستان، هو الذي يقاتل في الفلبين، هو الذي يعمل لإعلاء كلمة الإسلام.

الذين ينادون بالشريعة الإسلامية هم «الشباب».

«الشباب» هم عماد الأمة، هم ذخيرة مستقبلها، هم الذين يصدق فيهم قول الله تعالى : **{... إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى}** [الكهف: 13].

إن الصحوة الإسلامية هي أملنا، هي رجاؤنا، هي غدنا إن شاء الله.

الفقه المنشود لشباب الصحوة:

كل ما نرجو من أبناء هذه الصحوة أن يحسنوا فقه الإسلام وفقه الواقع، أن يعرفوا أحكام الله في شرعه، وسنن الله في خلقه، ألا يتعجلوا، ألا يقطفوا

الثمرة قبل أوانها، ألا يستخدموا العنف في غير حاجة إليه.

العنف مرفوض:

لماذا يفكر بعض الشباب في العنف؟

إنما يستعمل العنف «اليائس» الذي لا يجد استجابة ولا تجاوبًا من الناس، ولكننا - بحمد الله - نجد الإسلام ينتشر وينتشر، والدعوة إليه تمتد وتمتد، والمقبلين عليه يزيدون ويزيدون، يومًا بعد يوم.

المستقبل لنا، الشعوب معنا، الجماهير معنا، فلماذا نتحاور بالسلاح، ولا نتحاور بالكلمات؟!

إن الذي يستخدم منطق القوة، هو الذي يعجز عن قوة المنطق. والدعاة إلى الإسلام معهم المنطق الذي لا يغلب، والحجة التي لا تدحض، والنور الذي لا يطفأ.

نحن معنا الحق الذي قامت به السموات والأرض، معنا الله، معنا ملائكته، معنا المؤمنون، معنا الشعوب.

الشعوب بفطرتها مع الإسلام، فلماذا نستعجل؟

والله إن المستقبل مستقبل الإسلام.

لو أحسنا الصبر، وأحسنا العمل، وصبرنا على طول الطريق، فسنجد هذه الأمة معنا.

المستقبل للإسلام في مصر:

إذا كان هذا صادقًا في كل الشعوب الإسلامية، فهو أصدق ما يكون في

بلدنا هذا ... في مصر. مصر مسلمة بفطرتها ... بتاريخها، لا يحركها شيء كما يحركها الإسلام، لا ينفذ إلى قلوبها شيء كما تنفذ إليها كلمة الإيمان، لا تقاد بشيء كما يقودها المصحف.

حينما نادى المنادون بشعارات القومية والاشتراكية والماركسية وغيرها، هل وجدوا استجابة؟ هل وجدوا من يجيبهم؟ هل انتصروا في معركة؟ لا.

ولكن يوم رفع شعار «الله أكبر» ماذا صنعت هذه الأمة؟ ماذا صنع هذا الشعب؟ صنعوا العجائب.

«الله أكبر» هي التي تقود هذه الأمة.

فيا شباب الإسلام ... يا شباب الصحوة ... يا أبناء الدعوة.

افقهوا هذه جيدًا، تعاملوا مع هذه الأمة برفق: **{ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ...}** [النحل: 125].

ارفقوا، فـ «**إن الله يحب الرفق في الأمر كله**»(352)، «**وما دخل الرفق في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه**»(353).

عليكم بالاعتدال ... بالوسطية، فهي إحدى خصائص الإسلام الكبرى.

ابتعدوا عن الإفراط وعن التفريط، عن الغلو وعن التقصير، والزموا

---

(352) أخرجه البخاري في الأدب، ومسلم في السلام «شرح السنة» للبغوي بتحقيق الشاويش والأرناؤوط (73/13).

(353) روى مسلم في «صحيحه» عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه**». «شرح السنة» للبغوي (75/13) برقم (3393).

المنهج الوسط، الذي سماه الله تعالى: الصراط المستقيم، وعلمنا أن ندعو إليه دائمًا في كل يوم في صلواتنا: {**ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ 6 صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ**} [الفاتحة: 6، 7].

إن مصر تظل في الطليعة من ديار الإسلام، ويجب أن تظل في الطليعة، ففيها الحركة الإسلامية الأم، وفيها «الأزهر» العتيد، وفيها التدين الأصيل، وإننا لواثقون أنها ستقود - بإذن الله - مسيرة الإسلام الصحيح ... الإسلام العملي ... الإسلام الواقعي ... الإسلام الوسطي، وإننا لمنتظرون هذا اليوم الذي تسود فيه أحكام الله، وتعلو فيه شرعة الله، وتجتمع الأمة على كلمة الله.

لا ندعو إلى عصبية ولا طائفية:

إننا حين ندعو إلى الإسلام، لا ندعو إلى عصبية، ولا إلى طائفية، بل ندعو إلى المثل العليا، إلى القيم الرفيعة، التي جاءت بها النبوات جميعًا، جاء بها موسى وعيسى والنبيون من قبل، ولن يحكم الإنسان المسيحي شرعة منبثقة من دين، خير له من أن يحكمه قانون لا مكان للدين فيه.

إن الإسلام هو دين الإنسانية كلها، فحين ندعو إليه، ندعو إلى خير وطننا، وخير أمتنا العربية، وخير أمتنا الإسلامية، وخير الإنسانية كلها، وصدق الله العظيم: {**وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ**} [الأنبياء: 107].

يا أبناء الصحوة الإسلامية:

هذا يومكم ... يوم العيد، وهذا غدكم المأمول، أنتم - إن شاء الله - طلائع النصر ... طلائع البعث، أنتم المرجون للغد، المأمولون للمستقبل، فكونوا عند حسن الظن بكم والثقة فيكم، أهلًا للعمل والدعوة والجهاد في سبيل الإسلام،

حتى يعلي الله كلمته، وينجز وعده: {**وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ 6 يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ**} [الروم: 6، 7].

{**... رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ**} [آل عمران: 147].

{**... رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ**} [الحشر: 10].

وصل اللهم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلم.

أقول قولي هذا، واستغفر الله لي ولكم، وتقبل الله منا ومنكم، وكل عام وأنتم بخير.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *